البنية الذهنية للجمالية العربية

د. عبد القادر فيدوح
جامعة البحرين

كانت - وإلى وقت قريب - في دراسات الأدب العربي القديم فكرة خاطئة، مؤداها أن القصيدة العربية عبارة عن مجموعة أبيات مفردة، مجرّدة من الخيال، خالية من أي مستوى فكري، لا لشيء، إلاّ لأنها تمثل بدائية الإنسان العربي في هذا العصر؛ وأن هذا «العربي ضعيف الخيال جامد العواطف»(١)، وحتى إذا تخيّل وبدا منه شيء من التفكير فلا يعدو أن يكون ذلك تصوراً سطحياً، نابعاً من عواطفه ومشاعره لا غير!..

وللرد على مثل هذه المزاعم والاطلاع على مستوى التفكير العربي خلال هذا العصر، لابد من إعطاء نظرة مركّزة نلم بها إلمامة سريعة عن صلة العرب بغيرهم من الأمم الأخرى، لأن معظم الدراسات القديمة تقر أن الجزيرة العربية قبل الإسلام كانت منعزلة عن العالم؛ وبعدها يمكن الحكم على ما في الدراسات القديمة من أحكام، ومدى صحتها أو مجافاتها للحقيقة.

أ - أصل التفكير

كانت الجزيرة العربية على صلة متينة بالأمم الأخرى، وقد خضعت لعدة عوامل نتيجة لهذه الصلات وما نتج عنها من التأثيرات الحضارية التي نقلت إلى العرب ألواناً كثيرة من جوانبها خاصة منها الثقافية والدينية.

وكل ما حظيت به الجزيرة العربية من دراسات مفصلة لتاريخ العرب القديم لا يتعدى القرن العاشر قبل الميلاد، خاصة في مجال الاحتكاكات والعلاقات الخارجية مع غيرهم مثل العبرانيين والآشوريين والبابليين والفرس، وعلاقاتهم أيضاً مع الحضارات الغربية (حضارة اليونان في عهد الاسكندر الكبير (٣٥٦ - ٣٢٣ق. م.)، حيث اتجهت بأنظارها إلى شبه الجزيرة العربية؛ وكان هناك اعتباران وراء حملة الرومان على الجزيرة العربية «أحدهما هو السيطرة على مداخل البحر الأحمر إما عن طريق كسب

العرب صفّهم وإما بإخضاعهم لهم. والاعتبار الآخر هو ما سمعه «أغسطس» - أول الأباطرة الرومان عن الثروة الهائلة لهذه المنطقة التي يكثر فيها الطيوب والتوابل، الأمر الذي أغراه بإرسال هذه الحملة حتى يتمكن من أن يتعامل معهم كأصدقاء أغنياء أو أن يسيطر عليهم كأعداء أغنياء»(٢).

إن الجزيرة العربية في تاريخها القديم شهدت أحداثاً سياسية استمرت زمناً طويلاً، سواء مع الحضارات الشرقية أو مع القوتين العظميين اللتين كانتا تجاوران شبه الجزيرة العربية غرباً (اليونان والرومان) إلى أن تطورت هذه الأحداث على شكل جديد بين إمبراطوريتين عظيمتين تحيطان بشبه الجزيرة العربية من الشرق ومن الغرب، رغم استمرار ما بينهما من توتر كان يصل إلى الصدام العسكري السافر في بعض الأحيان (كما حدث على سبيل المثال في أواسط القرن السادس حين هاجم الإمبراطور الفارسي خسرو «كسرى أنو شروان» أراضي الإمبراطورية الرومانية فاجتاح سورية وأسقط أنطاكية ودمّرها عن آخرها). إلا أن ظروفاً جديدة كانت قد ظهرت في غضون القرن الثالث الميلادي أدت إلى اعتماد هاتين الإمبراطوريتين على إمارتين عربيتين حديثتين كل منهما تتبع قوة من القوتين الكبيرتين وتدافع عن حدود هذه القوة في مجابهة القوة الأخرى؛ وفي بعض الأحيان كان الأمر ينتهي بأن ينحصر الصراع بين هاتين الإمارتين نفسيهما، دفاعاً عن مصالح القوى الكبرى(٣).

وكان من وراء هذه المشادات بين العرب وهذه القوات الأجنبية أن جلبت معها جوانب من - هذه الحضارات الشرقية والغربية - دياناتها ومعتقداتها، خاصة منها النصرانية واليهودية والمجوسية، علماً بأن هذه الديانات كانت قد دخلت إلى الجزيرة العربية قبل هذا التاريخ بأمد بعيد عن طريق التجارة إلى أن توسعت معارفها مع هذه الحروب، حيث كانت الجزيرة العربية طريقاً عظيماً للتجارة بين الأمم المجاورة لها، وكانت مكة على وجه الخصوص قاعدة ينطلق منها العرب لتجارتهم «وعلى تجارة مكة كان يعتمد الروم في كثير من شؤونهم، حتى فيما يترفهون به - كالحرير - وحتى يستظهر بعض مؤرخي الفرنج أنه كانت في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشؤون التجارية وللتجسس على أحوال العرب، كذلك كان فيها أحباش ينظرون في مصالح قومهم التجارية»(٤).

وكان المبشرون يرافقون هذه الحملات العسكرية والتجارية؛ وقد استطاعوا أن يؤثروا في نفوس كثير من العرب، ويدخلونهم في معتقداتهم، فلم يعبأوا «بالمصاعب والمشقات التي كانوا يتعرضون لها، فدخلوا في مواضع نائية في جزيرة العرب، ومنهم من رافقوا الأعراب، وعاشوا عيشتهم، وجاوروهم في طرز حياتهم فسكنوا معهم الخيام حتى عرفوا بأساقفة الخيام وبأساقفة العرب بالبادية. وقد ذكر أن مطران (بصرى) كان يشرف على نحو عشرين اسقفاً انتشروا بين عرب حوران وعرب غسان، وقد نعتوا بالنعوت المذكورة، لأنهم كانوا يعيشون في البادية مع القبائل عيشة أهل الوبر»(٥).

وليس يعنينا في تقرير هذا كله إلا أن نصدّق بوجوب ارتباط الجزيرة العربية

بغيرها من الأمم المجاورة لها منذ أمد بعيد امتد إلى تاريخ ما قبل الميلاد، وهو أمر لا يمكن إنكاره. ودليلنا على ذلك هو استفادة العرب «بكلمات كثيرة فارسية، ورومانية، ومصرية، وحبشية، نقلها هؤلاء التجار وأمثالهم وأدخلوها في لغتهم وجعلوها جزءاً منها، وأخضعوها لقوانينها ونطق بها القرآن»(٦)؛ وهو ما يوضح لنا احتكاك العرب بغيرهم من جهة، واستفادتهم – فوق أرباحهم التجارية – من معارف هذه الحضارات وآدابها ودياناتها، من جهة أخرى، مما ساعد العرب على خصب البنية العقلية، فانعكس ذلك على تفتّق القريحة بالشعر.

وربما كانت أهم سبل الاتصال بين الحضارة العربية والحضارات المجاورة هو ما أشار إليه الدكتور ناصر الدين الأسد عند تعرضه لاتصال العرب بغيرهم عن طريق التجارة والأسواق والمواسم العربية، حيث كان يؤمها – كذلك – بعض التجار من الفرس والهنود والمصريين والرومان، فكان كل أولئك يلتقون على صعيد واحد يأخذون ويعطون، ويتبادلون ما عندهم من متاع وعروض، ومن آراء وأفكار ومن مظاهر الحضارات؛ بعد ذلك أشار إلى خاصية أخرى تعد من أهم سبل هذا الاتصال وهي «هذه الجاليات الأجنبية الكبيرة التي كانت تفد على الجزيرة العربية فتقيم فيها وتطيل المقام، بل تتخذ منها موطناً آخر تقضي فيه حياتها وتنشئ فيه ذريتها. فكانت هذه الجاليات مختلفة الأديان والأجناس والأهداف: فمنهم النصراني، واليهودي، والمجوسي، والوثني؛ ومنهم الفارسي، والرومي، والمصري، والهندي، والحبشي؛ ومنهم من جاء الجزيرة للتجارة فافتتح فيها دوراً للهو من غناء وشراب وبغاء، ومنهم من جاءها فأنشأ فيها مستعمرات زراعية وعمر الأرض وأثارها هناك؛ ومنهم من جاءها لغير هذا وذاك كالبعثات التبشيرية الدينية التي انبثت في أنحاء الجزيرة وجاست خلالها وانتشرت بين أهلها، وأقامت البيع والصوامع والأديرة في المدن والصحراء»(٧).

وأول ظاهرة تسترعي انتباهنا عند اطلاعنا على تاريخ الفكر الديني للأمم القديمة ومنها الأمة العربية، أنها كانت على صلة وثيقة بعضها ببعض، وتشترك في كثير من العبادات. صحيح أن الدراسات «الإثنولوجية» تقدم بعض التعقيدات للوضع الديني في الجزيرة العربية في هذه الفترة الزمنية، لكن ذلك لا يمنع من استنتاج أهم الأحداث ضمن هذه الشعائر والمعتقدات التي اشتركت فيها حضارات الأمم المجاورة للجزيرة العربية وتأثر الفكر الديني العربي «بالأفكار الدينية السامية في حضارات بلاد الرافدين وبصفة خاصة الحضارة البابلية الكلدانية، وكذلك تأثره بالفكر الديني الآرامي. وكان للقوافل التجارية المتجهة من اليمن إلى مكة ويثرب ومنها إلى مدائن صالح ومعان والبتراء وجرش ودمشق وتدمر وبلاد الرافدين، أثرها البالغ في تحقيق الاتصال الحضاري المباشر بين تلك الحضارات»(٨).

وإذا تجاوزنا الاعتبارات العقائدية البدائية، الطوطمية عند العربي نتيجة تطوره الفكري وفق تجاربه من الحياة إلى معتقداته الوثنية فإن أهم رواية تدل على ذلك هي ما قاله الأرزقي(٩) من أن «أول ما كانت عبادة

الحجارة في بني إسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم إلا احتمل معه من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم، وصبابة بمكة والكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم من حجارة الحرم، خاصة حتى خلفت الخلوف بعد الخلوف، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا الوثنية بدين إبراهيم وإسماعيل وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات».

جاء في كتاب «الأصنام» لابن الكلبي عدد من أسماء الأصنام التي عبدتها العرب في عصر ما قبل الإسلام أهمها «اللات والعزى ومناة» وهي التي نزل فيها ذكر الله الحكيم ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاّتَ والعُزَّى* ومَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخرَى﴾(١٠) فكان تفكيرهم باعتقادهم في عباداتهم لهذه الأصنام رمزاً لعبادة الله والتقرب إليه بواسطتها بطرق مختلفة وعند فرق متعددة، منها فرقة قالت : ليس لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته فعبدناها لتقربنا إليه تعالى كما قال حكاية عنهم ﴿مَا نَعبُدُهُم إلاّ لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللّهِ زُلفَى﴾ (الزمر: ٣). وفرقة قالت: الملائكة ذوو جاه ومنزلة عند الله فاتخذناها أصناماً على هيئة الملائكة لتقربنا إلى الله. وفرقة قالت : جعلنا الأصنام قبلة لنا في عبادة الله تعالى كما أن الكعبة قبلة في عبادته. وفرقة اعتقدت أن على كل صنم شيطاناً موكلاً بأمر الله فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله، وإلا أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله، وهذا الصنف هم الذين أخبر عنهم التنزيل (١١) في قوله سبحانه ﴿وَقالوا مَال هَذَا الرَّسُولِ يَأكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي في الأسواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إليهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً* أو يُلقَى إليهِ كَنزٌ أو تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يأكُلُ مِنها، وقَالَ الظَّالِمُونَ إن تَتَّبِعُونَ إلاّ رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾(١٢).

كما تطورت وثنية العربي إلى تقديسه للمظاهر الطبيعية حيث بلغ شعوره نحوها أقصى حد للإجلال والتعظيم. وكان تقديس العربي لهذه المظاهر الطبيعية المحيطة به كالكواكب وذلك ضمن تأثيره بوثنية بلاد الرافدين التي كان مصدرها الصابئة المشركون كما أخذ عرب الشمال عن أهل اليمن عبادة هذه الكواكب المكونة من «ثالوث كوكبي» هو القمر والشمس، والزهرة(١٣) وهذه هي الأجرام السماوية التي لفتت نظر الناس بتأثيرها عليهم في كل ما يحيط به، فكان يرى فيها القوة السحرية في تفكيره مما جعله يؤلهها ويعبدها، وهي عبادة تبدو متطورة على ما كان عليه الإنسان البدائي في تقديسه للأحجار والنباتات.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك ضمن جوانب الحياة الدينية التي عرفتها العرب في العصور السابقة للإسلام وإلى كيفية اهتداء إبراهيم الخليل إلى عبادة إله واحد كما جاء في قوله عز وجل(١٤) ﴿وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ لأبِيهِ ءازَرَ أتَتَّخِذُ أصْنَاماً ءالِهَةً إنِّي أرَاكَ وَقَومَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ* وكَذَلِكَ نُرِى إبراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ والأرضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيلُ رَءا كَوكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ* فَلَمَّا رَءا القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ القَومِ الضَّالِّينَ* فَلَمَّا رَءا الشَّمسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أكْبَرُ فَلَمَّا أفَلَتْ قَالَ يَا قَومِ إنِّي بَرِيءٌ

مِّمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ﴾.

وبذلك يكون إبراهيم الخليل قد تعبد لثلاثة كواكب قبل أن يهتدي إلى دين التوحيد.

وإضافة إلى هذه الكواكب، هناك كواكب أخرى قدسها العرب كالدبران والعيوق والثريا والشعرى والمرزم وعطارد وسهيل؛ فكانت كنانة تعبد القمر والدبران بينما كانت جرهم تسجد للمشتري، وطيء عبدت الثريا والمرزم وسهيل، وبعض قبائل ربيعة عبدت المرزم، وطائفة من تميم عبدت الدبران، وبعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدت الشعرى العبور وهي الشعرى اليمانية(١٥)، وفيها أشار القرآن الكريم : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾(١٦).

أما الديانات السماوية – فبعد أن كان العرب على أديان ومذاهب شتى، فإن أهل الأخبار يذكرون أن العرب كانوا على دين واحد هو دين إبراهيم الخليل، دين التوحيد الذي تجسد في الإسلام فيما بعد، وبعد دين الحنفية هذا تعلق بعض العرب بالديانة اليهودية والديانة النصرانية.

أما الديانة اليهودية فقد وجدت طريقها في كثير من مناطق شبه الجزيرة العربية، وكان توسعها أكثر في العربية الجنوبية في ظل المملكة الحميرية الثانية بعد عام (٣٠٠م) «ومن المعروف أن جماعات يهودية كثيرة هاجرت إلى بلاد العرب الشمالية والحجاز بعد أن دمّر الرومان أور شليم سنة(٧٠م) واستقرّت هذه الجماعات في يثرب وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء، وعلى الرغم من اختلاط اليهود بالعرب وتعايشهم معهم، واحتكارهم لبعض الحرف والصناعات.. وعلى الرغم أيضاً من تعربهم بحكم مجاورتهم للعرب واحتكاكهم بهم، فإنهم لم ينجحوا في نشر اليهودية بين العرب؛ ويرجع ذلك إلى أسباب منها عدم اهتمامهم بالتبشير بدينهم اعتقاداً منهم بأنهم شعب الله المختار، وأن سواهم من الشعوب غير جدير بذلك(١٧).. لذلك قلت تأثيرات الديانة اليهودية في الجزيرة العربية إلا في فترة متأخرة قبيل الإسلام حيث ظهرت هذه الديانة بشكل واضح.

أما الديانة المسيحية فإننا نجهل تاريخ تغلغلها في شبه الجزيرة العربية، وكل ما ترويه الأخبار هو أن أول بعثة دينية مسيحية إلى العربية الجنوبية قد أرسلها الإمبراطور البيزنطي «قسطنطين» سنة (٣٥٦م) تحت قيادة «ثيو فيلوس اندوس» لأسباب سياسية ترتبط بمحاولة تسلل النفوذ البيزنطي إلى اليمن في فترة اشتد فيها الصراع البيزنطي الفارسي حول السيطرة على منطقة الشرق الأوسط وتخومه(١٨).

ومن بين أسباب انتشار المسيحية في شبه الجزيرة العربية – أيضاً – وجود بلاد العرب بين ثلاثة مراكز مسيحية مجاورة هي : سوريا في الشمال الغربي، والعراق في الشمال الشرقي، والحبشة في الغرب عن طريق البحر الأحمر، وفي البحر عن طريق اليمن(١٩).

وقد التجأ الإنسان القديم إلى هذه المعتقدات الدينية وغيرها (سواء منها الوضعية أم السماوية) وذلك حينما واجهته كثير من الإشكالات التي كانت تهدد كيانه وأمنه بصورة خاصة، عند ذلك لم يجد بداً من اللجوء إلى التفكير الديني حتى يكفل له الأمن

- بأنواعه المختلفة - الاقتصادي والسياسي، والنفسي، والعقائدي، وبالأمن الوقائي، إلى غير ذلك من وسائل الاطمئنان المتوارثة والمكتسبة، مع تفاوت بسيط في ممارسات هذه الديانات إلى أن تطورت بصورة واضحة في الديانات السماوية «الحنفية، واليهودية، والنصرانية».

ومما لا شك فيه أن انتقال هذه الديانات إلى قلبِ الجزيرة العربية قد جلبت معها لونا من الاتصال الثقافي بين العرب بغيرهم من الوثنيين وأتباع الديانات السماوية وذلك لما يوجد من رابطة عضوية بين «الدين» و«الفكر» أو «بالأحرى أن الفلسفة نشأت في صورة نقد فكري للمعتقدات الدينية والأخلاقية»(٢٠).

لقد احتل الدين على مر العصور جزءاً بارزاً من البنية الذهنية على الصعيد الفكري، فإذا كانت الديانات القديمة، والديانة الإسلامية على وجه الخصوص تخاطب العقول في دعوتها إلى التأمل والتحرر من كل الشوائب، كما تخاطب وجدان الإنسانية؛ فإن كثيراً من الاتجاهات الفلسفية تخطو في نفس المنهج فيما تحمله من قيم ومثل عليا؛ ونتيجة لذلك فإن الدين في أي زمان كان لا يخلو من بذرة التفكير «الميتافيزيقي» أو هو على حد تعبير «اشبنجلر» في كتاب «انحلال الغرب»؛ (إنما الدين ميتافيزيقا معاشة) أو على ما جاء في رأي «دور كايم» من أن «الفلسفة تنشأ دائماً في أحضان الدين أو على أثر الإيمان بالدين»(٢١).

وقد يبدو من خلال الدراسات الحديثة لطبيعة الفكر العربي في تاريخه القديم أنها وصلت إلى أحكام مطلقة، نهائية، نتيجتها - كما مرّ بنا - «وصف العرب بالمادية المفرطة، وبضعف الخيال، وجمود العواطف»(٢٢)، وكأن هذه الأحكام غير قابلة للنقاش، أو أنها أحكام لحقائق نهائية في نظر أصحابها.

وإذا كنا نعترض سبل المنهج الذي اتخذه أصحابها للوصول إلى هذه الحقائق، فذلك لا يعني أننا نقدس العرب، «ولا نعبأ بمثل هذا النمط من القول الذي يمجدهم ويصفهم بكل كمال، وينزههم عن كل نقص، لأن هذا النمط من القول ليس نمط البحث العلمي؛ إنما نعتقد أن العرب شعب ككل الشعوب له ميزاته وفيه عيوبه، وهو خاضع لكل نقد علمي في عقليته ونفسيته وآدابه وتاريخه ككل أمة أخرى»(٢٣).

ويرى مصطفى عبد الرزاق(٢٤) «أنه لا يمكن أن نقطع بأن ما يروى من هذه الأخبار صحيح ثابت، ولكنا نرى أنه في جملته يكفي في الدلالة على وجه التفكير الذي كان يسمى حكمة عند العرب وحكماً، ويسمى أهله حكماء وحكاما. وهو تفكير عملي متصل بالفصل فيما يقع بينهم من نزاع، والفتوى فيما يحدث لهم من أقضية. والطب لما يعرض لهم من مرض».

كما أنه كان بإمكان «الحكمة» أن ترقى إلى مستوى الفلسفة لولا ظهور الحدث الجلل المتمثل في ظهور الإسلام الذي غير مجرى تفكير عقلية العربي، ورفع من شأن مستوى معرفة العقل الإنساني، عموماً. وليس معنى هذا أن القرآن كان عائقاً في نشوء الفلسفة العربية - عبر هذا التاريخ - ولكنه أعطى دفعاً جديداً في تحريره للعقلية العربية والعقلية الإنسانية عموماً، عن طريق المعرفة

المستبصرة.

أضف إلى ذلك أن المعرفة الحقة في تكوين البنية الذهنية تنبع أساساً من المعرفة السوقية؛ ثم تتبلور في ذهنية نخبة الأذكياء فتتخذ عنوان المعرفة الفلسفية، تماماً كما حدث للفلسفة اليونانية أو لأي فلسفة أخرى نبعت في أصلها من التصورات الشعبية إلى أن تطورت في شكل حكم ثم صعدت على مستوى التفكير المتطور إلى ميادين العقل الخالص، فسميت بذلك فلسفة. وإذا نظرنا إلى ما تطورت إليه صفتا «الحكمة» و«الحكماء» بعد الإسلام ثم بعد نشوء الفلسفة حيث صارت «الحكمة» تعني الفلسفة ذاتها وصارت صفة «الحكيم» تعني الفيلسوف استطعنا أن نجد مجالاً لاستنتاج أن هاتين الصفتين كانتا تعنيان في مفهومهما الجاهلي نوعاً أولياً من النظر العقلي الذي يحاول محاولة عفوية وبسيطة استخلاص أحكام عامة تصلح للانطباق.

ب - الجمالية المدركة

الفن خبرة إنسانية، ومبدأ من مبادىء قيم الحياة في انسجامها الداخلي وتوافقها الجمالي وذلك من خلال إنعاش الإدراك الحسي بتذوقنا للمؤثرات الجمالية في هذه الحياة التي تتظاهر للفنان على أنها أسمى من تصورها الطبيعي الظاهري من حيث كونها تلتقي بعاطفته النبيلة وإرادته الطموحة، وعقله المميز لقيمة الشعور بالجمال وفي تجسيد ماهية الجميل وتمييزه عن غير الجميل.

لقد اتخذت ظاهرة الجمال في الفكر العربي مغزى تجريبياً في استنتاجهم للأذواق الحسية وهي النظرة السائدة في تقويم المنظور العربي القديم لمعنى الجمال، وقدمها يتدرج بهم إلى عصر ما قبل الإسلام حيث كانوا يربطون النظرة الحسية بوصف الطبيعة والمرأة، غير أن وصف المرأة كان له الحظ الأوفر من الإعجاب، ولا غرابة في أن يكون تعبيرهم نابعاً من إحساسهم في تحقيق التكامل بين معطى النفس وملامح الطبيعة، وفقاً لما تفرضه الصور الحسية من نقل المشاعر الداخلية، وما شابه ذلك من المظاهر الخارجية وفي صورها الشكلية الظاهرة، ولعلّ إدراكهم للعالم الخارجي الملموس في نتاجهم الفني، يجعلنا نتأكد من تأثير الصورة الخارجية على عالم الفنان الداخلي، على حد ما نجده عند الكثير من الشعراء في مثل قول النابغة :

قامت تراءى بين سجفي كلّة
كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

وقوله :

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها
لم تود أهلاً ولم تفحش على جار

وعند طرفة بن العبد :

تبدت لنا كالشمس تحت غمامة
بدا حاجب منها وضنّت بحاجب

وعند طفيل الغنوي كقوله :

غروب كأن الشمس تحت قناعها
إذا ابتسمت أو سافراً لم تبسَم

كما أنها رمز لبوارق الأمل لما تجمعه من صفات الحسن والجمال كما في قول الأعشى :

ما روضة من رياض الحزن معشبة
خضراء جاد عليها مسبل هطل

يضاحك الشمس منه كوكب شرق

مؤزّر بعميم النبت مكتهل

يوماً بأطيب منها نشر رائحة

ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

ذلك أن المظهر الخارجي ووجوده الملموس في العمل الفني بارز حتى في تناولهم لبعض الأغراض، وهذا شائع في لوحاتهم الفنية التي عكست صورتها في ظاهرها تجربتهم الداخلية وتثمين ذلك في أعمالهم الشعرية على نحو ما نجده في صورة جمال السلم - رأس الفضائل - المرتبطة بزهير الذي حقق غايته بها في كثير من المواقف حتى غدت الصورة بمثولها المميز من التجارب الجمالية التي ينبغي الاقتداء بها في أثناء الحث على القيم الفاضلة، والحقيقة أن هذه التجربة الجمالية لاتختلف عن تجربة جمال الكرم عند حاتم، وفضائل الجود على وجه العموم، وأخبار العرب مليئة بالحث على الصفات الحميدة، على اعتبار أنها تحفظ لهم جميل ثنائهم وتصون عرضهم وتستر عيوبهم، وشواهدهم في ذلك لا تحصى، متخذين من الكرم والجود خيرة الأعمال التي تزين قلوبهم بالمودة، وتحبب إلى مشاعرهم التنافس إلى الرغبة في البذل والتضحية بدافع الفضيلة لا غير، على حد قول الشاعر(٢٥)

ألا بكرت ميّ عليّ تلومني

تقول ألا أهلكت من أنت عائله

ذريني فإن البخل لا يخلد الفتى

ولا يهلك المعروف من هو فاعله

وليست الشجاعة أقل اهتماماً من صفة الكرم في حياة العربي، بل يمكن اعتبار موضوع الشجاعة من المواضيع الجريئة التي تحفظ كيانهم، كما جاء في قول دريد بن الصمة :

يغار علينا واترين فيشتفى

بنا إن أصبنا أو نغير على وتر

بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمة

فما ينقضي إلا ونحن على شطر

فهي نظامهم السياسي، لذلك اقترنت عندهم بمضاء العزيمة والتوجيه الأخلاقي الذي تمثله صورة الحكمة حتى لا تنقلب إلى تهور في فعلها أو الإقدام عليها وهو ما تجسده صورة المتنبي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان

هو أول وهي المحل الثاني

فإذا هما اجتمعا لنفس حرة

بلغت من العلياء كل مكان

أما جمال البطولة فتتلمسه في شعر عنترة، بينما يتجسد جمال التضحية عند الخنساء، إلى غير ذلك من المواصفات الجمالية الناتجة من تجربتهم الطبيعية في تذوقهم لمعنى قيمة الشيء والعمل به حتى يصبح كياناً فعالاً بانسجامهم معه بوصفه أحد الصفات المميزة لقيمة الجمال ينبغي العمل بها.

وقد نجد لمعنى التناسق هذا من مبررات. حتى في صورهم في جزئياتها يتتبعونها في دقة متناهية، ولعل إكثارهم من الشعر على اعتبار أنه «ديوانهم» دليل على أن لهم رؤية جمالية، ذلك لأن الشعر منبعه العاطفة المعتمدة أساساً على إثارة التذوق للملموس، في حين قلّ نصيبهم من النثر لما فيه من دقة في التعبير واستخدام العقل، فأصبح هناك تناسق بين فن القول والوجود المدرك الذي ملك عليهم كيانهم حتى بلغ تأثير وقائع

الحياة أشده في نتاجهم شكلاً ومضموناً، وكأن البحث عن الرغبة في الارتواء من هذه الحياة ولّد لديهم الشعور بالسعادة مرّة، في حين كان إحساسهم بالزمان المطلق في المرة الثانية يشكل المتغير المحدود لمصدر قلقهم. ولعل سر العربي - في العصر الجاهلي - يكمن في سعادته وشقائه معاً من حيث كونه طلب الرغبة بكل معاني ضرورة الحياة، فلم يحفل بها إلا مؤقتا، وبما أن الجمال أحد عناصر الحياة، إن لم نقل هو الحياة نفسها، فإن اهتمامه به فاق تصوره له دون أن يدرك صفة لمعنى الجمال بحسب ما تتطلبه النظرية القائمة على الدعائم التي من شأنها أن ترسم سبل توجيه الظاهرة إلى مصطلح فكري متكامل النظرة، إلاّ أن هذا لا يمنع من الاحتمال - وهو افتراض وارد - على أن العرب - قديماً - عرفوا مظاهر الجمال، وهو ما نلمحه في صورهم التعبيرية التي وقعت بصماتها في نفوس البشرية لاحقاً باختراقها الحدود الإقليمية ودخولها في فضاءات العوالم الإنسانية من حيث كونها نابعة من مواطن إحساسات تجربتهم الحارة.

إن الإندماج النفسي مع العالم الخارجي مظهر من مظاهر الشعور الجمالي الذي اعتمده الشاعر الجاهلي في إبداعه من خلال إرواء حاجته الملحة والتئامها مع عالمه الداخلي، فعلى هذا يقوم جمال الاحساسات والجمال. والجمال لا يستبعد الفائدة بل يتضمن وجود إرادة تلاؤم بين الوسائل والغايات، وتحاول أن تبلغ هدفاً من الأهداف بأقل جهد ممكن، فعلى هذا يقوم جمال الحركات(٢٦).

وقد نذهب بعيداً في علاقة العربي بالقيم الجمالية إلى الاعتقاد الراسخ أن البنية الذهنية على المستوى الفكري مرتبطة بالأساس مع الصورة الخارجية بما تحمله من اعتقادات خرافية بدائية، التي خاطبت مشاعرهم ودعتهم في بعض المواقف إلى التأمل والتحرر من كل الشوائب، ونتيجة لذلك فإن ديانتهم القديمة قبل مجيء الإسلام كانت تحمل بعض البذور الفكرية التي تطبعها ظاهرة الصورة الجمالية على حد ما جاء به أحد الفلاسفة من أن : الفلسفة تنشأ دائماً في أحضان الدين أو على أثر الإيمان بالدين(٢٧)، لذلك فقد كان الدين عاملاً مهماً في إدخال الأفكار الملائمة لغاية الشعور بالجمال إلى عقول الناس حتى أصبح هناك تداخل بين النظرة الكونية الدينية والنظرة الكونية الفلسفية التي تلتقي في صميم خبرتها العادية بالتذوق للأعمال الفنية والانفعال لبعض المؤثرات الجمالية، ومن ثمة فإن ربط المعتقد بفكرة الجمال من صميم النشاط الروحي للموجود البشري في تذوقه للمحسوسات والقيم الروحية على حد ما نجده عند العربي في اعتقاده بالأساطير الدينية والخرافات السحرية التي كانت في بداية الأمر نوعاً من التفكير العميق عند منشئيها، لأنها مزجت بين النظر العقلي والإيمان الديني، وأكثر من ذلك فإن الأسطورة عمادها التأمل في نظام الكون لأنها تنبع من عقل الإنسان في التساؤل، في وقت ما، عن وجوده، ومن حوله، وما يحيط به من صور الكون وكيفية نشأته إلى غير ذلك من التساؤلات التي شغلت باله وكانت سبباً في خلق البذور الأولى من البناء الذهني أو إحدى مراحل التفكير الفلسفي الأولى، وذلك

في البحث عن مصدر الأشياء على ما هي عليه والتي ربطها في تصوره بقوى غيبية عليه أن يندمج معها وجودياً فتحكمت في توازنه النفسي والذوقي على اعتبار أن الأسطورة بهذا المعنى، هي الوسيلة التي حاول الإنسان القديم من خلالها أن يضفي على تجربته طابعاً فكرياً، وبدون هذه الصورة الأسطورية التي تكوّن مجتمعة عالماً فكرياً متكاملاً، تظل التجربة النفسية مهوشة كما تبدو الظواهر الكونية متناقضة. ويمكننا أن نقول بتعبير آخر أن الأسطورة إخراج لدوافع داخلية في شكل موضوعي، والغرض من ذلك هو حماية الإنسان من دوافع الخوف والقلق(٢٨).

إن خصائص التفكير لكل أمة من الأمم هو انعكاس لواقعها المتطور، بل هي وثيقة الصلة بمجموعة الأفكار التي يتكون منها المناخ الثقافي، لذلك من غير المعقول أن نتصور العرب في سذاجة الشعوب البدائية من حيث المستوى الفكري - على وجه الخصوص - وذلك أمر يتناقض مع ما وصلوا إليه من حضارة، وما عرف عنهم من أديان، ومن آثار أدبية تمثلت بخاصة في الشعر والحكمة.

ومن هذا كله نستطيع ألا نستبعد أن يكون هناك نوع من مستوى التفكير نتيجة تأملهم لمظاهر الكون في جماله واكتمال صوره وما يحيط بهم، بوصفه خبرة فنية بشرية تجريبية خاضعة لتنوع الأذواق والتعجب الذي من شأنه أن يثير التساؤل لمدركات وجوده بهذه الصورة أو تلك، وذلك بدافع تشخيص الأشياء رغبة في ربط الصورة الانفعالية بالرؤية الجمالية لجوهر الحياة.

كما لا نستبعد أن يكون هناك حضور جمالي صرف عند نخبة ممتازة من العرب في ثقافتها التي اكتسبتها على سبيل التجربة لا عن طريق التعلم، أو نظرية مؤسسة، خاصة فيما جاءت به العرب من حكم مضارعة لحكم الفلاسفة(٢٩).

ج - جمالية اللاوعي

لقد كان الشعر الجاهلي حسياً في معظمه لا يخرج عن ما تقدمه البيئة الجاهلية جغرافياً واجتماعياً من عناصر يتعامل معها الشاعر وفق هندسة جاهزة لا يحق له الخروج عنها أو تخطيها، يقدم ما يقدم من أوصاف وألبسة معدة سلفاً، يشارك في تلوينها كيفما شاء، فتبقى الأشياء بعد ذلك كما كانت عند غيره من قبل، لا يقوى على أن يضيف إليها شيئاً. مشكلاً بذلك النموذج في معماره الهندسي، وليس للشاعر اللاحق إلا ما استطاع أن يضيفه من تلوين خفيف للنموذج السابق، الذي يمثل الشكل الأوحد للقصيدة العربية في هذه الحقبة، فالوقوف على الأطلال، والغزل، ووصف الرحلة، والمدح، والهجاء، وغيرها كلها أمور رسخت من قبل، وكأنها وجدت هكذا طفرة، ولا مجال للخروج عن هذا النموذج إلى غيره من تشكيلات الإبداع والخلق.

غير أنه إذا كان الشعر العربي القديم قد وصل إلينا بهذه الصورة - المكتملة المثالية - التي بين أيدينا فلا بد من أوليات تأرجحت بين السهولة والخشونة، والوضوح والغموض، شأن بدايات كل الفنون والأحداث المستجدة..

وشعرنا العربي لا يخلو من صعوبات اعترضت تطوره في مهده الأول حتى وصل

إلى بنية البيت المفردة، ليعطي صورة موضحة وربما مختلفة عن البيت الذي يليه دون تأثير في ذلك.

وقبل التعرض إلى مستوى ما وصلت إليه العقلية العربية في تشكيل القصيدة لابد من إلقاء نظرة مركزة نلم بها إلمامة سريعة عن الظروف التي مرّت بها القصيدة في مهدها الأول ولو بصورة مختصرة – درءا للملل – لأن هذه الأمور فصل فيها الحديث الكثير من الدارسين والباحثين من قدامى ومحدثين وحسبنا في ذلك أن نجمل القول بما جاء به «الدكتور عبد الله الطيب» في هذا الباب من كتابه «المرشد إلى فهم أشعار العرب».

يروي لنا عبد الله الطيب روايات مراحل تطور القصيدة التي كانت تدور على الأقسام والملاءمة بينها عن طريق الموازنة حتى عرفت القافية وعرف الوزن وصار الشعر محكماً رصيناً وأهم هذه المراحل في رأيه :

١ – أن النظم كان يأتي بقسيم بعده قسيم من غير كبير نظر إلى السجع أو الوزن مثل :

– إذا كنت في قوم فاحلب في إينائهم

– إذا أدبر الدهر عن قوم كفى عدوهم

– إذا حان القضاء ضاق الفضاء

ومثل هذا كثير في مجمع «الأمثال للميداني».

٢ – ثم تطور النظم إلى خطى أخرى متجاوزاً هذه المرحلة إلى مرحلة السجع والازدواج في مثل قول الناظم:

أقسم برب الحرتين من حنش لتهبطن أرضكم الحبش

أقسم برب الحرتين من إنسان لينزلن أرضكم السودان

وقد أدى السجع بطبيعته – في رأيه – إلى المجانسة الازدواجية فكان الازدواج :

إن المُنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى

ونالت طريقتا السجع والازدواج رضا كل الناس لسهولة حفظها وما تحمله من وقع في النفوس فاهتموا بها أكثر حتى أصبح الناظم يحكّم «المزاوجة والسجع» في مثل قولهم :

أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك

أنت تئق وأنا مئق فمتى نتفق

لاتفاق «المضحكات والمبكيات» في الوزن وكذا «تئق ومئق» حتى بالنسبة لمخارج الحروف ومثل هذه الصور كثيرة في مجمع الأمثال للميداني.

ولقد كانت طريقتا السجع والازدواج في البدء تعنى بقسمين متوازيين سواء أكان ذلك من حيث التركيبة الخارجية في تساوي الكلمات، أم من حيث التركيبة الداخلية أم من حيث التموجات الصوتية والموسيقية الخاضعة للتقطعات النفسية وذلك في مثل قول الناظم :

إذا قرح الجنان بكت العينان

إذا تلاحت الخصوم تسافهت الحلوم

ثم تجاوز النظم صورة التقطع الثنائية المتمثلة في القسيمين إلى صورة متطورة قليلاً إلى ثلاثة تقطعات أو قسيمات كقولهم :

إنه يحمي الحقيقة وينسل الوديقة ويسوق الوسيقة

بينما تجاوزت المرحلة الرابعة مجرد الموازنة في الأقسام إلى تكميل الوزن نفسه حتى يصير كل قسم مساوياً للآخر من جهة العروض في مثل قولهم :

شهاد أندية

جوّاب أودية

حمّال ألوية

Afāq al -Ṯaqāfa Wa al -Turāṯ
A Quarterly Journal of Cultural Heritage
Jum`a al -Majid Center for Culture and Heritage

آفاق الثقافة و التراث
مجلة فصلية ثقافية تراثية مكتبية
تصدر عن مركز جمعة الماجد للثقافة و التراث

Subscription Order Form — قسيمة اشتراك

☐ سنة One Year ☐ أكثر من سنة More Than One Year ☐ عدد السنوات # of Years

للأعداد : .... Issues #   عدد النسخ : .... # of Copies:

ابتداء من تاريخ : .... Subscription Date :

☐ شيك Check ☐ حوالة مصرفية Bank Draft ☐ حوالة بريدية Postal Draft

التاريخ : .... Date :   التوقيع : .... Signature :

الاشتراك السنوي

داخل الإمارات :
للمؤسسات : ١٠٠ درهماً .
للأفراد : ٦٠درهماً .
للطلاب : ٤٠ درهماً

في الخارج :
للمؤسسات : ٣٥ دولاراً أمريكياً
للأفراد : ٢٠ دولاراً أمريكياً .

تودع الإشتراكات في رقم الحساب البنكي للمركز: ٠٤٩٠٩٠٦٥٢٣ - بنك المشرق - دبي
Payments should be made To Juma al - Majid Center for Culture and Heritage
Acc . # 0490906523 al - Mashriq Bank - DUBAI

Afāq al -Ṯaqāfa
Wa al - Turāṯ
آفاق الثقافة و التراث

إشعار بالتسلم
Acknowledgment of Receipt

Name: .... : الاسم الكامل

Institution: .... : المؤسسة

Address : .... : العنوان

P.O.Box : .... : صندوق البريد

No of Copies ☐ عدد النسخ   Issue No ☐ العدد

Subscription ☐ اشتراك   Exchange ☐ تبادل   Gift ☐ اهداء

Sig- .... التوقيع   Date .... : التاريخ

ترسل إلى :

مجلة آفاق الثقافة والتراث

ص ب : ٥٥١٥٦ – فاكس : ٦٩٦٩٥٠ (٠٤) – دبي – الإمارات العربية المتحدة

Afāq al -Ṯaqāfa Wa al -Turāṯ

P.O.Box : 55156 - Fax : (04) 696950 DUBAI - U.A.E

Stamp
الطابع
البريدي

Name: .... الاسم :

Address : .... العنوان :

Country : .... البـــلد :

Phone : .... هاتف :   P.O .Box : .... ص ب :

Fax : .... فاكس :





وقد كان هذا التقطع الموزون - قبل أن يصبح على هذا الشكل - يخضع للطابع النثري الإخباري العادي عند عامة الناس على هذه الصورة :

يشهد النادي

يجوب الأودية

يحمل اللواء

وكذا بالنسبة إلى قول الناظم :

ربّاء مرقبة

وهّاب سلهبة

منّاع مغلبة

والتي كانت على صورتها الأولى بنفس طريقة المثال السابق :

أنه يربأ المرقبة

ويهب السلهبة

ويمنع المغلبة

وربما كانت هذه المرحلة - مرحلة الأسجاع والمزاوجة الموزونة - هي السبيل الأسلم للتذوق العربي بحسب ما اهتدت إليه الذهنية العربية - عفو الخاطر دون وعي من الناظم فكان من شأن هذا التقبل أن اهتم الناظم بهذا النوع وطوره من مرحلته الثنائية - هذه - إلى مرحلة أخرى أكثر تطوراً جعل يعمل فيها إلى التسميط معتمداً في ذلك على أسجاع ثلاثة متوازية أتبعها سجعة - بينها - تخالفها وتوافقها الأخرى التي تقع في مواقعها بعد ثلاثة أقسام مسجوعة تالية وهكذا.. كما جاء على لسان الناظم «أبي صخر» :

وتلك هيكلة

خود مبتّلة

صفراء رعبلة

من منصب سلم

عذب مقبلها

جزل مخلخلها

كالدعص أسفلها

مخضودة القدم

وكذا بالنسبة لقول آخر :

جوّاب قاصية

جزّار ناصية

حمّال ألوية

للجيش جرّار

حلو حلاوته

فصل مقالته

فاش حمالته

للعظم جبّار

وبذلك تكون القصيدة العربية التي وصلت إلينا على هذا الشكل الذي نعهده بحسب هذه المراحل المتطورة قد اعتمدت في بداية أمرها على التقسيم، أو مراعاة السجع والازدواج والتحكم فيه بدقة فيما بعد، وتجاوز ذلك إلى الموازنة في الأقسام إلى سلوك سبيل النظم الذي نعرفه الآن في شكل القصيدة محكمة البناء.

إن ما يهمنا هنا هو اتفاق الذهنية المبدعة في تعاملها مع البنية الخارجية في تشكيل القصيدة وتقبلها إياها بكل بساطة دون أن نعرف السبب ولا أن نسأل إلى يومنا هذا لماذا جاءت القصيدة العربية بهذه النمطية التركيبية باعتمادها في بداية الأمر على الازدواج والثنائية في التعبير سواء أكان ذلك من لفظين متساويين أو ثلاثة ألفاظ متساوية في التموجات الصوتية والتموجات الإيقاعية ويكون بذلك من حقنا أن نتعرف عن السبب الذي من أجله اعتمدت الذهنية العربية على التركيبة الثنائية التي امتدت على هذا الشكل

إلى أن تطورت فيما بعد فوصلت إلى وحدة البيت وتجزئته إلى شطرين متساويين ثم وحدة الغرض المستقل عن الغرض الذي يليه فكان تعدد الأغراض التي تعمل مشتركة في خلق إطار معين هو ما يسمى بالقصيدة.

إن القصيدة بهذا الشكل تظهر عند كثير من الباحثين مفككة لا تحكمها أية وحدة.. والحقيقة عكس ذلك فللشعر العربي القديم وحدته الخاصة به وتظهر هذه الوحدة من خلال تأثير الواقع في البنية الذهنية للشاعر ونظرته للحياة وانتمائه إليها.. من ذلك أن الإنسان ابن بيئته – كما قيل – لأن البيئة تتحكم فيه سواء أكان ذلك من حيث البناء العضوي أم الفكري.

وإذا نظرنا إلى حياة العربي آنذاك وسط هذه الصحراء فإننا نجده يهتم بنفسه وكل ما له علاقة بحياته الشخصية أولا، أي أنه يعتز بفرديته المستقلة قبل أن يهتم بغيره ممن حوله ثم بعد ذلك يهتم بـ(العقد الاجتماعي) الذي يربطه بقبيلته كمرتبة ثانية.. وبذلك تنصهر ذات الفرد في الذات الجماعية للقبيلة التي تعيش في محيط معين وزمن محدود ينتهي بانتهاء وجود الفرد في هذه الحياة.

وهذا النظام القبلي احتفظ العرب به زمناً طويلاً بخاصة نظام تعدد القبائل الذي استمر (حتى بعد أن وحد الإسلام قبائل العرب وضم شتاتهم في دولة عربية واحدة ظل العرب محتفظين بكثير من خصائص النظام القبلي وظل الطابع القبلي هو الغالب على المجتمع العربي طوال العصر الإسلامي الأموي).

ولعل هذه النظرة التي تحكم الإنسان كفرد تجعله يعتز بفرديته وانتمائه إلى قبيلة ينتسب أفرادها إلى جد واحد ويعتقدون أن رابطة الدم الواحد تجمع بينهم، لعل ذلك كله انعكس على بنية القصيدة وجاء بصورة عفوية من غير إدراك الشاعر نتيجة تأثير البيئة على حياة الفرد، وهو ما يتبين على الشكل التالي :

القطع الثنائي (العفوي) --> وحدة البيت --> تعدد الأغراض --> بناء القصيدة.البحث عن الذات --> الاعتزاز بالفردية --> تعدد القبائل --> الأفق الدائري زمنيا الذي يعيش فيه الفرد وسط هذه الصحراء المحدودة إقليمياً.

ومعنى ذلك – كما مر بنا قبل قليل – أن العربي والأعرابي على وجه الخصوص فخور بالذات الفردية لما في هذه الذات من عنجهية وخشونة؛ لذلك وصف الأعرابي بالتفاخر والتباهي فهو فخور معجب بنفسه مترفع عن غيره حتى لكأنه النمرمع أنه من أفقر الناس، ولهذا صاروا إذا أرادوا وصف شخص متغطرس متجبر مع أنه لا يملك شيئاً يفوق به نفسه على غيره قالوا عنه :

نبطي في حبوته.. أعرابي في نمرته.. أسد في تامورته.

ثم يأتي بعد هذه الفردية المتطرفة الاهتمام بمن تربطه به رابطة النسب والعصبية والتضامن وهي «قبيلته» التي يحتمي بها في الدفاع عن نفسه وحرمه وهي وحدة أساسية في حياة الجماعة التي انحدرت من أصل واحد في كونهم ينتمون إلى جد واحد.

ولقد اندمجت هذه «الذات الفردية» في الذات الجماعية للقبيلة فشكلت مجموعة يجمعهم نظام واحد وتفكير واحد واعتقاد في (غالب الأحيان – لكل قبيلة) واحد وفي كل

مكان واحد محدود إلى حد ما بحدود الإقليم والمصير.

ومثل هذا التفسير إنما يصدق تماماً على القصيدة التي بنيت على البيت من الشعر الذي يشكل وحدة متكاملة مستقلاً عن البيت الذي يليه يحمل فكرة ربما قد لا تكون لها علاقة بالفكرة الموالية التي يحملها البيت الذي يليه.

وقد كانت براعة الشاعر في الاهتمام بالبيت الأول من القصيدة فخصه بالتصريع وهو دليل على إعطاء القيمة للفردية الذاتية التي يمثلها نظام التصريع في البيت المتشكل في الوحدة الإفرادية.. وقد انعكست هذه النظرة حتى في انطباعاتهم وانتقاداتهم للشعر فكانوا يقولون – في غالب الأحيان مثلاً (أشعر بيت قالته العرب) كذا، حينما يسألون عن أي بيت قالته العرب أشعر؟ كما قالوا أيضاً على سبيل المثال : (أغزل بيت) و(أمدح بيت) و(أفخر بيت) و(أرثى بيت) و(أهجى بيت).

ولم يسألوا عن أحسن قصيدة أو عن أحسن غرض شعري قاله شاعر ما. وكان حسان بن ثابت يقول :

وإن أحسن بيت أنت قائله

بيت يقال إذا أنشدته صدقا

ولم يقل «أحسن قصيدة» أو «أحسن شعر» أو «نظم» مما يدل على مدى الاهتمام بالبيت من الشعر الذي يعكس تأكيد الشخصية وصورة الفردية الذاتية للإنسان العربي فإذا تشكل البيت مع الذي يليه أعطى صورة مصغرة لغرض ما عاكساً بذلك صورة وحدة القبيلة في تماسكها مع أبنائها. وهكذا مع بقية الأغراض الأخرى التي تعكس بدورها صورة مجموعة من القبائل. فإذا اجتمعت هذه الأغراض بعضها مع بعض فإنها تشكل بذلك قصيدة تجمعها وحدة الوزن والقافية كما يتجمع التواجد العربي في بيئة محدودة بحدود الإقليمية وبوجوده المتزامن في رحلة محدودة لا علاقة لها بـ«الماورائية» مما أدى به إلى الاندفاع إلى الحيرة والتردد والتساؤل عن غاية وجوده وذلك نتيجة فراغة الديني.

وهكذا بنيت القصيدة وفق تشكيلة أنماط الحياة التي كان يعيشها الإنسان في هذا العصر أو في عصر سابق له على وجه الخصوص ثم استمرت القصيدة في العصور التالية كنمط من التقاليد الأدبية القديمة.

ولذلك جاءت قصيدة الصعاليك مخالفة لهذا النمط التقليدي في البنية التركيبية لها أي أنها لم تقف عند تعدد الأغراض بل تناولت غرضاً واحداً «بحيث نستطيع أن نمضي مع مجموعة شعر الصعاليك فلا نكاد نخطئ الوحدة الموضوعية في كل مقطوعاتها وأكثر قصائدها.. سواء ما كان منها في وصف المغامرات أو الحديث عن سرعة العدو أو الفرار أو تقرير فكرة اجتماعية أو اقتصادية أو غير ذلك من موضوعات شعر الصعاليك. ولا نكاد نجد صعوبة في وضع العناوين المختلفة لها الدالة على موضوعاتها».

وقد يظهر للبعض أن الشعراء الصعاليك تناولوا في شعرهم طائفة متعددة من الأغراض لكنها في الحقيقة على عكس ذلك. أي أنهم لم يلتزموا بنية القصيدة أو تعدد الأغراض بل كان شعرهم عادة يدور حول موضوع واحد وحتى في بعض القصائد الطويلة التي وردت عند بعضهم كـ: «لامية

عبدة بن الطبيب» و«لامية ذي الكلب الهذلي». و«رائية عروة بن الورد» فإن ذلك في حقيقة الأمر يرجع إلى موضوع واحد رغم ما يبدو في بعض القصائد من معان مختلفة لكنها لا تعدو أن تمثل الوحدة الموضوعية في بنائها.

وحتى إن وجدت هناك بعض القصائد كـ: «تائية الشنفرى» و«قافية صخر الغي» و«داليته» فإن هذه القصائد في الحقيقة لا تخضع للوحدة الموضوعية وإنما تتعدد موضوعاتها. لكن ذلك لا يخرج عن حقيقة ما نقصد إليه في كونها لا تتجاوز الموضوعين، وأكثر من ذلك فإن هذا يعد شاذاً، والشاذ لا يقاس عليه بل وربما تكون هذه القصائد قد قالها هذا الشاعر الصعلوك أو ذاك قبل أن تنفره قبيلته ويتشرد.

ومن ثمة يمكن القول: إن الشعراء الصعاليك لم يتوافر في قصائدهم إلا وحدتا البيت والقصيدة على خلاف الشعراء الآخرين الذين امتازوا عنهم بتعدد الأغراض في قصائدهم أو على الأقل في كثير منها وهو ما يمكن اعتباره – عند الشعراء الصعاليك – تعبيراً عن حياتهم المشردة التي لم تنتم إلى قبيلة معينة فكانت قصائدهم انعكاساً لحياتهم المتمثلة على الشكل التالي:

وحدة القصيدة --> بناء القصيدة «وحدة الموضوع» -->

الاعتزاز بالفردية --> الأفق الدائري المحدود زمنياً الذي يعيش فيه الفرد وسط الصحراء المحدودة إقليمياً.

ولذلك يمكن القول إن البنية التركيبية للقصيدة العربية القديمة جاءت تعبيراً عن واقع الإنسان العربي القديم – عموماً – الذي تجمعه علاقة النسب ضمن قبيلة معينة خضعت لنظام اجتماعي معين وفي زمن محدود، فجاء ذلك بصورة انعكاسية في القصيدة، ولو كان ذلك دون إدراك الشاعر.

بنية البيت

أما بخصوص بنية البيت على نظام شطرين من حيث كونه يشكل ثنائية في النمط التركيبي له. فلعل السبب في ذلك هو أن هذه الثنائية قد جاءت استجابة لطبيعة العصر، بل لطبيعة نظرة الإنسان القديم للكون المتشكل من ازدواجية لكل المخلوقات التي تتكون من عنصرين اثنين، فقد – وجد هذا الإنسان – حين ظهر للوجود أمام مفارقات الحياة الطبيعية في كل شيء يحيط به حتى أنه أصبح ينظر للأشياء نظرة ثنائية بدءاً من تكوينه العضوي الذي يمثل الانسجام التام بين شطرين (أ، ب) فهناك تساو بين الجزءين وتواز وتقابل بين جزئيات الوحدة(أ) والوحدة (ب) والوحدتان معاً بأجزائهما المختلفة تجمعها وحدة عامة شاملة تنسجم فيها علاقة الأجزاء بعضها مع بعض وعلاقة كل جزء بالكل. فإدراكنا لأنفسنا – واعين أو غير واعين – يجعلنا نتقبل كل ما تتمثل في تكوينه القوانين التي تتمثل في بنيتنا، ويبقى الشعور بالجمال في توافق الإدراك المباشر لعلاقة الأجزاء كل جزء بالآخر وعلاقة الجميع بالكل مثيراً نوعاً من المتعة المباشرة والمطلقة وهكذا مع بقية العناصر الأخرى التي كان يراها في حياته والتي تتحكم فيها قوانين الثنائية المطلقة سواء في عبادته كالشمس والقمر – مثلاً – أو في نظرته لصورة الواقع من نور وظلام أو ذكر وأنثى أو

لنظرته من خلال الطبيعة - مثلاً - كالحر والبرد.

وهكذا يمكن أن تكون هذه النظرة الجمالية في الانسجام بين شيئين متوازيين تجمعهما وحدة شاملة من خلال تأمل الإنسان في ما يحيط به من ظواهر طبيعية وكونية. لما رأى فيها من ازدواجية، في خلقها، حيث انعكست على تفكيره فتمثل في إبداعه الفني، وسواء أكان ذلك في نمط القصيدة التي يتحكم فيها نظام الشطرين، أم في النثر (من خطبة، ومثل، وحكمة) الذي احتوى هو الآخر على نظام الازدواجية في التركيب تمثل في السجع خاصة.

وفق هذا التطور - حتى ولو كان من غير وعي المبدع - قسّم البيت إلى شطرين متساويين من حيث التناسب والتناسق بحسب ما أملته الطبيعة التي أثرت في بنية المنظور البصري وتشاكله مع ما يحيط به، انطلاقاً من هذا التصور فإن مخيال العربي لم يتعدّ الارتباط التصوري بجغرافيته، فكما ينصف العمود الخباء في وسط البيت كذلك كان يتم تقسيم البيت الذي حصنت نهايته القافية متجانسة الروي حتى يستحسن بذلك وقع الكلام فيتماثل ظاهره مع باطنه، فيتجانس التناغم الداخلي للبيت مع تناغمه الخارجي من حيث التناسق والانسجام والتساوق في الإبداع، وبذلك يصل التقابل الدلالي فيما بين البيت من النظم والبيت من الوبر إلى ارتباط العروض والضرب من نهاية كل شطر في البيت من الشعر بوصفهما يعكسان تواجد القائمتين الموضوعتين بالتناسب في وسط الخباء، فكانت نسبة بعدهما في السمع تماثل نسبة بعدهما المادي في النظر، كل ذلك في نسق محكم وانسجام ازدواجي تستجيب له النفس طواعية دون عناء أو تكلف.

وقد كان هذا النوع من الازدواجية في التعبير كثيراً في تاريخ أدبنا العربي القديم - شعره ونثره - مما جعل الجاحظ يخصه بباب من كتابه البيان والتبيين سماه «باب من مزدوج الكلام» وهو نوع من السجع الذي اعتبره من أهم خصائص لغة العرب في قوله: نحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز من المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج فمعنى العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير(٣١).

وليس أدل على هذه الازدواجية من التشبيه الذي يعد أساس شعرنا القديم بوصفه يمثل طرفين مقارنين سواء أكانت المشابهة بين (هذين) الطرفين تقوم على أساس من الحس أو أساس من العقل. إن العلاقة التي تربط بينها هي علاقة مقارنة أساساً وليست علاقة اتحاد أو تفاعل(٣٢) على اعتبار أن التشبيه يقوم بين شيئين عند وجود قرينة وصفية (أو قرائن) تتضمنهما وتدل عليهما فإذا افترضنا وجود هذه القرينة بينهما فذلك معناه أن نسبة العلاقة في التماثل قائمة على الارتباط بين أكثر من متغير على الأقل، ذلك أن حصول هذه العلاقة يكمن في نوعية الارتباط الذي به يتم التأسيس الذهني أو الاصطلاحي لبنية هذه العلاقة، وهذا ما

يؤكده الشفتريني الأندلسي في كتابه «المعيار في أوزان الشعر» محاولة منه لتقريب الصلة بين المعمار العربي والشعر العربي بقوله(٣٣) : واعلم أن العرب شبهت البيت من الشعر بالبيت من الشعر لأن بيت الشعر يحتوي على ما فيه كاحتواء بيت الشعر على معانيه فسموا آخر جزء من الشطر الأول من البيت عروضاً تشبيهاً بعارضة الخباء المعترضة في وسطه، ولذلك سموا هذا العلم عروضاً لكثرة دوره فيه.

تسمية البيت

أما تسمية البيت من الشعر فإنها مأخوذة من واقع البيئة التي اصطلحت على تسمية الخيمة بالبيت، كما يحدثنا عن ذلك ابن رشيق بقوله: والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية قراره الطبع، وسمكه الرواية. ودعائمه العلم. وبابه الدربة. وساكنه المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون، وصارت الأعاريض والقوافي كالموازين والأمثلة للبنية أو كالأواخي والأوتاد للأخبية فأما ما سوى ذلك من محاسن الشعر فإنما هو زينة مستأنفة ولو لم تكن لاستغنى عنها(٣٤).

فكما أن للبيت من الأبنية، أدوات تتحكم فيه من أعمدة وحبال وأوتاد فكذلك الأمر بالنسبة للبيت من الشعر قوانين تتحكم فيه من وحدة البيت وتقسيمه إلى شطرين، واعتماده إيقاعاً معيناً وقافية واحدة، هذا من حيث الشكل. أما من حيث المضمون فكما أن للبيت من الأبنية معنى بوجود أهله وذويه – كما جاء في قول ابن رشيق – فكذلك للبيت من الشعر معنى بوصفه يشكل صورة شعرية تحمل فكرة معينة، وإلا كان ذلك نشازاً ونفاراً، تنفر منه الأسماع ولا تتذوقه، كما تنفر الناس من البيت المبني الخالي من أهله ولا تستسيغه.

ومن ثمة فإن الشاعر العربي يكون قد هندس بيته الشعري من النظم وفق أبعاد بيته الشعري من الوبر فنسخ بذلك دوال نموذجه العروضي تبعاً لمدلولاتها التي رافقت مخزون مخياله البصري «وبافتراض تعسفي لحد ما، لو كتبنا بيتاً شعرياً ورسمنا تحته منزلاً عربياً لوجدنا ثمة شبهاً يقوم بين الاثنين، فكل منهما قد أفرد جناحيه على جانبي فجوة وسطية تفصل بين جناحي المنزل أو شطري البيت الشعري وتوازن بين إيقاعيتها وتناسب بين الأجزاء، وإن كلا منها يتجنب إيقاعية الامتداد الشاقولي بأكثر من معنى في الشكل أو الرمز لأنها تنافي حس العربي البسيط الذي ينفر من التعالي غير المستساغ كما حذر من ذلك غير واحد من الخلفاء الراشدين وغير واحد من رجالات العرب، ولأنه من ناحية أخرى لا يوحي الامتداد الشاقولي بمشاعر الثبات التي توحي بها الخطوط المتوازية»(٣٥)، وفي ذلك تقول الخنساء:

كل امرئ بأثافي الشر مرجوم

وكل بيت طويل السمك مهدوم

إن جمالية الفاعلية الإبداعية، تتساوق في حركتها مع مخزون المدرك البصري، فالشاعر لا يقول شعراً إلا ما كان مهندساً فيه أي ما أقام نَفَسَه الشعري في نظام محكم. فكان كل شيء مستوحى من العناصر الجمالية المحاطة به. من شأن ذلك كان العربي يدرك عالمه الحسي في مخيلته المرتسمة من جمال الطبيعة ومن الظواهر القسرية بجفائها بوصفها المكون التقني «الحضري» فعوض ذلك بالصورة التعبيرية، وبذلك كان يفصل الصياغة المدنية التي لم يفلح في خلقها عن مشارب التفكير فلجأ إلى استخدام مبدأ إنتاج الشكل التصوري في مجازه التعبيري النابع من فكرة الشيء. فاللفظة النموذج في منظوره تعكس صورة

الشيء المادي، ولعل الضرورة التي أدت إلى هذا التطابق - بين صورة الكلمة ورسم الصورة - نابعة أصلاً من خلق الشكل في صلته بالجوهر لدى مخيال العربي.

وبذلك يكون من شأن تأثير العامل البيئي المميز لحياة العربي بانتمائه إلى قبيلة معينة، ووجوده في إطار معين من الزمن المحدود الذي - ينتهي في نظره - بانتهاء حياته وأما مفارقات الطبيعة والكون من حوله، يكون من شأن ذلك كله الأثر الكلي والمباشر في تشكيل جمال القصيدة بكل ما فيها.

ولمقولة الجمال في القصيدة الجاهلية ترتيب هرمي خاص، نبع أصلاً من اعتبار الانسجام والإيقاع أصل وجود الكيان العربي ومن هنا نبعت فكرة التشكيل الجمالي. وهو ما لاحظه «كثير من دارسي الفن حين حاولوا أن يحددوا دور العقل، ودور الروح فيه، ولعل ما دفعهم إلى ميدان البحث الفني هو ما رأوه في الأعمال الفنية الكبرى من روح التشكيل العالية المحكمة التي توشك أن تكون حساباً دقيقاً، إذ دفعهم ذلك إلى التساؤل عما إذا لم يكن الفنان واعياً كل الوعي، وهو يخلق عمله الفني، وإلا فمن أين استطاع أن يبرز هذا التناسق، ويحكم هذا الانضباط، ويحقق هذا التكامل المندمج»(٣٦).

ومجمل القول إنه إذا كان للإنسان العربي القديم انتماؤه الذي يميزه عن غيره من الأمم الأخرى، فكذلك للقصيدة العربية رؤية جمالية معينة جاءت تعبيراً عن حياته في هذا العصر من غير شعور منه.

لذلك كانت الميثولوجية العربية لا تولي أهمية لمعنى التفكير المجازي الإرادي إلا بما تطبعه النفس على المظاهر الطبيعية من انعكاس، وهو الأمر الذي أدى به إلى أن يكون حريصاً على تشكيله الجمالي الموروث من الواعية الجماعية، فازداد حرصه على المحافظة بهذا النمط التقليدي المتمثل في افتتاح القصائد متعددة الأغراض بوصف ديار الحبيبة، ثم نعت ما خلفته هجرة الأهل، والأحبة، وما سكنها من حيوان، ثم يمضي بعد ذلك إلى وصف رحلته في الصحراء، وقطعه المفاوز، متعرضاً لكل ما يعترض طريقه من أخطار، أو ما تراه عينه من مناظر طبيعية في صور تشبيهية رائعة، ثم التعرض إلى الموضوع، وفيه يريد الشاعر أن يعبر عن الغرض المقصود الذي من أجله قال هذه القصيدة، ضمن منظور التعامل مع الغائية استجابة لغائية الكون بإظهار ما هو كان في الطبيعة، تعبيراً لمشاعره الغائرة، ثم يختتم هذه القصيدة أو تلك بأبيات يبرز فيها تجاربه في الحياة، وقد لا تكون لهذه الخاتمة علاقة بالموضوع الرئيسي، ومن هذه الحالة ينبع أصل التفكير العربي.

وهكذا نلاحظ تأثير زمن الفعل الذي كان يحرك العربي في هذه المرحلة بما ينسجم مع تشكيل نظرته الفنية، إذ قولب ممارسته الحياتية، بأن جعل رسومه الخطية - في شكلها التصوري - ذات أبعاد جمالية تتناسب مع نسقه الجديد الذي أصبح يملأ فضاءه الواسع بفعل التحكم الصارم في دمج الأجزاء بعضها ببعض، وما الحرص على تعليق المعلقات، إلا بمثابة تعبير عن طبيعتها الجمالية فكانت المعلقات - بذلك - نقلة من التشكيل الحي إلى نشاط جمالي يحتفظ به للتعبير عن وعيهم الفني وهذا يقارب إلى حد بعيد أصل التفكير في علاقته بنسق المكان ومحتوياته، وتبعاً لذلك فإن الشاعر العربي قد استوحى مقولته الجمالية في كل ما يملأ حياته من انسجام الطبيعة وإيقاع الحياة ومن هنا كان شديد الارتباط بالمكان الذي كان دافعاً لإثارة مشاعره، يغترف تصوره التشكيلي من نبعه.

والعربي هنا يعيش لذة مبعثها الإحساس بالوجود المتناهي لذلك لا نجد لمعنى الزمن الحضاري مكانة في جوهر وجوده فاستعار من فضاء المكان فضاء القصيد في وقعه التشكيلي.

الهوامش

١ – راجع هذا الرأي الذي أورده أحمد أمين(لأوليري وغيره) في فجر الإسلام ص٣٦.

٢ – انظر : يحيى، لطفي عبد الوهاب. العرب في العصور القديمة، ص٤٢٦.

٣ – المصدر السابق، ص ٤٣٥–٤٣٦.

٤ – أمين، أحمد . فجر الإسلام، ص١٣.

٥ – علي، جواد . المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦:٥٨٨.

٦ – أمين، أحمد . فجر الإسلام، ص١٦.

٧ – الأسد، ناصر الدين . مصادر الشعر الجاهلي وقيمته التاريخية، ص١٦– ١٧.

٨ – الناضوري، رشيد . المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، ٣/١٤٨.

٩ – أخبار مكة، ص٦٦. عن الأساطير والخرافات عند العرب/ محمد عبد المعيد خان، ص١٠٦.

١٠ – سورة النجم : ١٩ – ٢٠.

١١ – الألوسي، بلوغ الأرب ص١٩٧–١٩٨.

١٢ – سورة الفرقان : ٧–٩.

١٣ – انظر تاريخ العرب في عصر الجاهلية/ السيد عبد العزيز سالم ص٤١.

١٤ – سورة الأنعام ٧٤– ٧٩.

١٥ – سالم، السيد عبد العزيز . تاريخ العرب في عصر الجاهلية، ص٤٧٨.

١٦ – سورة النجم : ٤٩.

١٧ – سالم، السيد عبد العزيز . تاريخ العرب في عصر الجاهلية، ص٤٨٥.

١٨ – انظر : العرب في العصور القديمة/ لطفي عبد الوهاب يحيى، ص٣٩١.

١٩ – تاريخ العرب في عصر الجاهلية/ السيد عبد العزيز سالم، ص٤٣٢.

٢٠ – آل ياسين، جعفر . المدخل إلى الفكر الفلسفي عند العرب : دراسة في التراث، ص٤٠.

٢١ – انظر : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية/ محمد عبد الرحمن مرحبا، ص٢٦٢.

٢٢ – أمين، أحمد . فجر الإسلام، ص١٤٤.

٢٣ – المصدر السابق، ص٢٦٣.

٢٤ – تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص١١١.

٢٥ – اليربوعي، سواد . حماسة أبي تمام، ٢:٣٤٢.

٢٦ – جوتو، جان ماري . مسائل فلسفة الفن المعاصرة، ترجمة سامي الدروبي، ص١٢.

٢٧ – انظر من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية/ محمد عبد الرحمن مرحبا، ص٢٦٢.

٢٨ – إبراهيم، نبيلة . الأسطورة .ـ بغداد : منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ص١١.

٢٩ – انظر بحثنا : القيم الجمالية في شعر طرفة بن العبد.

٣٠ – إسماعيل، عز الدين . الأسس الجمالية في النقد العربي، ص١٢٤.

٣١ – البيان والتبيين ٣:٥٠.

٣٢ – عصفور، جابر . الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ص١٨٨.

٣٣ – انظر الحيدري . زمن لكل الأزمنة، ص١٠٨.

٣٤ – العمدة ١:١٢١.

٣٥ – الحيدري . زمن لكل الأزمنة، ص١٠٦.

٣٦ – عبد الصبور، صلاح . حياتي في الشعر : مقدمة المجموعة الكاملة، ٣:٣٣.

عطاء العرب الحضاري في ميدان التاريخ

د. حسان حلاق
أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية
وجامعة بيروت العربية

تعريف التاريخ

إن التأريخ لأمة أو شعب أو لمرحلة تاريخية أو لعلم من الأعلام، إنما يهدف إلى إظهار تطور الحركة التاريخية للأمم والشعوب، وإظهار تطور الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري والعلمي أيضاً. وهو دراسة لمراحل النمو والانحطاط التي مرت بها تلك الشعوب، وبمعنى آخر فإن أهداف التاريخ إنما تكمن في العمل لمعرفة ماضي البشرية بإيجابياتها وسلبياتها مع الحرص على إحياء الإيجابيات، والابتعاد عن السلبيات والاستفادة من التجارب السابقة على قاعدة «الانتفاع من التاريخ» مما يعزز أهمية التاريخ في ميدان بناء المواطن والوطن.

والتاريخ كما يقول ابن خلدون هو «فن عزيز المذهب، جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا..»

وفي مكان آخر يقول في التاريخ «... إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى... وفي باطنه نشر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق...»(١).

واعتبر بعض المؤرخين القدامى بأن التاريخ هو صنف من علوم الخبر بما يتضمن من أخبار متنوعة ومتعددة(٢).

وبالرغم من تعدد نظريات ومذاهب الفكر التاريخي، فإنها تتفق جميعها على أن مهمة **المؤرخ هي في الكشف عن ماضي الشعوب، والغور في خفايا تاريخها الشامل، وتتبع تطورها منذ ما قبل التاريخ. وعلى هذا يمكن القول إن من الواجبات الأولى للمؤرخ أن يكشف ويجمع حقائق ووثائق الماضي.** وقد عرفت الإنسانية مؤرخين من مختلف الأمم والبلدان أرخ كل منهم بأسلوب خاص، وبمنهج فكري مختلف عن الآخر، مع التأكيد على أن بعض المؤرخين تأثروا بسواهم فأرخوا تاريخ بلادهم وشعوبهم أو بلاد سواهم على غرار ما عرفوه من أساليب تاريخية.

مدلول التأريخ والتاريخ

إن لفظ التاريخ يدل على معان متفاوتة، فيعتبر البعض أن التأريخ يشتمل على المعلومات الطبية والعلمية والكونية. وهنا يمكن أن يسمى تاريخ العلم، والمؤرخون يطلق عليهم اسم مؤرخي العلوم. وبذلك يتبين بأن بعض المؤرخين القدامى يبدأون تدوين التاريخ بدراسة تاريخ الأرض والكون، بينما يرى البعض الآخر بأن معنى التاريخ هو ما يتعلق بدراسة التفاصيل التاريخية البحتة، واستقصاء الأحداث الماضية دون الإشارة إلى بدايات تكوين البشرية. والواقع فإن اللبس ما يزال موجوداً إلى الآن بين المعنيين بكتابة التاريخ سواء في البلدان العربية أو في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية.

فلفظة (HISTOIRE) الفرنسية و(HISTORY) الإنكليزية تستخدم لمعنى التاريخ والتأريخ، لذلك يميل بعض المؤرخين الفرنسيين إلى استخدام لفظ(HISTOIRE) (H) للدلالة على ماضي وأحداث التاريخ و(h) (histoire) للدلالة على تاريخ العلوم بينما يميل أغلب المؤرخين إلى أن التاريخ هو بحث وسبر أغوار الماضي، والإطلاع على حقائقه وهذا ما تعنيه الكلمة اللاتينية (HISTORIA) (٣).

أما صناعة التاريخ أو طرق ومناهج التأريخ فيعرف باسم (Methodology) وهو الذي أسماه د. أسد رستم **(مصطلح التاريخ)** تأثراً بعلم **(مصطلح الحديث)**. ولابد من الإشارة أيضاً بأنه يوجد تمييز وفرق بين التأريخ وبين التاريخ، فالتاريخ كأحداث وماض وتطورات وواقع وجد قبل التأريخ، بينما كان التأريخ حاجة ملحة استلزمتها التطورات التاريخية، واستلزمتها الحاجة لتسجيل تلك التطورات والأحداث حفظاً لها وخوفاً عليها من الضياع، وللاطلاع على الماضي أو الحاضر. ولابد من الإشارة بأن التأريخ كان يعرف منذ نشأته الأولى في اليونان باسم تسجيل الأخبار (Logographi) ولم تكن كلمة التأريخ أي (HISTORIA) (H) قد استخدمت لأن أصل استخدامها إنما يعود إلى كلمة (Histor) أي المحقق التي تعني «المحقق القضائي» ولم تستخدم كلمة (Historia) إلا في فترة تقدم ورقي الكتابة التاريخية في أيام هيرودوت. أما التأريخ أو علم تدوين التاريخ فيعرف باسم :

(Historio - Graphy (ie)). وهكذا نرى أن الكتابة التاريخية هي في جذورها تحقيق وتثبت من الأحداث والروايات.

إن أصحاب المذاهب والمناهج التاريخية في العصور اليونانية والرومانية والإسلامية وفي العصور الحديثة اتبعوا وسائل وقواعد في كتابة التاريخ وبين هذه الوسائل - التي ما يزال بعضها مستخدماً - على سبيل المثال لا الحصر :

١ - **المشاهدات العينية** : وهي تعبر عن الأحداث المعاصرة للمؤرخ أو سماع الأخبار بالتواتر، وإجراء المقابلات الشخصية لبعض الأشخاص المعاصرين للحدث، وإجراء المراسلات مع المهتمين والدارسين والمتخصصين سواء في الداخل أو في الخارج.

٢ - **جمع المواد التاريخية من المخطوطات والكتب المتوفرة.**

٣ - **تسخير العلوم الأخرى لعلم وفن التاريخ** كأن نستغل الجغرافيا في كتابة

تاريخ المدن والبلدان وكأن يستفاد من علم الأجناس الطبيعي أو الحضاري في التأريخ للبشرية.

٤ - **الاعتماد على الرحلات وكتب الرحلات** ودراسة الآثار والنقوش (الأبيغرافيا) والمستندات الموثوقة.

٥ - **معرفة فقه اللغة وهو علم «الفيلولوجيا» (Philology)** إذ لابد للمؤرخ من معرفة وفهم النصوص التاريخية ولغة العصر الذي كتبت فيه. ويرتبط بهذا العلم علم الكتابات القديمة أو قراءة الخطوط حيث يتعرف المؤرخ إلى الخطوط الكتابية القديمة التي تبدو أحياناً غير مفهومة أو غير مقروءة.

٦ - **الاعتماد على الوثائق (Documents)** أو على الوثائق القنصلية الدبلوماسية (Diplomatic) وهي الوثائق والمراسلات والتقارير الأصلية الرسمية.

٧ - **دراسة المذكرات الشخصية** التي تركها القادة ورجال السياسة في التاريخ القديم والوسيط والحديث وبعضها يعرف باسم «سيرة ذاتية» (Auto - Biography). وبالرغم من أن الميول الذاتية تسيطر عادة على المذكرات الشخصية، غير أنها تعطينا في بعض الأحيان معلومات فريدة وهامة، وفي كل الأحوال لا يمكن الاستغناء عنها في كتابة التاريخ، ذلك لأن بعض الترجمات الذاتية تعتبر مساهمة جادة في التاريخ.

٨ - **دراسة النقود أو ما يسمى النوميات أو النميات (Numismatics) (Numismatiques)** والأختام وبواسطتها يمكن تحديد الحقب التاريخية وتحديد حكم الأباطرة والملوك والسلاطين وذلك اعتماداً على التواريخ والصور والأسماء المسجلة عليها.

٩ - **دراسة وتحقيق سجلات ووثائق المحاكم** الشرعية الإسلامية ووثائق الكنائس والأديرة والأماكن الدينية الأخرى، لأن دراستها تعبر عن التاريخ الاجتماعي والسياسي والديني والحضاري بشكل عام.

١٠ - **وضع الهوامش (Footnotes)** وذكر المصادر المعتمد عليها.

١١ - **التعريف بالأشخاص والأماكن** الواردة في المخطوط وتفسير ما غمض من عبارات وألفاظ.

١٢ - **دراسة التراجم (Biography)** والسير الذاتية (Autobiography) والمذكرات الشخصية (Memoirs).

١٣ - **اعتماد أسلوب المقارنة بين أكثر من مصدر للوصول إلى الحقيقة المتوخاة.**

١٤ - **البحث عن أسباب الأحداث وربطها بالنتائج والابتعاد عن التفصيلات الواهية.**

١٥ - **نقد الأصول نقداً داخلياً وخارجياً** أي من حيث الشكل والمضمون، ومن حيث المعلومات الواردة في النص ومن حيث الوثيقة ذاتها(٤).

نشأة علم التاريخ عند العرب والمسلمين

نشأ علم التاريخ العربي والإسلامي نتيجة لاهتمامات العرب بتدوين الأخبار والأحداث السابقة لعصرهم والمعاصرة لهم، ولم تكن كتابة التاريخ عندهم في الفترات الأولى بالمعنى نفسه الذي ساد وعرف فيما بعد، فقد كان قبل الإسلام يتمثل بتدوين الأخبار السالفة كما كان في بداية العهد الإسلامي

مهتماً بتدوين أحاديث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وأعماله.

لذا فإن كلمة التاريخ التي يمكن اعتبارها منذ القرن التاسع الميلادي تعبيراً فنياً خاصاً مرادفاً من حيث العموم لكلمة (History) أو (Histoire) إنما هي بالنسبة لعلم التاريخ العربي القديم كانت كلمة مختلفة تماماً إذ يبدو أن أصول كلمة تاريخ مستمدة من الكلمة السامية «يرخ» التي تعني القمر أو الشهر وهي في الأكادية «أرخو» وفي العبرية «يرخ» أو ياريخ بمعنى القمر غير أن ذلك لا يعني أن كلمة تاريخ مشتقة من الأكادية أو العبرية أو الأثيوبية أو الآرامية أو السريانية ولكن من الثابت أن المناطق العربية الجنوبية اليمنية استخدمت لفظ «ورخ» و «توريخ» قديماً ومنها جاءت كلمة تاريخ ومؤرخ، وعلى هذا فإن كلمة تاريخ لفظ عربي أصيل وإن استخدمت الشعوب القديمة لفظاً مماثلاً له. وتأريخ مصدر من أرخ بلغة قيس وهذا اللفظ شائع عند العرب أو «ورخ» بلغة تميم. ومنهم من زعم بأن لفظ تأريخ تعريب لكلمة «ماه روز» الفارسية ومعناها حساب الشهور والأيام أو التوقيت حسب القمر(٥). غير أن استخدام كلمة تاريخ وردت في بردية في زمن الخليفة عمر بن الخطاب يرجع تاريخها إلى عام ٢٢هـ مما يشير إلى أن اللفظ كان متداولاً في تلك الفترة. وقد أكد «جب» (H. Gibb) في كتابه (علم التاريخ) من أن تأريخ لفظ عربي بمعنى العهد أو الحساب أو التوقيت، أي تحديد الوقت وتحديد الشهر(٦).

ومن جهة ثانية فقد حملت كلمة تاريخ في الفكر العربي الأول بعض المعاني المنهجية منها :

١ - تاريخ الأعلام والرجال.

٢ - عملية التدوين التأريخي أو التأريخ ووصف التطور وتحليله.

٣ - سير الزمن والأحداث والتطور التاريخي.

٤ - علم التأريخ والمعرفة به.

٥ - تحديد وقت الحادثة باليوم والشهر والسنة.

ولابد من الإشارة إلى أن كلمة تاريخ بدأت في صدر الإسلام تعني التقويم والتوقيت ثم أصبحت تعني تسجيل الأحداث على أساس الزمن وتحمل اسم الأخبار، ثم بدأت كلمة تاريخ تحل تباعاً في الكتابة التدوينية العربية لاسيما في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري. ومن الأهمية بمكان القول إن العرب قبل الإسلام اهتموا بالتأريخ للأحداث الهامة والوقائع المشهورة مثل عام الفيل، وبناء الكعبة، وكانت بعض الأحداث التاريخية تحفظ بواسطة النقوش أو بواسطة الرواية الشفوية ولاشك بأن الأحداث الكبرى الهامة كانت تستثير اهتماماً تلقائياً من قبل العرب.

ومن النقوش القديمة نقش عربي باق وهو نقش امرىء القيس الذي يرجع إلى عام ٣١٨م وقد وضع لتخليد الأعمال التاريخية للأمير المتوفى كما وجد نقش تدمير خيبر عام ٥٧٧م، فضلاً عن ذلك فإن الهمداني يشير في كتابه «الإكليل» الجزء الأول إلى : ما ادخرته ملوك حمير في خزائنها من مكتوب علمها وإلى زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية وأشار إلى أمثلة كثيرة تؤكد على وجود تسجيلات لدى بعض الملوك والقبائل والأسر وإن ثمة عادة مألوفة بذلك استمرت بعد الإسلام. ويشير الدينوري في «الأخبار

الطوال» إلى وجود عملية تسجيل وحفظ الوثائق للأمور العامة. ومن المؤسف أن أكثر هذه المحفوظات والوثائق قد اندثرت. وكشفت البعثات العلمية في شبه الجزيرة العربية عن وجود المئات من النقوش لتاريخ العرب قبل الإسلام. ففي عام ١٨٤٣م، كشف العالم الفرنسي «جوزف هاليفي» ستمائة وستة وثمانين نقشاً في نجران وصنعاء، كما اكتشف العالم النمساوي «إدوار غلاذر» في اليمن بين عامي ١٨٨٢ - ١٨٩٤م ألفي (٢٠٠٠) نص وكانت أهمية اكتشاف هذه النصوص هي في الكشف عن تاريخ المنطقة والأحداث التي تضمنتها والأحداث التي أرخ لها أبناء شبه الجزيرة العربية.

وفي واحة الجوف وغيرها من المواقع الأثرية عثر على العديد من النقوش النبطية والثمودية واللحيانية والسبئية ومن بين النقوش المكتشفة في اليمن نص وجد منقوشاً في وادي بيهان أو (قتبان) من عهد الملك (شهر ياجل يهرجب) ملك بيهان ويكشف النص عن بعض تاريخ الآلهة، وتعدادها في المنطقة كما وجدت نقوش أخرى في وادي (ماسل) وسط شبه الجزيرة وهو نقش سبئي يعود تاريخه إلى ٥١٦م ويفيد عن تاريخ حملة الملك (معد يكرب يعفر) ضد المنذر الثالث ملك الحيرة.

ويرى بعض العلماء والمؤرخين بأن أقدم نقش عربي هو نقش امرىء القيس، غير أن الدراسات الحديثة أثبتت حتى الآن بأن أقدم نقش عربي وجد في مصر يعود إلى عصر البطالسة ٣٠١-٣٠ق.م. ومدون بالخط العربي القديم على تابوت التاجر المعيني «زيد إيل».

والحقيقة فإن أقدم المؤلفات التاريخية العربية كانت بمثابة مؤلفات أحداث قبل أن تكون تراجم ومما يؤكد ذلك كتاب «عوانة بن الحكم الكوفي» المتوفى ١٤٧هـ/٧٥٨م المسمى كتاب التاريخ وهو يتناول أحداث التاريخ الإسلامي في القرن الأول الهجري وهو أول كتاب على ما يبدو يحمل اسم هذا العلم في الإسلام ثم كتب هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م كتاب التاريخ على السنين. وبعد هذه المرحلة استقرت تسمية ولفظ «تاريخ» ثم انتشرت وبدأت العشرات من الكتب في القرن الثالث هجري تحمل اسم تاريخ كذا ... كما ظهرت بعض الكتب التي تخلط ما بين التراجم والأحداث بينما كانت بعض الكتب تظهر في السابق تحت عنوان الطبقات. ويرى السخاوي بأن التقويم الهجري التاريخي أخذ أصلاً من اليمن ومما قاله : بأن أول من أرّخ التاريخ يعلي بن أمية حيث كان في اليمن وذلك أنه كتب إلى عمر كتاباً من اليمن مؤرخاً فاستحسنه عمر فشرع في التأريخ وروى ابن أبي خيتمة عن طريق محمد بن سيرين قال : «قدم رجل من اليمن فقال رأيت باليمن شيئاً يسمونه التاريخ يكتبونه من عام كذا وشهر كذا فقال عمر هذا حسن فأرخوا».

والحقيقة فإن القرآن الكريم كان حافزاً ومشجعاً للمسلمين على الاهتمام في التاريخ فقد ورد في الكثير من الأحداث تسجيلاً لتاريخ المجتمعات السابقة على الإسلام فأوردها أحياناً بشيء من التعميم وأحياناً بشيء من الاختصار أو التفصيل لأن الهدف من إيرادها هو العظة وإعطاء أمثلة على الشعوب والقبائل والأنبياء والرسل الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم فإلى جانب ذكره لقبيلة قريش التي كانت موجودة في القرن

السابع الميلادي، فقد أورد القرآن الكريم قبائل عاد وثمود فأراد المسلمون أن يتوسعوا في فهم هذه القبائل ومكان إقامتها وتاريخها فعادوا إلى المصادر العربية واليونانية واللاتينية فأخذوا منها بعض المعلومات التاريخية وأضافوا إليها معلوماتهم البدائية(٧).

هذا ويعتبر أول تدوين لأخبار العرب السابقين للإسلام كان على عهد معاوية بن أبي سفيان في أواسط القرن الأول الهجري ويذكر ابن النديم في الفهرست بأن أول تدوين في العصر الإسلامي عن أخبار العرب والعجم وقيل إنه ألف كتاباً لمعاوية اسمه كتاب الملوك وأخبار الماضي وهو يتضمن الكثير من أخبار العرب في الجاهلية كما تضمن الأشعار التي وضعت على لسان عاد وثمود وطسم وجديس والتبابعة وأخبار بني إسرائيل ويغلب على هذا الكتاب أخبار الإسرائيليات المأخوذة عن أساطير العهد القديم.

أما «وهب بن منبه» فقد كان يمنياً من أصل فارسي وقيل إنه كان يهودياً وأسلم وينسبون إليه معظم الإسرائيليات الواردة في المصادر العربية وقد ركز وهب اهتمامه على أخبار اليمن في الجاهلية ومن الكتب المنسوبة إليه «**الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم**» وتمتاز كتابات عبيد ووهب بالطابع الأسطوري والخرافي ونسب إلى وهب كتاب «المبتدأ» الذي يتحدث فيه عن بدء الخليقة وقد اعتمد عليه ابن قتيبة في كتاب «المعارف» والطبري في كتاب «تاريخ الرسل والملوك» والمقدسي في كتابه «البدء والتاريخ» والثعلبي في كتابه «عرائس المجالس في قصص الأنبياء» وكان وهب بن منبه يتقن عدداً من اللغات القديمة ومنها السريانية والحميرية واليونانية والعبرية وقد أكد المسعودي في مروج الذهب (الجزء الثالث) على إتقان وهب للغات القديمة وحل الرموز من أيام سليمان بن داود.

أما العوامل التي ساعدت على نمو وتطور التأريخ عند المسلمين فهي عديدة منها :

١ - الأحداث التي وردت في القرآن الكريم، وحض أو حث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على العلم والتعلم والتدوين وينسب إليه قوله : «لا تدع التاريخ فإنه يدل على تحقيق الأخبار وقربها وبعدها» كما أن الرسول نفسه كان مطلعاً ومفسراً لبعض الأحداث التاريخية التي وردت في القرآن الكريم.

ولقد كان التاريخ يملأ تفكير الرسول لدرجة كبيرة، وقد ساعد ذلك في تقدم التاريخ الإسلامي فيما بعد على حد قول «روزنثال» فضلاً عن أن أحاديثه الشريفة شجعت المسلمين على تسجيلها. وأقدم من كتب في السيرة «عروة بن الزبير بن العوام» المتوفى عام ٩٣هـ و«آبان بن عثمان بن عفان» المتوفى ١٠٥هـ ووهب بن منبه المتوفى ١١٠هـ.

٢ - رأى المسلمون أهمية ظهور الإسلام والتحولات السياسية الاجتماعية التي أوجدها في المجتمع العربي ومدى تأثيراته على الدول المجاورة مثال الدولة الفارسية والرومانية والحميرية ولذا رأوا أهمية تدوين الأحداث الهامة التي أحدثها الإسلام ضد الأوضاع القديمة السائدة.

٣ - إن المعارك الكبرى التي خاضها المسلمون والتفصيلات والملابسات التي أحاطت بها، كانت من جملة العوامل التي

شجعت على كتابة ونمو التاريخ العربي والإسلامي، وكانت معارك بدر وأحد ومكة واليرموك والقادسية والجمل وصفين وسواها من المعارك عاملاً هاماً من عوامل اتجاه العرب والمسلمين نحو التدوين.

٤ - حاجة المسلمين إلى معرفة الأنظمة السياسية والاقتصادية والمالية والاجتماعية السابقة على أنظمتهم، فتحولوا إلى المصادر القديمة وإلى التدوين للتمييز بين الأنظمة السابقة والأنظمة الإسلامية، وللإستفادة من تلك الأنظمة التي يمكن أن يتوافق بعضها مع الدين الجديد.

٥ - إن وضع التقويم الهجري في عهد الخليفة عمر بن الخطاب أدخل عاملاً مساعداً على فكرة التأريخ عند المسلمين، وارتبطت منذ ذلك الوقت أحداث التاريخ الإسلامي الأول بالتقويم الهجري كأن يقال إن حدثاً ما وقع في عام كذا من الهجرة، أو قبل الهجرة، فأصبح التقويم الهجري فاصلاً تاريخياً بين مرحلتين على غرار التقويم الميلادي.

٦ - تشجيع الخلفاء والحكام في العهود الأموية والعباسية والفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية وسواها على التدوين التأريخي وكثيراً ما طلب الحكام أنفسهم من المؤرخين أن يؤرخوا تاريخ خليفة أو حاكم أو عصر أو مرحلة من المراحل.

والحقيقة أن هناك عوامل عديدة أدت إلى تطور ونمو علم التاريخ العربي والإسلامي، غير أنه لا يمكن في هذا المجال حصرها جميعها. فإن أهل السيرة والأخبار قد رسموا في أواخر القرن الثاني الهجري الأبواب الأساسية للتاريخ عند المسلمين والعرب وهي لا تعدو أموراً أربعة :

١ - أخبار الماضين.

٢ - أحوال العرب قبل الإسلام.

٣ - السيرة.

٤ - أخبار الدولة الإسلامية.

ولا بد أن نشير في هذا المجال بأن المفكرين المسلمين والعرب اهتموا بعلم هام من علوم الفهرسة والتوثيق مرتبط إلى حد كبير بالدراسات التاريخية، ويكفي أن نعطي مثالاً لهذا النوع ابن أبي أصيبعة الذي فهرس للأطباء وكتبهم تحت عنوان «**عيون الأنباء في طبقات الأطباء**» وابن النديم الذي ألف كتاباً أسماه «**الفهرست**» ضمنه فهارس بأسماء كتب التاريخ وكتب الأخبار والسير وكتب عن الرسول وسيرته وعن أخبار الخلفاء الراشدين والخلفاء عموماً وكتب عن تاريخ وأخبار بني أمية وعن العباسيين وعن فتوح البلدان وكتب عن البلدان والمسالك والأسواق والجغرافية وعن الإدارة والمالية والسياسة وآداب السلطان كما تضمن الفهرست كتب التاريخ عن حياة الوزراء والكتاب والولاة والقضاة والشرطة وكتب عن العرب والعجم والروم.

وللطوسي فهرست آخر يماثل فهرست ابن النديم. والجدير بالذكر أنه عندما نتحدث عن المؤرخين العرب والمسلمين وعن علم التاريخ العربي والإسلامي فإن ذلك لا يعني بأن المؤرخ العربي والإسلامي كان مؤرخاً فحسب بل كان أحياناً مؤرخاً وأديباً وعالماً وجغرافياً وكثيرة هي الكتب الأدبية التي تضمنت معلومات تاريخية والعكس صحيح، وكثيرة هي الكتب التاريخية التي تضمنت معلومات جغرافية والعكس صحيح.

ومن أوائل القرن الثالث إلى أوائل القرن الرابع يلحظ الدارس زيادة جوهرية في المادة التاريخية وفي دقتها وتحري مصادرها. فقد

استقرت دواوين الدولة العباسية لاسيما دواوين الإنشاء والجند والخراج والبريد. واستطاع المشتغلون بالتاريخ الاستفادة من هذه الدواوين في صناعتهم، كما يؤخذ مما اشتملت عليه تواريخ القرن الثالث، من مواثيق وعهود رسمية ومراسلات سياسية وإحصاءات للمواليد والوفيات وفترات ولاية كبار رجال الدولة من خلفاء ووزراء وقادة وعمال وقضاة وولاة ووصف للحروب الداخلية ووقائع الغزوات وسوى ذلك مما يدخل في نطاق التاريخ.

والحقيقة فإن كثرة المادة التاريخية وتوفرها شجعت المؤرخين على الغوص في فترات تاريخية متباعدة ومتعددة، ثم أخذ التاريخ بالنماء كعلم من أجل العلوم عند المسلمين وأعظمها شأناً، وأخذ المؤرخون مكانتهم بين علماء الدولة الإسلامية كرجال لهم مكانتهم بل وخطرهم في الحياة العامة السياسية والأدبية والاجتماعية. وتضاءل مدلول لفظ «الإخباري» الذي قال فيه السمعاني (المتوفى عام ٥٦٢هـ) : «ويقال لمن يروي الحكايات والقصص والنوادر الإخباري». وقد برز من بين مؤرخي القرن الثالث ابن قتيبة (المتوفى عام ٢٧٠هـ) صاحب كتاب «المعارف» واليعقوبي (المتوفى ٢٧٩هـ) صاحب كتاب «فتوح البلدان وأنساب الأشراف» واليعقوبي (المتوفى عام ٢٨٤هـ) صاحب «التاريخ» والدينوري (المتوفى عام ٢٩٠هـ) صاحب «الأخبار الطوال» وابن الطبري (المتوفى ٣١٠هـ) صاحب «تاريخ الأمم والملوك».

وبلغ من أهمية تقدير المسلمين للتأريخ أن ألف بعض مفكريهم كتباً خاصة عن التاريخ وأهدافه ومراميه وفوائده. كما تصدى بعضهم للدفاع عنه، ومن بين هؤلاء السخاوي الذي ألف كتاباً خاصاً تحت عنوان «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ»(٨). ومن الأهمية بمكان القول بأنه نتيجة لأهمية علم التاريخ عند العرب، فقد قام عدد من المستشرقين بدراسة هذا العلم لكشف الجوانب الخفية في مناهج الفكر التاريخي العربي والإسلامي، ومن بين هؤلاء(٩) :

١ - فردناند وستنفيلد (F.Wuestenfeld) الذي أصدر بحثاً هاماً في مؤرخي العرب عام ١٨٨٢ جمع فيه حوالي ٥٩٠ اسماً من أسمائهم وضمنه مصنفاتهم ومؤلفاتهم في القرون العشرة الأولى بعد الهجرة.

٢ - مر جليوث (D. Margolioth)، وقد نشر عدداً من الدراسات والمحاضرات التي كان قد ألقاها في جامعة كلكوتا بالهند عام ١٩٢٩ عن مؤرخي العرب في القرون الستة الأولى للهجرة.

٣ - بروكلمان (C. Brockelmann) وقد أصدر معجماً لجميع مصنفات العرب في العصور الإسلامية، وتضمن مجلدين نشرهما في برلين ١٨٩٨ - ١٩٠٢، ثم أضاف إليهما ثلاثة مجلدات نشرها بين ١٩٣٧ - ١٩٤٢

٤ - فرانز روزنثال (Franz Rosenthal) وأصدر مصنفين هامين الأول تحت عنوان علم التاريخ عند المسلمين (A History of Muslim Historiography) وقد تولى تعريبه الدكتور صالح أحمد العلي من جامعة بغداد عام ١٩٦٣، والثاني بعنوان (The Techniquue and Approach of Muslim) وقد تولى تعريبه أنيس فريحة من الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٦٠ ووضع له عنواناً هو «مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي».

بالإضافة إلى هؤلاء هناك بعض المستشرقين الذين بحثوا أيضاً في مناهج ومصادر الفكر التاريخي العربي ومنهم هاملتون جب (H.Gib) وبارتولد (w. Barthold) وكلود كاهن (Claude Cahen) وجان سوفاجيه (Jean Sauvaget) وليفي بروفنسال (Levi - Provencal) الذي تخصص في تاريخ المغرب والأندلس.

ولابد من الإشارة إلى أن المؤرخين والمفكرين العرب المحدثين اهتموا بدورهم بالكتابة عن مناهج الفكر التاريخي العربي ومصادره فصدرت دراسات هامة لبعض المفكرين منهم:

١ – أحمد أمين الذي أصدر كتابيه ضحى الإسلام وظهر الإسلام في عام ١٩٣٨.

٢ – حسن عثمان : منهج البحث التاريخي، القاهرة ١٩٤٣.

٣ – عبد الحميد العبادي الذي ترجم كتاب هرنشو «علم التاريخ» وأضاف إليه فصلاً من وضعه عام ١٩٣٧.

٤ – عبد العزيز الدوري : نشأة علم التاريخ عند المسلمين بيروت ١٩٦٠.

٥ – د. سيده كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي، القاهرة ١٩٦٠.

٦ – د. عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب، ١٩٨١.

٧ – د. شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون جزءان بيروت.

٨ – عبد الله العروي : العرب والفكر التاريخي.

٩ – د. عفت الشرقاوي : في فلسفة الحضارة الإسلامية.

١٠ – د. أسد رستم : مصطلح التاريخ.

١١ – قسطنطين زريق : نحن والتاريخ.

١٢ – د. محمود زايد : دراسة التاريخ.

١٣ – د. عزيز العظمة : الكتابة التاريخية، والمعرفة التاريخية (مقدمة في أصول صناعة التأريخ العربي). وسوى ذلك من مؤلفات عديدة أخرى.

ونظراً لتعدد وكثرة المؤرخين المسلمين العرب وكثرة نتاجهم التاريخي والأدبي والعلمي فإنه يتعذر علينا أن ندرسهم جميعاً دراسة وافية، لأنهم يقدرون بعشرات المئات في مختلف المراحل. **وكان العلماء العرب أول من ربطوا بين التاريخ والعلوم المساعدة الأخرى، وقد استطاعوا ربط العلوم بشكل علمي بارز، وسنحاول دراسة نموذج من عطاءات العرب في مجال ربط العلوم بعضها ببعض، فقد يظن أن لا علاقة مباشرة وهامة لارتباطها ولارتباط قواعدهما معاً. وقد أكد الدكتور أسد رستم من أن مناهج البحث التاريخي الحديث والمعاصر عند علماء الغرب، ليست غريبة عن علم مصطلح الحديث، بل تمت إليه بصلة قوية. فالتاريخ دراية أولاً ثم رواية، كما أن الحديث دراية ورواية(١٠).**

اعتبر د. أسد رستم منذ عام ١٩٣٩ أن مصطلح الحديث النبوي هو القاعدة الأولى والأساسية التي بنى عليها كتابه «مصطلح التاريخ» وقد اقتبس الاسم أيضاً. ورأى أن يسمي كتابه «مصطلح التاريخ» وليس «منهج التاريخ» اقتداء بما فعله العلماء المسلمين من قبل في إطار «مصطلح الحديث». وأشار إلى أن مخطوط رسالة القاضي عياض في علم المصطلح – التي كتبها ابن أخيه عام ٥٩٥هـ – هي أنفس ما صنف في موضوعها، وقد سما بها القاضي عياض إلى أعلى درجات العلم والتدقيق في

عصره. وأضاف د. رستم قائلاً : «والواقع أنه ليس بإمكان أكابر رجال التاريخ اليوم أن يكتبوا أحسن منها في بعض نواحيها، وذلك على الرغم من مرور سبعة قرون عليها.

فإن ما جاء فيها من مظاهر الدقة في التفكير والاستنتاج تحت عنوان «**تحري الرواية والمجيء باللفظ**» يضاهي ما ورد في الموضوع نفسه في كتب الفرنجة في أوروبة وأمريكة والواقع أن المتودولوجية الغربية التي تظهر اليوم (أي عام ١٩٣٩) لأول مرة بثوب عربي ليست غريبة من علم مصطلح الحديث، بل تمت إليه بصلة قوية. فالتاريخ دراية أولاً ثم رواية، كما أن الحديث دراية ورواية. وبعض القواعد التي وضعها الأئمة منذ قرون عديدة للتوصل إلى الحقيقة في الحديث تتفق في جوهرها وبعض الأنظمة التي أقرها علماء أوروبة فيما بعد في بناء علم المتودولوجية..(١١).

من هذا المنطلق يمكن ربط علم مصطلح الحديث وقواعده بعلم التأريخ وقواعده. إضافة إلى أن المضامين الواردة في الأحاديث النبوية، يمكن أن نستثمرها في كتابة التاريخ تبعاً للموضوعات التي يتناولها الباحث. فالأحاديث الشريفة لا يمكن توظيفها في الموضوعات الشرعية والفقهية فحسب، وإنما في مختلف الموضوعات التاريخية لا سيما الإسلامية منها.

بالإضافة إلى ذلك، فإنه بالإمكان تسخير أساليب وقواعد مصطلح الحديث في دراسة وكتابة التأريخ(١٢). فمصطلح الحديث يتضمن موضوعات عديدة منها : وسائل اكتساب العلم، الأخلاق والآداب في اكتساب العلم، طرق الأخذ والتحمل، طرق الأداء، أسلوب جمع الحديث والمعلومات، المكاتبة، نقد السند، الجرح والتعديل، حجب الثقة العلمية عن بعض الرواة، العوامل التي لا تقبل بها رواية الراوي، التصحيف والتحريف عند المحدثين واللغويين (وبالتالي عند المؤرخين)، نقد المتن وأساليبه، تتبع التزوير، الأحاديث الموضوعة وكيفية كشفها وسواها من موضوعات علمية أساسية ينبغي على الباحث عدم إهمالها لأنها أدوات علمية هامة تساعد المؤرخ على فهم ودراسة مختلف الأساليب العلمية للوصول إلى كتابة تاريخية صادقة وأمينة، زاخرة بالفهم العلمي والموضوعي فعلم مصطلح الحديث يمكن أن نصنفه في أنه الأبجدية الأولى لعلم التأريخ.

ومن الأهمية بمكان القول، أن العلاقة القائمة بين مصطلح الحديث وعلم التأريخ، تظهر عندما اهتم المحدثون بنقد السند بخطوات أهمها : البحث عن مصدر الخبر. من الذي نقله؟ من أين سمع الراوي الخبر، وكيف نقل إليه؟ ولذلك اهتم المحدثون بالراوي إهتماماً كبيراً وظهر عندهم «تاريخ الرواة» و«علم الجرح والتعديل» وكلاهما يهتمان بتاريخ وعلم الرجال الذين هما أساس السند، واهتموا بالتحقيق من نسبة الخبر إلى قائله.

ولتأكيد الربط بين نقد السند – وهو من علوم مصطلح الحديث – وبين التأريخ، فقد روي عن إسماعيل بن عياش قال : «كنت بالعراق فأتاني أهل الحديث، فقالوا ههنا رجل يحدث عن خالد بن معدان. فقال : سنة ثلاث عشرة ومائة. فقلت : أنت تزعم أنك سمعت من خالد بن معدان بعد موته بسبع سنين. وقال إسماعيل : مات خالد سنة ست ومائة.

وروى أيضاً عن الحاكم أبي عبد الله قال :

«لما قدم أبو جعفر محمد بن حاتم الكشي، وحدث عن عبد الله بن حميد سألته عن مولده، فذكر أنه ولد سنة ستين ومائتين. فقلت لأصحابنا: سمع هذا الشيخ من عبد الله ابن حميد بعد موته بثلاث عشرة سنة!(١٣).

من هنا ندرك بأن دراسة ومعرفة الحقيقة من التزوير. ولذلك كان سفيان الثوري يقول: «**لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ**».

وروي عن حفظ بن غياث أنه قال: **إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين، بمعنى احسبوا سنه وسن من كتب عنه**» وكان يزيد ابن أبي حبيب المصري المتوفى ١٢٨هـ أول من غرس دراسة الحديث في مصر، فدقق في روايته ونبه تلاميذه إلى تمحيص السند ومعرفة رواته(١٤). وفي هذا الإطار يمكن أن نربط بين التأريخ وعلم الجرح والتعديل «وهو العلم الذي يبحث في أحوال الرواة من حيث قبول رواياتهم أو ردها، وهو يعتبر من أجل علوم الحديث وأهمها». ولعلم الجرح والتعديل رواد وأئمة منهم: يحيى بن معين (المتوفى عام ٢٢٣هـ) إمام الجرح والتعديل في عصره، والإمام أحمد بن حنبل (المتوفى عام ٢٤١هـ) والإمام البخاري (المتوفى عام ٢٥٦هـ) وابن أبي حاتم الرازي (المتوفى عام ٣٧٧هـ)(١٥).

ومن إسهامات وعطاءات العرب والمسلمين ربطهم بين الصدق والتأريخ فقد اهتموا ورأوا ضرورة توأمة الحديث والصدق، وتوأمة التأريخ والصدق، حتى أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قال: «في اللسان الدية»، ذلك أن من يكذب أو يقتطع من الرواية أو يزور فيها فإن عليه دية. وقد أجمع على ذلك أهل العلم، من أهل المدينة، وأهل الكوفة، وأهل الحديث، وأهل الرأي(١٦) وقال أكثر أهل العلم، يكون على الراوي والمتحدث من الدية بمقدار ما ذهب من كلامه. وعليه دية أكبر إذا ذهب الكلام كله. وأفتى بذلك الأئمة: مجاهد، ومالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأصحاب الرأي(١٧).

والحقيقة فقد حض القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم، كما حض أئمة الإسلام وعلماء الحديث والأصول على وجوب التثبت من الحقيقة وفي التثبت من الأنباء والروايات والأحاديث(١٨). وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى في ضرورة التثبت من الأنباء في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا* أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾(١٩) ويقول عز وجل في سورة الطلاق ﴿... وأشهدوا ذوى عدل منكم ...﴾(٢٠) وللنبي أحاديث عديدة منها من حدث عني بحديث يُرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين. كما أن الإمام الغزالي قيم الخبر إلى ما يجب تصديقه، وإلى ما يجب تكذيبه، وإلى ما يجب التوقف عنه(٢١) ومن هنا ندرك كم أكد الإسلام على ضرورة التحري عن الصدق، وكان ذلك نبراساً وقاعدة أساسية للمؤرخين ولسواهم من العلماء المسلمين، حيث انتقلت هذه القاعدة إلى مختلف العلوم.

وهنا دلالات ومحاولات جادة قام بها بعض العلماء المعاصرين والقدامى لإيجاد فهارس بيبلوغرافية تهتم بجمع التراث والقيم الثقافية التاريخية وغير التاريخية الإسلامية والعربية، وما تزال المحاولات الجادة قائمة إلى اليوم في إصدار فهارس للمخطوطات العربية عن معهد المخطوطات العربية في الكويت، ومعهد المخطوطات العربية في القاهرة. كما تسهم بعض المجلات

والدوريات العربية بتعريف القارئ العربي إلى أهم المخطوطات، منها مجلة «آفاق الثقافة والتراث» الصادرة عن مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي.

وفي هذا الإطار يمكن التعرف إلى بعض ملامح التراث الفكري والعلمي الإسلامي من خلال بعض الفهارس وفي مقدمتها «الدليل البيبلوغرافي للقيم الثقافية العربية»(٢٢).

ومن بين المؤلفات التاريخية والإسهامات الحضارية الإسلامية على سبيل المثال لا الحصر :

١ – ابن النديم : الفهرست.

٢ – البغدادي (إسماعيل باشا) :

٢:١– إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون.

٢:٢– هدية العارفين : أسماء المؤلفين وآثار المصنفين.

٣ – حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.

٤ – البلاذري : فتوح البلدان.

٥ – البيهقي : تاريخ البيهقي.

٦ – الدمشقي (أبو الفضل جعفر) : كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة.

٧ – الدينوري : الأخبار الطوال.

٨ – مسكويه : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق.

٩–الشيباني (محمد) : الاكتساب في الرزق المستطاب.

١٠ – الصابئ (أبو الحسن) : كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء.

١١ – القرشي (يحيى بن آدم) : كتاب الخراج.

١٢– **الماوردي** (علي) : الأحكام السلطانية والولايات الدينية.

١٣ – المسعودي (أبو الحسن) : مروج الذهب ومعادن الجوهر.

١٤ – ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن): الكامل في تاريخ.

١٥ – ابن الجوزي (عبد الرحمن): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.

١٦ – ابن الخطيب (لسان الدين): الإحاطة في أخبار غرناطة.

١٧ – ابن الفرات (ناصر الدين) : تاريخ الدول والملوك.

١٨ – ابن عساكر : تاريخ دمشق.

١٩ – ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق.

٢٠ – ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور.

٢١ – ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

٢٢ – ابن خلدون : المقدمة (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر).

٢٣ – ابن خلكان (أحمد) : كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.

٢٤ – ابن شداد : سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية.

٢٥ – ابن عبد الظاهر :

٢٥:١ – تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور.

٢٥:٢ – سيرة الظاهر بيبرس المعروفة بالروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر.

٢٦ – ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار المغرب.

٢٧ – ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب.

٢٨ – أبو الفداء : كتاب المختصر في أخبار البشر.

٢٩ – أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار

الدولتين النورية والصلاحية.
٣٠ - أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار.
٣١ - الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار.
٣٢ - سبط الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان.
٣٣ - السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.
٣٤ - السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.
٣٥ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك.
٣٦ - الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة.
٣٧ - الأنصاري (عمر الأوسي) : تفريج الكروب في تدبير الحروب.
٣٨ - المسعودي (أبو الحسن علي) : مروج الذهب ومعادن الجوهر.
٣٩ - مسكويه : تجارب الأمم وتعاقب الهمم.
٤٠ - المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.
٤١ - هلال الصابىء : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء.
٤٢ - اليونيني البعلبكي : ذيل مرآة الزمان.

وللمؤلفات الجغرافية دور بارز في صناعة التاريخ لارتباطهما ببعض، ومن بين تلك المؤلفات الجغرافية على سبيل المثال :

١ - ابن الحائك : صفة جزيرة العرب.
٢ - ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية.
٣ - ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان.
٤ - ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.
٥ - ابن حوقل : صورة الأرض.
٦ - ابن خرداذبة : المسالك والممالك (وفاته ٩١٢م).
٧ - الاصطخري : المسالك والممالك (وفاته ٩٥٠م).
٨ - ابن دقمان : الانتصار بواسطة عقد الأمصار.
٩ - ابن جبير : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار.
١٠ - أبو الفداء : تقويم البلدان.
١١ - الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.
١٢ - البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع.
١٣ - الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر.
١٤ - الزمخشري : الجبال والأمكنة والمياه.
١٥ - القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد.
١٦ - المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.
١٧ - ياقوت الحموي : معجم البلدان.

هذا وقد تركت لنا الحروب الصليبية في بلاد الشام على صعيد المؤلفات التاريخية اسهامات علمية يمكن أن نلخصها فيما يلي:

فالحقيقة فإن عصر الحروب الصليبية قد أنجب نخبة من المؤرخين المعاصرين لهذه الحروب سواء من الشرقيين أو الغربيين، ويمثل كل منهم وجهة نظره في تلك الحروب، وقد تركوا لنا تراثاً فكرياً هاماً وسجلاً حافلاً وملامح من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والسياسي والعسكري(٢٣). فمن بين المؤرخين الافرنج «فوشيه دو شارتر» (F. de chartres) صاحب كتاب (Historia Hierosolimitana) ووصف فيه تاريخ مملكة القدس إلى سنة ١١٥٧م. وكذلك فقد ترك مؤرخ فرنسي تاريخاً عن

الحروب الصليبية وهو يعرف باسم النورماندي. ومنهم أيضاً غليوم (وليم) الصوري، وله «تاريخ فيما وراء البحار» (Historia Transmarina) وهو ٣٣ مجلداً، تناول فيه الأحداث إلى سنة ١١٨٣م. وقد أصبح هذا الكتاب بعد ترجمته إلى الفرنسية أهم مرجع لتاريخ الحروب الصليبية. وبالإضافة إلى تاريخ الأفرنج في بلاد الشام، فقد ألف غليوم الصوري أيضاً كتاباً عن تاريخ الأمراء المسلمين منذ ظهور النبي (History of the Muslims Princes to the Appearance of the Prophet) وظهر من المؤرخين الأفرنج المعاصرين غليوم الطرابلسي الذي كتب في تاريخ الحروب الصليبية، كما ترك كتاباً في «حالة العرب».(Tractatus de Statu Sarracenorum). وذلك سنة ١٢٧٣م، ويضم هذا الكتاب أيضاً بعض ما جاء في كتاب غليوم الصوري «الأمراء المسلمون منذ ظهور النبي». كما ظهرت مؤلفات أخرى عالجت الحملات الصليبية ومنها كتاب صدر باللغة اللاتينية وعنوانه : (Tinerarium Regis Ricardi) وقد ألفه رجل انجليزي من لندن اسمه (Richard of the Holy Trinity)، كما ظهرت قصائد حول الحروب الصليبية باللغة الفرنسية القديمة «لأمبروان» وعنوانها: «تاريخ الحرب المقدسة» (L' Estoire de la guerre Sainte)، ووجد تقرير يمثل وجهة النظر الفرنسية، كان قد أعده «ريجور» وعنوانه (Angusi Gesta a Philipe) وهناك مؤلفات ألمانية تصف حملة فريدريك بُربروسة الصليبية منها ما كان تحت عنوان: (Expedition Frideric) والأمر الملاحظ أن بعض الجنود الصليبيين تركوا لنا مذكراتهم ويومياتهم عن الحروب الصليبية كانت لها أهمية كبرى في التأريخ للحملات الصليبية على غرار مذكرات الحملة الصليبية الرابعة.

أما الحملة الصليبية الخامسة، فقد استفيد من رسائل الكاردينال: جيمس فيتري وتاريخ دمياط الذي ألفه «أوليفر بادينورن» الذي كان كاتباً للكاردينال بيلاجيوس. وهناك كتاب «تاريخ القديس لويس» لمؤلفه «يوحنا سير جوانفيل» (Jean Sire de Joinville) (وهو يهتم بحملة لويس القديس).

كما اعتبرت المراسلات والتقارير البابوية القائمة بين البابوات وزعماء الطوائف والملوك والأمراء من المصادر الهامة. أضف إلى ذلك بأن الحروب الصليبية خلفت أيضاً مجموعة من المؤلفات الدستورية المهتمة بالإجراءات القانونية والتجارية والمحاكمات وطبيعة العلاقات التشريعية القائمة بين بلاد الشام وأوروبة. كما خلفت لنا تلك الحروب المراسلات السياسية والاقتصادية والمعاهدات السلمية بين السلاطين المسلمين وملوك وأمراء أوروبا.

ولابد من الإشارة إلى وجود بعض المصادر الأرمنية التي اهتمت بالتأريخ للحروب الصليبية، ومنها كتاب الأمير الأرمني هايتون (هيثوم كوريكوس) الذي ألفه باللغة الفرنسية بعد التجائه إلى فرنسا في أوائل القرن الرابع عشر وهو المعروف باسم (Flor des Estoires de la terre d' orient). كما كتب ابن العبري باللغتين السريانية والعربية وهو يعتبر من أهم المؤرخين الذين كتبوا عن القرن الثالث عشر

(١٢٦٦ - ١٣٨٦). ووجدت مصادر فارسية اهتمت بالحقبة الصليبية والمغولية والسلجوقية ومن مؤرخي تلك الحقب: ابن بيبي الذي أرخ لسلاجقة الروم، وتاريخ رشيد الدين عن المغول.

كما أفرزت الحروب الصليبية عدداً من المؤرخين الشرقيين ومنهم على سبيل المثال: أسامة بن منقذ، ابن جبير، ابن الأثير، ابن شداد، ابن واصل، ابن الفرات، ابن العميد القبطي، ابن عساكر، أبو شامة، القلقشندي، محمد بن علي بن نظيف (صاحب التاريخ المنصوري)، والمقريزي وسواهم. وقد عكف المؤرخون الأوروبيون في العصر الحديث على جمع المواد الوفيرة من هذه الكتب الغربية والشرقية، وذلك في موسوعة علمية تحت عنوان «مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية».

(Recueil des Historiens des croisaes) Paris 1841-1960

وهي تنقسم إلى مجموعتين:

- المجموعة الأولى وتضم ما كتبه المؤرخون الشرقيون في خمسة مجلدات وهي تحت عنوان (Historiens Orientaux).

- المجموعة الثانية وتضم ما كتبه المؤرخون الغربيون في خمسة مجلدات أخرى وهي تحت عنوان (Historiens Occidentaux) (٢٤).

وأخيراً فإن من يطلع على كتاب ابن النديم «الفهرست» يدرك كم كان العطاء الحضاري للعرب في ميدان التاريخ والعلوم الأخرى، فقد جمع لنامجموعات عديدة متجانسة في الكتابة التاريخية منها على سبيل المثال:

- مجموعة كتب التاريخ.
- مجموعة كتب الأخبار والسير.
- مجموعة كتب عن الرسول وسيرته.
- مجموعة كتب عن الخلفاء الراشدين.
- مجموعة كتب عن الخلفاء عموماً.
- مجموعة كتب عن الأمويين.
- مجموعة كتب عن العباسيين.
- كتب عن الفتوح.
- كتب البلدان والمسالك.
- كتب عن المدن (مكة، بغداد، دمشق، مصر، البصرة، أصفهان، المدينة، ...).
- كتب السياسة وآداب السلطان.
- كتب عن الوزراء.
- كتب عن الكتاب.
- كتب عن الولاة، القضاة، الشرطة، المالية، الأنساب، عن العرب والعجم والروم.
- مجموعة كتب الطبقات.
- مجموعة تراجم أعلام.
- الشعراء.
- المغنين والمغنيات.
- سوى ذلك من مؤلفات.

ويمكن أخيراً أن نلخص أو نجمل عطاءات العرب الحضارية في ميدان التاريخ فيما يلي:

أولاً: استيعاب التاريخ لمختلف العلوم وحفظها في إطار الدراسات التاريخية، مما شكل عبر التاريخ مؤلفات جديدة أدت إلى إثراء بقية العلوم، فبات في المكتبة العربية والمكتبة الأجنبية مؤلفات منها: تاريخ العلوم، تاريخ الأدب، تاريخ الموسيقا، تاريخ العمارة، تاريخ الطب، تاريخ الهندسة، تاريخ العلم والتكنولوجيا، تاريخ الفلسفة، تاريخ القوانين.

ثانياً: نشأت علوم ودراسات لم يكن مقدراً لها أن تنشأ وتنمو لولا الكم الهائل من

المخطوطات والمؤلفات التاريخية، من بين تلك العلوم والدراسات والمؤلفات : مناهج الفكر والبحث التاريخي، علم الوثائق أو علم الشهادات الكتابية (Diplomatics)، وعلم المخطوطات وتقنيات الحفاظ عليها وترميمها، علم الرنوك (العلامات والشعارات على الأختام والدروع والأعلام والملابس) (Heraldry)، علم المنمنمات (Numismatics) وهو علم النقود والمسكوكات، البيبلوغرافيا والموسوعات المتخصصة، علم الاجتماع وعلم العمران، وهي من العلوم التي كان للعلامة ابن خلدون الفضل في اكتشافها والكتابة عنها، وتعميق المفهوم حولها، ومن ثم نقلها إلى أوروبا.

ثالثاً : فضل علم التاريخ في معرفة نشأة اللغة واللهجات العربية، وتطور الأدب والشعر العربي ومختلف العلوم عند العرب التي اقتبستها وترجمتها أوروبا في العصور الوسطى من خلال المعابر الحضارية الثلاثة : الأندلس، صقلية، الشام. وقد اعتمدت أوروبا لقرون عديدة على العلوم عند العرب، وما تزال تدين حتى اليوم للحضارة العربية والإسلامية.

رابعاً : ساهم علم التاريخ في نشأة المكتبة العربية والإسلامية والعالمية، كما ساهم في نشأة علم المكتبات والتصنيف والتوثيق والفهرسة. بالإضافة إلى إسهامه في نشأة المعاهد والكليات وأقسام التاريخ في مختلف الجامعات، وكشف الكثير من التزوير والأكاذيب والأضاليل.

خامساً : أدت الدراسات التاريخية إلى اهتمام الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والرؤساء بها، مما دعاهم إلى تشجيع العلماء على الكتابة سواء في العصور القديمة أو الوسيطة أو الحديثة. وتشهد الدول العربية في التاريخ المعاصر عدداً كبيراً من معاهد الدراسات التاريخية الهادفة إلى تنشيط الكتابة التاريخية والحفاظ على الذاكرة لارتباطها بالإنتماء الوطني.

سادساً : لولا الرغبة في كتابة التاريخ لما استنبط الخليفة عمر بن الخطاب التاريخ الهجري الذي جعله مفصلاً تاريخياً في تاريخ العرب والمسلمين، ولما استنبط الأوروبيون المنهج الإسلامي والعربي في كتابة الأحداث التاريخية.

سابعاً : كشف التاريخ وأسهم في معرفة نشوء الأديان السماوية والمعتقدات الوثنية، وتاريخ الإنسانية بشتى وجوهها. ويكفي فخراً أن المؤرخين المسلمين كانوا الرواد الأوائل في موضوع ربط التأريخ بالعلوم الأخرى، مما أسهم في توسيع دائرة المعارف الإنسانية.

ثامناً : الاطلاع من خلال الدراسات التاريخية على تاريخ نشأة المدن، وحياة القادة والرجال والأعلام في مختلف المراحل التاريخية، والأنساب، وتاريخ القبائل والشعوب. كما كان لها الفضل في إنجاب نخبة من المؤرخين أمثال : ابن خلدون، الطبري، البلاذري، ابن عساكر، ابن إياس، المقريزي وغيرهم الكثير.

تاسعاً : اعتماد المعاهد والكليات العسكرية على المصنفات التاريخية لاسيما العسكرية، للاستفادة منها في مجال التجارب والعمليات العسكرية والحروب

والمعارك، والإطلاع على تجارب القادة السابقين في مجال الدراسات العسكرية والإستراتيجية.

عاشراً : أثمرت المخطوطات والمؤلفات التاريخية ما يعرف باسم «القادة القدوة» بحيث باتت الشخصيات التاريخية قدوة للشبان المعاصرين.

حادي عشر : أسهم علم التاريخ في نمو حركة الجهاد والنضال في العالم العربي، اعتماداً على المعارك التي انتصر فيها العرب والمسلمون في مختلف مراحل تاريخهم. كما اعتمد التراث الشعبي المعاصر، بما فيه التراث الأدبي والأغاني القومية على تاريخ الانتصارات العربية لتوظيفها في حركة الجهاد والنضال في التاريخ المعاصر.

ثاني عشر : إن الذاكرة التاريخية تعلم الشعوب والأجيال الانتماء الوطني، فكلما كانت الذاكرة التاريخية ضعيفة، كلما كان الانتماء الوطني ضعيفاً. وكلما كانت الذاكرة التاريخية قوية ومسؤولة، كلما كان الانتماء الوطني والقومي قوياً ومسؤولاً.

ثالث عشر : إن الدراسات والوثائق التاريخية يمكن أن تسهم في إعادة الحقوق إلى أصحابها. فالكثير من القضايا السياسية والعسكرية اعتمد في بحثها في المحافل العربية والدولية على الوثائق التاريخية إضافة إلى أن القضاء والتحقيقات القضائية تعتمد في كثير من وجوهها على الأحداث التاريخية وما يرتبط بها من وثائق ووقائع تاريخية.

رابع عشر : تأسيساً على أهمية التاريخ وكشف الحقائق أو المواقف التاريخية فإن كثيراً من الساسة والقادة العسكريين والمفكرين تركوا لنا مذكراتهم التاريخية التي لا تمثل سيرهم الذاتية فحسب، بل تمثل تاريخ دولهم والمراحل السياسية والعسكرية والاجتماعية التي يمكن الاستفادة منها. وهذه المذكرات تمثل مختلف المراحل التاريخية منها على سبيل المثال : سيرة صلاح الدين الأيوبي لابن شداد، سيرة الظاهر بيبرس، مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، مذكرات بشارة الخوري (حقائق لبنانية)، مذكرات كميل شمعون، ومؤلفات تاريخية أخرى قام بها : شارل حلو، محمد دروزة، أكرم زعيتر، سامي الصلح، غسان تويني، يوسف سالم، سليم الحص، خالد العظم، سليم علي سلام، أنور السادات، وسواهم الكثير.

خامس عشر : أسهمت الكتابة التاريخية في تشجيع الكثيرين في الحفاظ على وثائقهم ومخطوطاتهم، مما سمح للمراكز العربية الوثائقية من الاحتفاظ واختزان الملايين من الوثائق والمخطوطات المتنوعة...

وأخيراً لابد من التأكيد أنه لابد من إسهام التاريخ لدى القادة والزعماء والشعوب بما نسميه «نفعية التاريخ» لأن المعرفة التاريخية يمكن أن تنقذنا من الكثير من الأزمات السياسية والعسكرية والطائفية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية، ومما يؤسف له أن الكثير حتى الآن لا يدرك أهمية الذاكرة التاريخية في بناء الشعوب واستقرار الدول، وأهميتها في تعميق الانتماء الوطني والاستفادة من الماضي لبناء الحاضر والمستقبل.

ولقد أشار المؤرخ «ديودورس» الصقلي

في كتابه «المكتبة التاريخية» في عام ٣٠ ق. م. إلى أهمية التأريخ والمؤرخين بقوله : «من واجب الناس جميعاً أن يدينوا بالشكر العظيم لأولئك المؤرخين الذين وضعوا للبشر تاريخاً عاماً، لأنهم بمجهوداتهم الفردية قدموا خدمة كبرى للجنس البشري برمته.

وكما أن العناية الإلهية ربطت بين الحركات المنتظمة للأفلاك وبين طبائع الناس برباط واحد عام، ووجهت الكل منذ الأزل إلى الطريق الذي يسير فيه، منحت الكل ما قدر له أن يكون، كذلك المؤرخون فإنهم بتسجيلهم الشؤون العامة لسكان هذا العالم، كما لو كانوا أهل مدينة واحدة، قد جعلوا من كتاباتهم سجلاً واحداً لأحداث الماضي، ومرجعاً نهائياً تصفى فيه معرفتنا بهذه الأحداث. ولذا حق لنا القول بأن لمعرفتنا بالتاريخ أعظم نفع في كل شأن من شؤون الحياة، لأنها تزود الشبان بحكمة الشيوخ، وتمد الشيوخ بتجارب يضيفونها إلى تجاربهم، وتهيء المواطنين لمهام القيادة والزعامة، وتلهم الزعماء القيام بأنبل الأعمال لما يخلعه التاريخ عليهم من صفات المجد الخالد.

مصادر الدراسة

١ - ابن خلدون المقدمة ص ٤، ٩.

٢ - للمزيد من التفصيلات حول هذه الآراء انظر العظمة، عزيز. الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية، الفصل الأول، ص ١٢ - ٤٢. هذا ويمكن الاستفادة أيضاً من كتاب مؤنس، حسين. التاريخ والمؤرخون. ـ القاهرة : دار المعارف، ١٩٨٤. في مجال دراسة علم التاريخ وبشكل موسع.

٣ - زريق، قسطنطين. نحن والتاريخ، ص ١٣.

٤ - تتم عملية النقد عادة بواسطة النقد الخارجي والنقد الداخلي. فالنقد الخارجي يتضمن الاهتمام بمعرفة الوثيقة ومؤلفها وتاريخ تدوينها ومكانه. ثم ما هي الموضوعات التي تناولتها الوثيقة، وما علاقتها بنسخة أخرى للوثيقة نفسها؟ إن الإجابات عن هذه التساؤلات والتحقق منها تقودنا إلى وضعية الوثيقة فيما إذا كانت صحيحة أم مزورة. أما النقد الداخلي فيتضمن بحثاً في مضمون نص الوثيقة لمعرفة منهجية كاتبها واتجاهه الاجتماعي والسياسي، والبحث فيما إذا كان الكاتب معاصراً للحدث ومشاركاً فيه أم مراقباً ومدوناً فحسب. ثم دراسة منهجيته من خلال الأساليب والأدوات التي استخدمها في كتابة الوثيقة أو المصدر بشكل عام. ونقد الأصول يهتم أيضاً بدراسة التزييف والانتحال، وفيما إذا كان الأصل بخط المؤلف أم لا. وقد قسم حسن عثمان النقد الباطني إلى قسمين : النقد الباطني الإيجابي ويهدف إلى التحقق من معنى الألفاظ ومن قصد المؤلف بما كتبه، والعناية التامة بقراءة النص التاريخي ومحتوياته، وعدم تسخير النص لآراء واتجاهات المحقق. أما النقد الباطني السلبي، فعلى المحقق أن يعي حقيقة وهي أن المؤرخين

يخطئون ويصيبون كسواهم. ومن الخطأ الاعتقاد بأن كل المعلومات الواردة في جميع الأصول صحيحة. فبعضها غير صحيح. من هنا أهمية النقد الباطني السلبي من حيث هو عملية ضرورية لتصفية الحقائق واستبعاد الزائف منها، ووضع الشك للوصول إلى الحقيقة التاريخية. ويجب التمييز بين تزوير وكذب المؤرخ وبين خطأ ارتكبه أو معلومة خدع بها.

انظر : عثمان، حسن . منهج البحث التاريخي، ص ١١٧ – ١٤٥.

انظر أيضاً : رستم، أسد . مصطلح التاريخ، ص ١٢ –٤١، حلاق، حسان . مناهج الفكر والبحث التاريخي، ص ١٤ – ١٥.

ومن الأهمية بمكان القول في معرض الحديث عن النقد. فالنقد التاريخي سواء للوثائق أو للمخطوطات أو للمقالات أو للدراسات التاريخية يجب أن يكون نقداً تاريخياً بناء، يهدف إلى تصحيح المسار في مجال التأريخ والتدوين، وهذا النقد يفيد عادة صاحب الدراسة لتصحيح أخطائه، ويفيد القراء والمهتمين بالتأريخ.

وهناك نوع آخر من النقد السلبي الهادف إلى التشهير بمؤرخ ما لأهداف خاصة وشخصية، وليس هدف هذا النقد – التشهير سوى المس بالمؤرخ بسبب اتجاهاته السياسية أو الفكرية وبسبب دوره الفكري الذي يقوم به في المجتمع، فتتكون فئة حاقدة عليه ليس لها أي دور في الميدان الفكري، فتبدأ بالكتابة ضده بأسلوب النقد السلبي وأحياناً بأسلوب التشهير المقيت. إن من واجبنا كمؤرخين الابتعاد عن أساليب النقد السلبي، لأنها بعيدة كل البعد عن الأهداف والقواعد العلمية، وبعيدة كل البعد عن قواعد التأريخ. ثم علينا تعميق المفاهيم العلمية والأخلاقية لترسيخ قواعد النقد الإيجابي العلمي.

٥ – انظر : السخاوي . الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ٦.

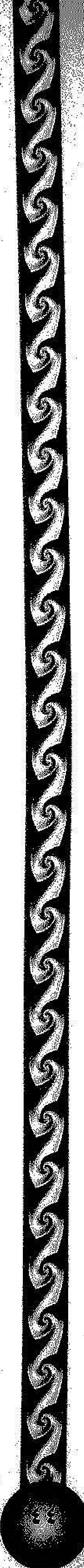
٦ – جب (H. Gibb). علم التاريخ، ص ٢٦ – ٢٧.

٧ – انظر : يحيى، لطفي عبد الوهاب . العرب في العصور القديمة . ـ بيروت : دار النهضة العربية، ١٩٧٨، ص١٦٠ – ١٧١، ١٢٦، ٢١٦.
انظر أيضاً دراسة للدكتور عمر فروخ حول العلاقة بين الإسلام والتاريخ تجيب على تساؤلات عديدة، وهي تحت عنوان الإسلام والتاريخ، الإسلام نظره إلى الله والإنسان والمجتمع والتاريخ، كما يمكن الإطلاع على كتاب محمد رشاد خليل، المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، وفيه موضوعات عديدة حول المنهج والمصادر والشروط والتفسير المتعلقة بدراسة المنهج التاريخي الإسلامي. انظر أيضاً : عثمان موافي . منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوروبي. وفرانتز روزنثال . مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي.

٨ – انظر ما قاله السخاوي، المصدر السابق، ص ٥٠.

٩ – انظر : سالم، عبد العزيز . التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٦ – ٧.

١٠ – رستم، أسد . مصطلح التاريخ، ص ز من المقدمة.



١١- رستم، أسد . مصطلح التاريخ، ص و - ز . ـ ط١، ط٣ . ـ صيدا بيروت : منشورات المكتبة العصرية، ١٩٣٩، ١٩٥٥.

١٢- للمزيد من التفصيلات الوافية حول أساليب وقواعد مصطلح الحديث والشروط المستتبعة لهذا الموضوع، انظر المراجع الحديثة التالية : الصالح، صبحي . علوم الحديث ومصطلحه . ـ بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٦٦. الخطيب، محمد عجاج . أصول الحديث . ـ بيروت : دار الفكر ، ١٩٧٥. الراجحي، شرف الدين علي . مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي عند العرب . ـ بيروت : دار النهضة العربية، ١٩٨٣.

١٣- **العراقي** . التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، ص ٤٣٢ - ٤٣٣.

١٤- **الراجحي**، شرف الدين علي . مصطلح الحديث، ص ١٠٥.

١٥- **المرجع** نفسه، ص ١١٣.

١٦ - الإمام الحافظ النيسابوري . الإشراف على مذاهب أهل العلم، ٢:١٦٣.

١٧ - المصدر نفسه، ٢:١٦٣ - ١٦٤.

١٨ - عثمان، حسن . منهج البحث التاريخي، ص ١٣٨.

* وفي قراءة ﴿فتثبتوا﴾.

١٩ - سورة الحجرات : الآية ٦.

٢٠ - سورة الطلاق : الآية ٢.

٢١ - انظر : الغزالي، الإمام محمد أبو حامد . المستصفى من علم الأصول، ١:١٤٠ - ١٤٤.

٢٢ - انظر : الدليل البيبلوغرافي للقيم الثقافية العربية . ـ القاهرة : نشر بالتعاون بين منظمة اليونسكو ومركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة، ١٩٥٦ (صفحات مختارة من الدليل). ولقد تم مقارنة هذا الدليل البيبلوغرافي مع كتب الفهارس وكتب الببليوغرافيا العديدة التالية، والتي يمكن الاعتماد عليها أيضاً لفهم ودراسة التراث الفكري والعلمي الإسلامي من مختلف جوانبه. من هذه الكتب - الفهارس ما يلي :

■ ابن النديم . الفهرست . ـ بيروت : مكتبة خياط، (طبعة مصورة بدون تاريخ).

■ الأشبيلي، أبو بكر محمد الأموي . فهرس ما رواه عن شيوخه، بهمة الشيخ فرنسشكه قداره زيدين وتلميذه خليان ربارة طرغوه . ـ سرقسطة : مطبعة قومش، ١٨٩٣م.

■ البغدادي، إسماعيل باش بن محمد الباباني . إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . ـ طهران : المكتبة الإسلامية والجعفري تبريزي، ١٣٧٨هـ (انظر أيضاً طبعة بغداد).

■ حاجي خليفة . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (مجلدان) . ـ بغداد : مكتب المثنى، (بدون تاريخ).

■ طاش كبرى زادة . مفتاح السعادة ومصباح السيادة (٣ أجزاء) مراجعة وتحقيق كامل كامل بكري، عبد الوهاب أبو النور . ـ القاهرة : دار الكتب الحديثة، ١٩٦٨.

■ فهرس الكتب العربية بدار الكتب المصرية (٩ أجزاء) . ـ القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٦ - ١٩٥٩.

■ فهرس مكتبة صاحب السمو المغفور له الأمير إبراهيم حلمي، مكتبة الجامعة المصرية . ـ

مطبعة بول باربيه، ١٩٣٦.

■ فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (التاريخ وملحقاته)/ وضع يوسف العش. ومطبوعات الخزانة التيمورية (٤ أجزاء) دار الكتب المصرية ١٩٤٨ — ١٩٥٠.

■ فهرس الكتب بالمكتبة الأزهرية (٧ أجزاء) . ـ ط٢ . ـ القاهرة : مطبعة الأزهر، ١٩٥٢ — ١٩٦٢.

■ فهرس المخطوطات العربية (المحفوظة في الخزانة العامة برباط الفتح المغرب الأقصى)/ جمع، ي. س. علوش، عبد الله الرجراجي . ـ باريس : المكتبة الشرقية والأمريكية، ماكس بيسون، ١٩٥٤.

■ فهرس المخطوطات المصورة، جامعة الدول العربية/ وضع فؤاد سيد . ـ القاهرة : معهد المخطوطات العربية، ١٩٥٤ — ١٩٧٠.

■ فهرس المخطوطات العربية (٣ أجزاء)/ وضع فؤاد سيد . ـ القاهرة : مطبعة دار الكتب، ١٩٦١ — ١٩٦٣.

■ فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (دمشق)/ جمع محمد ناصر الدين الألباني . ـ دمشق : مجمع اللغة العربية، ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م (وهناك عدة فهارس أخرى من مخطوطات المكتبة الظاهرية).

■ فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف العامة في بغداد/ وضع عبد الله الجبوري . ـ بغداد : مطبعة الإرشاد، ١٩٧٤.

■ فهرس أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم/ وضع كوركيس عواد . ـ بغداد : وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٢.

■ فهرس الخزانة العلمية الصبيحية (بسلا)/ وضع محمد حجي . ـ الكويت : معهد المخطوطات العربية، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٥م.

■ فهرس المخطوطات العربية، مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت/ وضع يوسف خوري . ـ بيروت، ١٩٨٦ (مركز الدراسات العربية ودراسات الشرق الأوسط . الجامعة الأمريكية في بيروت).

■ معجم المطبوعات العربية والمعربة (منذ ظهور الطباعة إلى ١٣٣٩هـ)/ وضع يوسف إليان سركيس . ـ القاهرة : مطبعة سركيس،١٣٤٦هـ = ١٩٢٨م.

■ مجموعات مخطوطة في مكتبات استانبول/ جمع طه محسن . ـ الكويت : معهد المخطوطات العربية، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٥م.

■ نوادر المخطوطات (٨ أجزاء)/ وضع عبد السلام هارون . ـ القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٠هـ = ١٩٥١م.

■ نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا/ وضع رمضان ششن . ـ بيروت : دار الكتاب الجديد، ١٩٧٥.

٢٣ — انظر : زكي النقاش . العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، ص ٢٠٠ — ٢٠١. انظر أيضاً كتابنا : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٤٢١ — ٤٢٣.

٢٤ — للمزيد من التفصيلات الوافية عن مؤرخي ومصادر ووثائق الحروب الصليبية انظر : باركر، أرنست . الحروب الصليبية، ص ١٨٥ — ٢٠٤. انظر أيضاً : الشيال، جمال الدين . التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي، ص ٦٨ — ٧٦.

وصف بغداد في العصر العباسي

خير الله سعيد
موسكو

لعب المكان دوراً هاماً في قيام بغداد، تاريخاً وحضارة، إذ كان لحُسن اختيار المنصور أثرهُ البالغ في نهضتها الثقافية والحضارية والروحية، فلقد كانت بغداد، مزرعة للبغداديين يقال لها المباركة، وكانت لستين شخصاً فعوضهم المنصور عوضاً أرضاهم(١)، وعندما قرَّ رأيه على المكان، شاور أصحابه فيها فقالوا له تجيئك الميرة في السفن من الصين، والهند والبصرة وواسط في دجلة، ومن أرمينيا وما اتصل بها في تامرا حتى تصل الزاب ومن الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة وأنت بين أنهار لايصل إليك عدوك، إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر وأخرجت القناطر، لم يصل إليك عدوك وأنت من دجلة والفرات لايجيئك أحد من المشرق أو المغرب إلا احتاج إلى العبور، فدجلة والفرات خنادق لأمير المؤمنين(٢).

هذه الآراء من لدن أصحاب المنصور، تعبر عن رؤية راجحة، تُضمر في طياتها أبعاداً اقتصادية وعسكرية واجتماعية، وتكشف عن توسط المدينة العراق، والوصف يظهر احتضان دجلة والفرات لها، وهذه المسألة تفرض بعداً جمالياً طبيعياً على المدينة من خلال الموقع، قد أدركه المنصور ذاته، وبغية أن يتحسَّس طبيعة المكان بجماليتها، أمر أن ينظر إلى المخطط على الطبيعة، قبل الإنشاء، فخُطّت بالرماد وأقبل يدخل من كل باب ويمرُّ في فصلانها وطاقاتها ورحابها وهي مخطوطة بالرماد، فأمر أن يُحفر الأساس

مخطط لمدينة بغداد المدورة
عند انشائها من قبل الخليفة أبو جعفر المنصور

على ذلك الرسم(٣). فأنشأ المدينة في سنة ١٤٥هـ شكل «مدينة مدورة» على الضفة اليمنى من نهر دجلة في الزاوية المتكونة بين مجرى الفرات ومجرى دجلة شمالاً وسمّاها مدينة السلام(٤).

خضع إنشاء المنصور لبغداد على شكل «مدورة» لبعدين مهمين، **الأول أمني – إداري، والثاني جمالي – حضاري، فمن الناحية الأولى** يذكر الخطيب البغدادي، خبراً أورده على لسان وكيع يقول(٥) : إن أبا جعفر بنى المدينة مدورة، لأن المدورة لها معان سوى المربعة، وذلك أن المربعة إذا كان الملك في وسطها كان بعضها أقرب إليه من بعض، والمدور من حيث كل قسم كان مستوياً لايزيد هذا على هذا، ولا هذا على هذا، وبنى لها أربعة أبواب، وعمل عليها الخنادق. وعمل لها سورين وفصيلين، بين كل بابين فصيلان، والسور الداخل أطول من الخارج، وأمر – المنصور – أن لايسكن تحت السور الطويل الداخل أحد ولايُبنى منزلاً، وأمر أن يُبنى في الفصيل الثاني مع السور النازل، لأنه أحصن للسور، ثم بنى القصر والمسجد الجامع.

وهذا الإجراء، هو أمني صرف، وهي حالة كانت سائدة في تلك العصور عند بناء المدن والقلاع والحصون.

أما البعد الثاني لبنائها مدورة، فيتجلى في ملامحها الجمالية والحضارية، حيث أن الطريقة التي سُلكت في تخطيط هذه المدينة ومقارنة لها مع مدن العراق الأخرى، الأقرب إليها كالكوفة والبصرة وواسط وغيرها من المدن الإسلامية، فالفكرة التي أوحى بها المنصور إلى المهندسين لبناء المدينة تبين أن هناك تجاوباً وتمازجاً بين المُوحي والموحى إليه فقد نقل أنه(٦) بعدما رسمت المدينة على الأرض بالرماد، وضعت فوق تلك الخطوط كرات من القطن، ثم صُبَّ عليها النفط وأشعلت فيها النيران، بغية إبراز شكلها بصورة واضحة أمام المنصور.

وما أن استوطنت المدينة بالناس، حتى بدأت أعمال التشجير والتزيين(٧) وحفر الترع والأنهار يمتد إلى داخلها وخارجها، فقد كان يسقي مزارع بغداد الغربية وبساتينها ما يزيد على ثمانية أنهار بين كبير وصغير غير القنوات التي كانت تجري تحت الأرض في محلة الحربية أضف إلى ذلك ثمانية أنهار أخرى تسقي مزارع الجانب الشرقي من المدينة(٨)، حيث أن الجو في بغداد، شديد الحرارة لجأ البغداديون إلى زرع بغداد وإحاطتها بالأشجار والبساتين لتلطيف جوها، يضاف إلى ذلك، أنهم أخذوا يستعملون جرار الفخار الكبيرة، المسماة بـ«الكيزان» لتبريد الماء، وقد يضيفون إليه الثلج، وهي ظاهرة مألوفة لاتزال حتى اليوم، وقد قال أبو اسحاق الصابي، يذكر هذه الكيزان والثلج، وهو بالبصرة، وقد حن إلى بغداد(٩) :

لهف نفسي على المقام ببغداد

وشربي من ماء كوز بثلج

وقد عرفت بغداد الديارات والتي كانت من المواضع التي لاتفارقها الخضرة، تحفها البساتين والحدائق، ومن أشهر الديارات في بغداد الغربية، **دير أشموني** بقطربل، **ودير مديان** على نهر كرخايا، وفي بغداد الشرقية **دير سمالو** بباب الشماسية على نهر المهدي **ودير درمالس ودير الثعالب** وغيرها(١٠). كما أن الفواكه والغلات الزراعية كانت قد انتشرت زراعتها في بغداد، وعلى جانبيها،

وقد ذكر ياقوت الحموي أصنافاً منها، مثل – فواكه منطقة العباسية حيث عُرف بها الباقلي العباسي، واشتهرت بها منطقة الزندورد في بغداد(١١)، فهذه المزايا الطبيعية لبغداد، تجعل منها بهجة للنفوس، ومرأى للرائي، وبستاناً يستراح به، وأداة لتحفيز وتنشيط الذاكرة وتنشيط المخيلة، وتحريك سواكن النفس، وقد كان للمكان أثره في أذهان الناس، من مختلف الأجناس والطبقات والمشارب، حتى غدت حديث السمر للمسافر، وديباجة الأدب للأديب، وقافية الشعر للشاعر، واستهلال الكلام للمترسل، وعنوان البلاغة للبليغ، وصفها الجاحظ قائلاً(١٢): «قد رأيت المدن العظام، والمذكورة بالإتقان والإحكام، بالشامات وبلاد الروم، وفي غيرها من البلدان، فلم أرَ مدينة قط أرفع سمكاً. ولاأجود استدارة، ولاأنبل نبلاً، ولا أوسع أبواباً، ولا أجود فصيلاً من الزوراء، وهي مدينة أبي جعفر المنصور، كأنما صُبّت في قالب، وكأنما أفرغت إفراغاً، والدليل على أن اسمها الزوراء، قول سلم الخاسر (١٣):

«أين ربُّ الزوراء إذ قلَّدته الـ . . . . . الملكَ عشرين حجة واثنتان»

مدينة جديدة، وأماكن تسر النفس، وخيرات متوفرة، وطبيعة غنّاء، وثقافات مختلفة، وشخصية للدولة قوية، كل هذه الأمور تفاعلت في بنية المجتمع البغدادي، وأثرت فيه، فرفعت وعيه، وشذبت أخلاقه، من القمة إلى القاع، وظلت الملامح المدنية الجديدة ترتفع بوتيرتها، حتى غدت بعض السمات الاجتماعية تحدد ملامح هذه البيئة البغدادية، وهو ما عُرف – فيما بعد – بـ«الظرف البغدادي» وانتقل صداه إلى بقية الأمصار الإسلامية، وتحدث به الركبان، وهناك وصف دقيق للأخلاق البغدادية أورده ظهير الدين الكازروني في إحدى مقاماته يقول فيها(١٤): [كنت أسمع من جُوّاب الأقطار، وطرّاق البلاد والأمصار، أن دار السلام هي كعبة الإسلام، وحرم الإمام ومعدن الكرام، ودار الخلافة، ومحل الأمن من المخافة، وبها مقر الملك وسريره، وإمام العصر وأميره، خليفة الله وابن عم نبيه الأواه. تذعن الملوك بالطاعة لسلطانها وتتداكك(١٥) على أبوابه لتقبيل أركانها، والعدل بها ممدود الرواق، والعلم مديد الأطناب في الآفاق والدين منشور اللواء، والإسلام محروس الجناب بالخلفاء، وقُطّانها أعذب الناس أخلاقاً، وأكثرهم حياءً وإطراقاً، وأثقب العالم بصيرة، وأعدلهم سيرة، وأصفاهم سريرة، وأدمثهم للصديق، وأحناهم على الصاحب والرفيق، وزاهدهم العلم المشهور، والقدوة المشار إليه في الأمور، وعوامها السوقة، تغتنم مفاكهتهم وتروق مجالستهم، أخلاقهم عذبة للصاحب، وخواطرهم من أعجب العجائب، يسبق إدراكهم البرق اللامع، ويُدهش ذكاؤهم الرائي والسامع، قد اعتدل هواؤها، وطاب فناؤها، وعذب ماؤها، ورقت أسحارها وورِفت أشجارها، فهم في خفض من العيش يتقلبون. ﴿لهم دار السلام عند ربهم، وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾](١٦).

وعن هذه الأخلاق يتحدث ذا النون المصري(١٧) وهو في مصر يقول(١٨): «من أراد أن يتعلم المروءة والظرف فعليه بسُقاة الماء ببغداد، قيل له: وكيف ذاك؟ فقال لما

حملت إلى بغداد ورُمي بي على باب السلطان مقيداً، مرّ بي رجل متزر بمنديل مصري، مُعتم بمنديل ديبقي، بيده كيزان خزف رقاق، وزجاج مخروط. فسألت: هذا ساقي السلطان؟ فقيل لي: لا. هذا ساقي العامة، فأومأت إليه: اسقني. فتقدم وسقاني، فشممت من الكوز رائحة مسك، فقلت لمن معي: ادفع إليه ديناراً. فأعطاه الدينار، فأبى وقال: ليس آخذ شيئاً. فقلت له: ولم؟ فقال: أنت أسير وليس من المروءة أن آخذ منك شيئاً، فقلت: كمل الظرف في هذا». فالملاحظ، أن هناك تخلّق عام، دأبت عليه بغداد، وصار ملازماً لأبنائها، به يتفاخرون، وعليه يهتدون، فكأن الخروج عنه، هو إخلال بظرفهم، وقد أوضح لنا السقا الذي سقى ذا النون المصري تلك السجايا المتواترة عند عامة بغداد.

وهذا التخلق، تضافرت فيه عدة عوامل، تطرقنا إلى أغلبها في سياق الحديث، وقد توقف عندها غالبية المؤرخين، الذين تحدثوا عن أخلاق أهل بغداد وعاداتهم وأثر البيئة والمكان فيها، وقد سلط الضوء في هذه النواحي الخطيب البغدادي، في أكثر من مكان وموقف، مازجاً بين تأثير المكان وتأثير الإنسان المتبادل على الواقع الاجتماعي، يقول(١٩) :

«قال أبو الحسين: هذا إلى تركنا ذكر أشياء كثيرة من مناقبها التي أفردها الله بها – يقصد بغداد – دون سائر الدنيا شرقاً وغرباً، وبين ذلك من الأخلاق الكريمة والسجايا المرضية، والمياه العذبة الغدقة، والفواكه الكثيرة الدمثة، والأحوال الجميلة، والحذق في كل صنعة، والجمع لكل حاجة، والأمن من ظهور البدع، والاغتباط بكثرة العلماء والمتعلمين، والفقهاء، والمتفقهين، ورؤساء المتكلمين، وسادة الحساب والنحوية، ومجيدي الشعراء، ورواة الأخبار، والأنساب وفنون الآداب، وحضور كل طرفة، واجتماع ثمار الأزمنة في زمن واحد، لايوجد ذلك في بلد من مدن الدنيا إلا بها، سيما زمن الخريف، ثم إن ضاق مسكن بساكن، وجد خيراً منه، وإن لاح له مكان أحبّ إليه من مكانه، لم يتعذر عليه النقلة إليه، من أي جانب من جانبيه أراده، ومن أي طرف من أطرافه خفّ عليه، ومتى هرب أحد من خصمه وجد من يستره في قرب أو بعد».

وقد أفرزت بغداد وبيئتها أعلاماً في الأخلاق والأدب، والفلسفة والعلم، والطب والرياضيات، والفقه وعلوم الدين، أكثر من غيرها، ليس للعرب وحدهم، بل لكل الأقوام الذين عاشوا بها، وتربوا على آدابها، وتتلمذوا في مدارسها، وتخلقوا بأخلاقها، فزهت بهم، وزهوا بها، وراحوا يذكرونها في أشعارهم وآدابهم وفنونهم، فحفظت لهم مدوناتها ما قالوه فيها، وحفظته لهم من نسيان الدهور.

ثمة مسألة هامة رافقت بناء بغداد، وظلت تلازمها حتى اليوم هي الملامح الاجتماعية، ذات الصبغة الشعبية، فقد رافقتها منذتجمّع الناس للعمل في أساسات مدينة المنصور، وظل هذا التمازج ينمو ويتطور ويتأصل، شيئاً فشيئاً، حتى طبع المدينة بطابعه، وصارت الحميمية الاجتماعية، للمحلة أو الدرب، أو السوق، تدلل على خصوصية معينة لتلك البيئة وتشير إلى أهلها، وقد أورد أبو المطهر الأزدي كثيراً من هذه الطبائع عند أهل بغداد ونواحيها، وملابسهم وثيابهم وبيوتهم، مع فارق التميزات بين مكان

وآخر(٢٠) وقد استطاعت معالم المدينة أن تبقى راسخة في أذهان من دخلوها أو وصفوها، تستنطقهم محالها، وتذكرهم جسورها وأسواقها، وتثيرهم أبنيتها وأنهارها، ويتفاخر صاحب «حكاية أبي القاسم البغدادي» بجانبيها على أهل أصفهان، فيقول عن الرصافة(٢١): «هل في أصبهان ما يُشبه إن شئت من شرقي بغداد – الرصافة – باب الطاق، سوق يحيى، شارع البردان، درب الريحان، درجة يعقوب، طرف الجسرين بين القصرين الزاهر، الشماسية، مربعة الحرسي، سوق الثلاثاء، باب الأزج، الورّادين، المأمونية، دار الخليفة» ثم يعكف على مقارنة أصفهان بالجانب الغربي، الكرخ، يقول: «وإن شئت من غربيّها، النُجمى، الرقة، نهر عيسى، نهر طابق، سوق العروس، صف التوزي، درب عون، صينية الكرخ التي تُسمى سوق النحاسين(٢٢)، طاق اللعب الشرقية، سوق الرفائين، سوق الحلائين، قطيعة الربيع، القطيعة المكشوفة، سويقة غالب» وغيرها. وهذه المناطق يكتسب أغلبها صفة شعبية، حتى أن أسماءها باتت معروفة بنمط معين من السلوك الاجتماعي والمهني، يعرفه أهل المناطق الأخرى، من البغداديين وغيرهم.

لقد كانت بغداد، حاضرة في أذهان الناس، منذ نشأتها الأولى، حيث عمّ الرخاء، وتنشطت الحياة الاقتصادية. يقول داود بن صقر البخاري(٢٣): رأيت في زمن أبي جعفر، المنصور، كبشاً بدرهم، وحملاً بأربعة دوانيق(٢٤)، والتمر ستون رطلاً بدرهم، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم، والسمن ثمانية أرطال بدرهم، والرجل يعمل بالروزجار في السور، كل يوم بخمس حبات. وقال الحسن بن سلام: كان ينادى على لحم البقر في جبانة كندة تسعون رطلاً بدرهم، ولحم الغنم ستون رطلاً بدرهم، والعسل عشرة أرطال بدرهم.

تلك هي صورة مصغرة عن الحياة الاقتصادية اليومية لأهل بغداد، بصورة خاصة، ولأهل العراق، بصورة عامة، ولربما كانت أرخص. وهذه الحالة، تبيّن مدى ازدهار حياة الناس اقتصادياً وركونهم إلى الدعة والراحة، الأمر الذي يحبب لهم بغداد، والتوطين بها، وتفضيلها على غيرها من الأمصار، لذلك ذاع صيتها، وتغنى أبناؤها بها، وذكروها بحلِّهم وترحالهم، وانطبعت محالها وأزقتها وحاراتها وأسواقها، في أذهانهم، وصارت مصدر تغن في سفر، وحديث سمار في السهر، وانعكس هذا الأمر على روادها وزوارها، والضاعنين منها، والوافدين عليها. قال أبو الوفاء بن عقيل – أحد قاطنيها(٢٥): سألني صدر من صدور طريق خراسان عن بغداد وما أدركت بها فقلت: لا أذكر لك أمراً تكاد تستبعده، فأذكر لك محلتي وهي واحدة من عشر محال، كل محلة كبلد من بلاد الشام، وهي المعروفة بـ«باب الطاق» أما شوارعها فشارع مما يلي دجلة، من أحد جانبيه قصور على دجلة، طراز ممتد من عند الجسر إلى أوائل «الزاهر» وهو بستان للملك، نحو مائتي جريب، وجانبه الآخر مساجد أرباب القصور ومساكن غلمانهم، وفي خلال ذلك اصطبلاتهم، ثم يليه من يمنته عند الجسر سوق يحيى الجامعة بين دور الوزراء والأمراء مما يلي الشط، وفي الجانب الغربي لسوق يحيى – الدكاكين

العالية والدروب العامرة، من دقاقين وحلاويين، ثم نهاية الدور الشاطئية، دار معز الدولة ذات المسناة، التي عرضها مائة آجرة، وكان لها الروشن البديع، فهذا طراز باب الطاق الشاطىء، فأما دواخلها، فأوائلها العَرَصة التي هي رحبة الجسر والتي تنقسم إلى شارعين عظيمين، أحدهما للأساكفة، ثم سوق الطير، وهو سوق يجمع الرياحين، وفي حواشيها الصيارف الظرّاف، وأصحاب الطيالس، وفاخر الملابس، ثم سوق المأكول والخبازين والقصابين، وسوق الصاغة لم يُشاهد أحسن منه بناء شاهق، وأساطين ساج، عليها غرف مشرفة، ثم الوراقين سوق كبيرة، وهي مجالس العلماء والشعراء، ثم سوق الرصافة، عظيمة جامعة، ثم شارع الترب وقصر المهدي وجامع الرصافة، ودرب الروم، وشارع عبد الصمد، والسقايات العجيبة في طريق الجامع ذات الأجراس الكثيرة، كان هذا الوصف لبغداد الرصافة، أما الجانب الغربي من بغداد، فهو محلة الكرخ، ذلك القسم الهام، والرئيسي والأكبر من بغداد، يقول عنه المتحدث أبو الوفاء(٢٦): من الجانب الغربي الكرخ وشاطئه قصور منتظمة ذوات دواليب وبساتين ورواشن متقابلة، وبين يدي ذلك دار خيطيّة مشذّبة لرب الدار، مسرجة بالحلية المليحة والرجاشات(٢٧) العجيبة، ويتوقف ابن الجوزي ملياً مع المتحدث، ليذكر تفاصيل دقيقة عن شواطىء دجلة – في جانب الكرخ، وكأنه يتعشقه، أو عاش فيه أكثرية حياته، فانعكاس المكان، بكل تفاصيله حاضر في الذهن والنص، يقول(٢٨): «البط يتلاعب في مشرعة الدار الشاطئية، ولربما اختلطت أصوات أغانيها برنيم دواليبها، ونقيق بطها، وضجة غلمانها وخدمها، ودجلة تنسل بين شاطىء قصورها الشاطئية، ولقد نزلت كثيراً في سميرية(٢٩) منحدراً فما أزال أسمع هذه الأنغام من شرعة الجسر بباب الطاق إلى باب المراتب، وكان لدور الشط أبواب إلى شوارعها، وعلى كل باب مراكب مندرجة، مهيأة لركوب الظهر، كما بين أيدي رواشنها خيطية أو زبزب(٣٠) لركوب الشط، والناس كأنهم في دعوة، لاتخلو من ختان صبي، أو زفاف امرأة، وفي السبوت مجالس القراء على الكراسي بالألحان، وحلق العلاج والصراع، ومسابقة السفن. ومن أحسن القصور كانت دار الفخرية بالغربي. ودار المملكة بالشرقي، ولم يكن للدار العزية مثل دار بلدرك والحريم الطاهري ودوره الشاطئية، وسوره الدائر، وبابه الحديد، ودارالأمير حسن بن اسحق بن المقتدر، الذي عرضت عليه الخلافة فأباها، ووراء الحريم شارع دار الرقيق وهي محلة كبيرة كثيرة المنازل العجيبة، ثم درب سليمان والمارستان، وسوقه العجيب، ثم دار النقابة الشاطئية. ويستطرد المتحدث في الإسهاب لوصف جانبي بغداد – الكرخ والرصافة – من خلال ما يحيط بدجلة من أبنية وشوارع ودور وغيرها. يقول: وكنت أسمع من المشايخ أن بدجلة خمسمائة مصفرة(٣١) مزينة لايركب فيها إلا ظرّاف التجار والأجناد وأرباب المقاطعات، والرجل وغلامه، والملاحون بالثياب الجميلة. ثم باب البصرة، ذات السكاك البعيدة، ومن الجانب الشرقي (الزاهر) بستان عظيم جامع للنحل والأزهار، ووراءه ثلاث محال، سوق السلاح والمخرم وسوق الداية، وتمتد العمارة إلى نهر

المعلّى، ودار الخلافة وتاجها العجيب، وهي بنفسها بلد، وباب المراتب، محلة تختص بالكبراء وأرباب المناصب، وباب الأزج والمأمونية، وفي الجانب الغربي قصر عيسى وقصر المأمون والتوثة وغير ذلك». ثم يضيف: «وجمعت الكرخ منازل عجيبة، بديعة البناء وفيها درب الزعفران وفيه الدار العجيبة، ودرب رياح وشارع ابن أبي عوف وباب محول، وكان بسور الحلاويين خزانة كتب فيها اثنا عشر ألف مجلد، وكانت أسواق الكرخ، وباب الطاق، لايختلط العطارون بأرباب الزهائم والروائح المنكرة، ولاأرباب الأنماط بأرباب الإسقاط، وكان لأرباب المروءات دروب تخصهم. ودرب الزعفران بالكرخ لايسكنه أرباب المهن، بل أهل البز والعطر، ودرب سليمان في الرصافة مقصور على القضاة والشهود وكبار التجار»(٣٢).

إن ابن الجوزي يصور بغداد بكل تاريخها وحضارتها، وكأنه يريد القول، أن بغداد كانت دينه ودنياه، يتعصّب لها من خلال الوصف، فماذا يقول من يُجبر على مغادرتها؟ يقول أحدهم في فراقها(٣٣):

لعمري لقد فارقتها غير طايع

ولا طيب نفساً بذاك ولامُقر

فيا ندمي إذ ليس تغني ندامتي

ويا حذري إذ ليس ينفعني الحذر

وقائلة ماذا نأى بك عنهم

فقلت لها لاعلم لي فاسألي القدر

وسحرت بغداد كل الذين زاروها من الأدباء والشعراء والظرّاف وغيرهم من كافة طبقات الناس وهم الأكثر حنيناً إليها، وفي ذلك يقول ابن الرومي(٣٤):

بلد صحبت به الشبيبة والصبا

ولبست ثوب العيش وهو جديد

فإذا تمثل في الضمير رأيته

وعليه أفنان الشباب تميد

وينقل ياقوت الحموي أبياتاً عن الخطيب البغدادي، مؤرخ بغداد عن أبي محمد الباقي(٣٥):

دخلنا كارهين لها فلما

ألفناها خرجنا مكرهينا

ويعلق الخطيب على ذلك بقوله: يوشك هذا أن يكون في بغداد، قيل وأنشد لنفسه في المعنى وضمنه البيت(٣٦):

على بغداد معدن كل طيب

ومغنى نزهة المتنزهينا

سلام كل ماخرجت بلحظ

عيون المشتهين المشتهينا

دخلنا كارهين لها فلما

ألفناها خرجنا مكرهينا

وقد استطاع الخطيب أن يوجز وصفها بقوله(٣٧): «لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها، وتميز خواصها وعوامها، وعظم أقطارها وسعة أطرارها(٣٨) وكثرة دورها ومنازلها، ودروبها وشعوبها، ومحالها وأسواقها، وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها، وطُرزها وخاناتها، وطيب هوائها وعذوبة مائها، وبردُ ظلالها وأفيائها، واعتدال صيفها وشتائها، وصحة ربيعها وخريفها، وزيادة ما حُصر من عدّة سكانها، وأكثر ما كانت عمارة وأهلاً في أيام الرشيد، إذ الدنيا قارّة المضاجع، خصيبة المراتع، موردة المشارع».

هذا الوصف، يجعلك ترسم خطاً بيانياً

صاعداً للتطور الاقتصادي، والمنعكس بالضرورة على الواقع الاجتماعي، فتزدهر القيم الروحية، فتنهض الصناعات لتلبي الاحتياجات، وتنشط الحياة عموماً.

وفي ضوء هذا النشاط يتآلف الناس، وتشد الأواصر بينهم، فيأسرهم المكان، وتقودهم الذكرى إليه، يقول يونس بن عبد الأعلى: قال لي الشافعي رحمه الله أيا يونس دخلت بغداد؟ فقلت: لا. فقال: ما رأيت الدنيا ولا الناس(٣٩).

ومن هنا ندرك مكانة بغداد في العالم الإسلامي قديماً، الأمر الذي وجّه الكثير لزيارتها والإقامة فيها للتزود في المعرفة والعلوم، فكثر سكانها، وتزاحمت الأبنية فيها، وضاقت شوارعها بالناس، حتى أن عبدالملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، لما قدمها، ورأى كثرة الناس بها قال: «ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة إلا ظننت أن الناس قد نودي فيهم»(٤٠). وكان من يغادرها ويبتعد قليلاً عنها، تتحرك سواكن نفسه، ويألفها مأسورة بالحنين، فما كاد الرشيد يغادرها إلى الحج، وبلغ زرود(٤١) التفت إلى ناحية العراق وقال(٤٢):

أقول وقد جزنا زرود عشية
وكادت مطايانا تجوز بنا نجدا
على أهل بغداد السلام، فإنني
أزيد بسيري عن ديارهم بعدا

وعندما ذكرها ياقوت الحموي في معجمه، بدأ الحنين يأخذ بتلابيبه، رغم أنه لم يمكث بها طويلاً، مثل بقية الأدباء والشعراء، وحنينه يخفيه بين جوانحه، دون أن يصرّح به، لكن شواهده الشعرية التي يوردها تفصح عن ذلك(٤٣) رغم أنه يورد شواهد شعرية أخرى لمن ذمّها. لكن أبيات الشوق إليها أبلغ وأرق وأوقع، ومن ذلك ما نقله عن عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير(٤٤) وطاهر بن المظفر بن طاهر الخازن، وكلاهما يذكر أمكنة معروفة وهامة من بغداد، ويذكرون القصور والشوارع والحارات، ودجلة والجسور، ثم يذكرون أهلها وكرمهم وأخلاقهم، يقول الأول «عمارة»(٤٥):

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين
على تقلبها في كل ماحين
ما بين قطربل فالكرخ نرجسه
تندى ومنبت خيري ونسرين
تحيا النفوس برياها، إذا نقحت
وخرَشت بين أوراق الرياحين
سقيا لتلك القصور الشاهقات وما
تُخفي من البقر الأنسية العين
تستن دجلة فيما بينها، فترى
دُهم السفين تعالى كالبراذين
مناظر ذات أبواب مفتحة
أنيقة بزخاريف وتزيين
فيها القصور التي تهوي بأجنحة
بالزائرين إلى القوم المزورين
من كل حراقة تعلو فقارتها
قصر من الساج عال ذو أساطين

ويقول الثاني «طاهر بن المظفر»(٤٦):

سقى الله صوت الغاديات محلة
ببغداد، بين الخلد والكرخ والجسر
هي البلدة الحسناء خصت لأهلها
بأشياء لم يُجمعن مذ كن في مصر
هواء رقيق في اعتدال وصحة
وماء له طعم ألذ من الخمر

ودجلتها شطان قد نظما لنا
بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر
ثراها كمسك والمياه كفضة
وحصباؤها مثل اليواقيت والدر

وحين أخذ الخلفاء بالتحول عنها إلى سامراء، تصدى الشعراء، لهذه الحالة، وانبرى لها من يُحفزهم على البقاء، مصورين الأمر وكأنه شبه خيانة، مذكرين بأن الخروج منها لا يُطمئن، ولكن الدافع السياسي كان أقوى، فغادروها، ويصف ابن الفقيه هذه الحالة على لسان الشاعر(٤٧) فيقول:

أعاينت في طول من الأرض والعرض
كبغداد داراً أنها جنة الأرض
صفا العيش في بغداد واخضر عوده
وعيش سواها غير صاف ولاغض
تطول بها الأعمار إن مياهها
عذاب وبعض الماء أعذب من بعض(٤٨)
تنام بها عين الغريب ولن ترى
غريبا بأرض الشام يطمع في غمض
فإن خربت بغداد منهم بقرضها
فما أسلفت إلا الجميل من القرض
وإن رميت بالهجر منهم وبالقلى
فما أصبحت أهلاً لهجر ولا بغض

الهوامش

* – هذه الدراسة، فصل من موسوعة بعنوان «وراقو بغداد في العصر العباسي» يعدّها الكاتب للنشر.

١ – ابن الجوزي، مناقب بغداد، تحقيق محمد بهجت الأثري . ـ بغداد : مطبعة دار السلام، ١٣٤٢هـ، ص٧.

٢ – المصدر السابق، ص٨.

٣ – المصدر ذاته، الصفحة ذاتها.

٤ – انظر جواد، مصطفى . وسوسة، أحمد . دليل خارطة بغداد . ـ بغداد : مطبوعات المجمع العلمي العربي، ١٣٧٨هـ = ١٩٥٨م، ص٢٣.
والمحمول الديني واضح في التسمية، دار السلام. انظر الآية ١٢٧ من سورة الأنعام.

٥ – تاريخ بغداد، ص٧٢ – ٧٣.

٦ – مرزوق، محمد عبد العزيز. معهد الفن الإسلامي . ـ بغداد : منشورات وزارة الإعلام العراقية، ١٩٧١م، ص١٧. ولاحظ مخطوط المدينة، نموذج رقم١.

٧ – للاستزادة والتفصيل في هذا الجانب، نحيل القارىء إلى الفصل الثالث، من كتاب دليل خارطة بغداد، ففيه معلومات وافية جداً.

٨ – انظر السوداني، مزهر . جحظة البرمكي، ـ ط١ . ـ النجف، ١٩٧٧م، ص١٠.

٩ – الثعالبي، يتيمة الدهر . ـ القاهرة، ١٣٥٢هـ = ١٩٣٤م، ٢/ ٢٤٤.

١٠ – انظر الشابشتي، الديارات، تحقيق كوركيس عواد . ـ بغداد : مطبعة المعارف، ١٩٥١م، ص٣، ٩، ١٦، ١٨، ٢١، ٣٠.

١١– ياقوت الحموي، معجم البلدان . ـ بيروت : دار صادر، ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م، ٤:٧٥ و٣:١٥٤. وكذلك مزهر السوداني، جحظة البرمكي، ص١٦.

١٢ – تاريخ بغداد، ١:٧٧.

١٣ – انظر ترجمته في الأغاني، بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة : دار الكتب المصرية . ـ ١٣٩١هـ = ١٩٧٢م، ١٩:٢٦٠ – ٢٨٧.

١٤ – مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية،

تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد، نشرت في مجلة المورد، عدد خاص عن «بغداد»، المجلد الثامن، العدد الرابع، ١٤٠٠هـ = ١٩٧٩م. ص٤٢١ – ٤٤٠.

١٥ – يقال: تداك عليه القوم، أي ازدحموا، هكذا أوردها المحققان في «المورد»، ص٤٢٧. ولم أجدها في اللسان(مادة: دكك).

١٦ – سورة الأنعام : الآية ١٢٧.

١٧ – هو ذو النون بن إبراهيم المصري الاخميمي، أحد العلماء المتصوفة المشهورين، راجع ترجمته في طبقات الأولياء/ لابن الملقن . – ط١ . – القاهرة : الخانجي، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م، ص٢١٨.

١٨ – تاريخ بغداد، ١:٥٠.

١٩ – المصدر السابق، ١:٥٠ – ٥١.

٢٠ – راجع «حكاية أبي القاسم البغدادي»، ص٣٥ – ٤٨.

٢١ – المصدر السابق، ص٢٢ – ٢٣.

٢٢ – يعرف الآن بـ«سوق الصفافير» ولا زال قائماً في الكرخ.

٢٣ – مناقب بغداد/ لابن الجوزي . – بغداد : نشره محمد بهجت الأثري، مطبعة دار السلام، ١٣٤٢هـ، ص٢٥.

٢٤ – الدانق هو سدس الدرهم.

٢٥ – مناقب بغداد، ص٢٥.

٢٦ – أبو الوفاء، راجع مناقب بغداد، ص٢٦.

٢٧ – الرجاشات = ما يثير العجب في النفس من زينة الأبنية ونقوشها وبديع محاسنها، انظر الهامش رقم ٢ وص٦٢ من المصدر السابق.

٢٨ – المصدر السابق، ص٢٧.

٢٩ – السميرية = ضرب من السفن الصغيرة.

٣٠ – أنواع من السفن الصغيرة.

٣١ – نوع من القوارب الصغيرة الخاصة.

٣٢ – مناقب بغداد، ص٢٧ – ٢٨.

٣٣ – انظر أبا المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، بعناية آدم ميتز . – هيدلبرج، ١٩٠٢م، ص٢٥.

٣٤ – انظر ديوانه، تحقيق حسين نصار . – القاهرة : مطبعة دار الكتب، ١٩٧٣م، ٢:٧٦٦.

٣٥ – معجم البلدان، مادة بغداد، بيروت : دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٤هـ = ١٩٥٥م، ١:٤٦٣.

٣٦ – معجم البلدان، ١:٤٦٣.

٣٧ – تاريخ بغداد، القاهرة : مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة، بغداد : المكتبة العربية، ١٣٤٩هـ = ١٩٣١م، ١:١١٩.

٣٨ – أطرارها = جمع طر، شفير النهر والوادي، وطرف كل شيء وحرفه، القاموس المحيط، مادة (طرر)، وأهل جنوب العراق يقولون (الطرة) للفلاة الواسعة من الأرض.

٣٩ – معجم البلدان، ١:٤٦٣.

٤٠ – المصدر السابق، ١:٤٦٢.

٤١ – زرود – أرض رملية بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة، انظر : ياقوت . معجم البلدان، ٣:١٣٩، مادة زرود.

٤٢ – معجم البلدان، ١:٤٦٢ – ٤٦٣.

٤٣ – راجع على سبيل المثال، ١:٤٦١ – ٤٦٤.

٤٤ – انظر ترجمته عند المرزباني . معجم الشعراء . – القاهرة : مكتبة القدسي، ١٣٥٤هـ، ص٢٤٧.

٤٥ – معجم البلدان، ١:٤٦٢.

٤٦ – المصدر السابق، ٤٦٣.

٤٧ – هو عند الخطيب البغدادي، عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطفي وقيل لمنصور النمري. انظر تاريخ بغداد، ١:٦٨ وكذلك بغداد مدينة السلام، ص٤٠.

٤٨ – ورد هذا البيت عند الخطيب البغدادي، ١:٦٨ بالشكل التالي:

تطول بها الأعمار إن غذاءها مريء

وبعض الأرض أمرء من بعض.

مقالات

اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى

د. علي أحمد
جامعة الملك فيصل - كلية التربية
السعودية

مقدمة

في أندلس الأمس ومغرب اليوم، عاشت مجموعة من اليهود عيشة طيبة رافهة، يكتنفها الهدوء وتعززها الثقة والأمان، لأن العرب في كل مكان وفي كل أيام مجدهم، كانوا ينظرون إلى جميع سكان بلادهم نظرة واحدة، تقوم على أساس أنهم مواطنون في دولة واحدة، تنظم شؤون حياتهم مجموعة قانونية واحدة، تطبق موادها على الجميع، بغض النظر عن الجنس واللون والدين.

في هذا الجو الممتاز، وجد اليهود بيئة صالحة مناسبة للعيش، استغلوها لمصالحهم إلى أبعد حدود الاستغلال، مستفيدين من جو الحرية العامة، التي تمتعوا بها تحت مظلة الدولة العربية، فوصلوا إلى مراتب إدارية عالية، كان ذلك على حد سواء في عصر القوة العربية في الأندلس خلال عصر الإمارة والخلافة، أو في عصر السقوط في زمن دول الطوائف بالأندلس أيضاً. وهذا إن دل على شيء، إنما يدل على سعة الصدر العربي، الذي تمكن من استيعاب الجميع تحت قيادة عربية واحدة قوية، وهو بالتالي يشير إلى مدى قدرة العرب على قيادة الناس قيادة حازمة، تجمع بين العلم والرحمة وبين الحزم واللين.

وعلى الرغم من ذلك الواقع الطيب للعرب، فإن اليهود لم يقدروا لهم هذه المعاملة، وتلك النظرة الإنسانية العظيمة، ولاسيما أن العرب هم الذين خلصوهم من كوابيس الظلم والاضطهاد والعذاب، التي لحقت بهم خلال فترة طويلة سبقت وصول العرب إلى الأندلس، فقاموا بتحريرهم وعتقهم وإطلاق سراحهم في كل مجال من مجالات الحياة. ومع ذلك فقد وقفوا ضد العرب، حتى في أيام قوتهم، عندما كانوا يحاولون إعطاء زخم جديد

للمسائل اليهودية، وبخاصة الدينية منها، مستغلين بذلك روح التسامح العربية، التي سادت الأندلس والمغرب وقتاً طويلاً. أما في أيام تدابر العرب وسقوط هيبتهم، وضعف قوتهم، فحدث ولا حرج. فقد انتقلوا إلى جانب الإسبان، يقومون بخدمتهم، وذلك بالدفاع عن حقوقهم العامة ضد العرب، الذين أعطوهم كل شيء. وكانوا في كثير من الأحيان أشد ظلماً وعدواناً من الإسبان على العرب، برغم أنه لولا ثقافة العرب وعلومهم، التي درسوها واستفادوا منها، لما كانوا تمكنوا من الوصول إلى المناصب الإدارية والاقتصادية الرفيعة، التي شغلوها في الجانب الإسباني المعادي للعرب.

تفاصيل هذه الأمور ستظهر واضحة من **خلال تتبع مضمون الصفحات التالية التي قصدنا من كتابتها الوقوف على جانب هام من جوانب حياة اليهود في ظل دولة العرب المتقدمة في الأندلس والمغرب** خلال العصور الوسطى، ذلك لأن الوقوف على هذا الجانب التاريخي الهام من حياة اليهود، يمكن المرء من معرفة أكيدة، في أن الشعب اليهودي، لا يمكن أن يرقى إلى المستوى الإنساني، الذي يجعله ينظر إلى الآخرين نظرة عادلة، تعتمد في أصولها على حقوق جميع البشر في التمتع بحياتهم العامة والخاصة، بحيث لا يكون ذلك على حساب الآخرين. كما أنهم دوماً يجعلون من أنفسهم سادة غيرهم، وحتى تستقيم الحياة برأيهم (الظالم) فلابد من أن تكون البشرية تحت سيطرتهم الثقافية والمادية والمعنوية.

نبدأ بالتساؤل عن الأصول الغابرة لليهود في المغرب والأندلس. للإجابة على ذلك نقول : إننا لن نذهب بعيداً في التحري والبحث عن الأماكن التي رحل منها اليهود في الأندلس والمغرب، لأن في ثنايا ذلك أوهام وأغلاط وآراء لا طائل منها، وبالتالي لا يمكن للمرء أن يبلور فكرة راسخة حولها. وكل ما يمكن ذكره في هذا المقام، أن قسماً مهماً من اليهود في إسبانيا والمغرب، يعود في أصوله إلى العصر الروماني. أما القسم الآخر المتبقي في اليهود فهم من أصل أوروبي شرقي، ومن ثم من أصل خزري، **وهذا يعني أن أسلاف معظم اليهود المعاصرين، لم يأتوا من وادي الأردن وإنما من الفولغا، ولم ينحدروا من كنعان، وإنما من القوقاز وأنهم أوثق انتماء وراثياً إلى قبائل الهون والمجر منهم إلى ذرية إبراهيم واسحق ويعقوب**(١).

ومن ذلك نستنتج **أن اليهود كانوا طارئين على شبه الجزيرة الإيبرية (إسبانيا) مثلهم في ذلك مثل اليهود في كل مكان. ولم يكن لهم صلة عرقية أو دينية بسائر سكان الأندلس، وكانت الحياة الاقتصادية في أيديهم وتحت سيطرتهم، يقدمون القروض والأتاوات والإغراءات للطبقات الحاكمة، ويبتزون الأموال من الطبقات المحكومة دون تفريق بين غني أو فقير، أو بين محتاج ومتخم، ثم كانوا يقرضون المال للجميع بالربا والفوائد وما يتصل بذلك**(٢).

وكما كانت الدولة تضطهد اليهود، كان الأشراف ورجال الدين الإسبان يضطهدونهم أيضاً. وقد جعل رجال الدين اضطهاد اليهود سياسة صريحة لهم، وحملوا الدولة على تبني تلك السياسة، وكانوا لايبايعون ملكاً على إسبانيا إلا إذا تعهد بتنفيذ هذه السياسة. وحجة رجال الدين في اضطهاد اليهود، هي

أن اليهود قتلوا المسيح، وأنهم يأخذون الربا، وأنهم يعملون في النخاسة. وأقرت الكنيسة سياسة الاضطهاد هذه سنة ٦١٦م في أيام الملك سيسيبون (٦١٢ - ٦٣١م) وكان روماني الهوى وكاتباً باللغة اللاتينية، وكذلك في أيام الملك سيسيناندو، الذي عقد المجمع الرابع الكنسي في عهده في مدينة طليطلة سنة ٦٣٣م والذي اتخذ بحق اليهود قرارات مجحفة غير إنسانية(٣) وقد أدت هذه السياسة الجائرة وما آلت إليه من أحوال سيئة باليهود، أن يطلبوا التخلص منها ومن عواقبها، فراحوا يتآمرون على الدولة الإيبرية بشتى الوسائل، دون أن يفكروا في أمر وماهية الدولة المقبلة، التي تخلصهم من هذا الواقع الصعب. وهذا ما جعلهم يميلون إلى الترحيب بقدوم العرب، لا حباً بهم ولا إيماناً بجدارتهم، لأنهم لا يحبون أحداً في الأرض، بل لأنهم كانوا يأملون بالتخلص من ظلم الإسبان، الذي شمل كل جوانب حياتهم، وأن العرب اتصفوا في ذلك الحين بعدلهم وتسامحهم ومحبتهم وإنصاف المظلومين برفع الظلامات عنهم، من أي الناس كانوا ومن أي الإنتماءات. والحقيقة فإن الذي حدث بالفعل، هو أن العرب لما وصلوا إلى الأندلس، لم يضطهدوا اليهود دينياً، ولا كانوا يأخذون منهم أموالاً بغير حق، كما كان يفعل القوط، وبذلك ارتفعت مكانتهم في ظل الحكم العربي(٤) ومنذ ذلك الحين تمتع اليهود بنعمة الهدوء والاطمئنان والعيش الكريم، ولم يتعكر صفو حياتهم لحظة واحدة، إلا عندما كانوا يقومون بأعمال شائنة، تثير حفيظة العرب، الذين منحوهم العطف والرحمة، وقدموا لهم جميع ألوان المساعدة(٥).

وقد تركز الوجود اليهودي في الأندلس في كل المناطق مع اختلاف في كثافة هذا الوجود حيث كان كثيفاً في المناطق الجنوبية العامرة في الحياة والغنية في الأرزاق والإيرادات والإمكانات المتنوعة، مثل مدينة غرناطة، التي دعيت بغرناطة اليهود(٦) ومدينة إشبيلية التي اكتظت بأعداد غزيرة منهم، لكن أكبر مراكز وجودهم في الأندلس، كان في بلدة السيانة القريبة من قرطبة، التي اختصت باليهود دون غيرهم(٧) وقد كان وجودهم في هذه البلدة مميزاً، لأنهم كانوا أكثر ثروة ومالاً وبحبوحة اقتصادية من سائر اليهود في الأندلس(٨).

وأهم مناطق اليهود في الأندلس، كان مدينة طليطلة عاصمة إسبانية القديمة التي كانت تعرف في العصور الوسطى بالثغر الأوسط، وقد كان اليهود فيها كثيري العدد، وأصبحوا ذوي شأن رفيع في ظل الحكم العربي المتسامح، الذي سمح لهم بالامتلاك والبيع والتعرض، كما لو أنهم من العرب المسلمين، ودليل ذلك وجود كثير من صكوك البيع والشراء، كانت تحتوي على أسماء رجال لهم مقام اجتماعي رفيع، مثل الصك الذي ذكر فيه ما كان يمتلكه أبو هارون موسى بن الشحات الإسرائيلي(٩).

وبالجملة فإن وجود اليهود في الأندلس، تركز في المدن الكبرى، وبعض التجمعات السكنية الكثيفة، التي يكثر فيها النشاط الاقتصادي، ولاسيما النشاط التجاري، الذي برع اليهود في مغماره، كما سنرى في الفقرات التالية.

وقد ظل اليهود إلى جانب الفئات الأخرى غير العربية، يعيشون في أحياء خاصة بهم

في المدن سابقة الذكر. ولم يكن لهم رأي خاص بهم يتميزون به عن سواهم خلال القرون الأولى من حكم العرب في الأندلس والمغرب على الأقل، كما كانت العادة في المشرق العربي(١٠) وكانت بيوتهم في أحيائهم قريبة من بعضها، تتصل فيما بينها بدروب ضيقة وساحات صغيرة، وفي هذه الأحياء يوجد بعض الحمامات والمعابد(١١).

وفي المغرب العربي كغيره من بلدان العالم، وجدت بعض الجاليات اليهودية، التي انتشرت في عدد كبير من مدنه وبلداته، من حدود بلدة شالة في المغرب الأقصى حتى تاهرت في المغرب الأوسط، ومن بداية إفريقية (تونس) حتى نهايتها. وكانت هذه الجاليات تتوضع بشكل خاص في المدن الكبرى، مستغلة في ذلك وقبل كل شيء روح التسامح العربية، ومقدرة العرب على استيعاب جميع السكان والمساواة فيما بينهم، إذا التزموا في حدود القانون والنظام العام. فمنذ القديم ضم المجتمع القرطاجني، الذي شمل رقعة واسعة من أرض المغرب العربي، ولا سيما الأقسام الشمالية منه، ضم بعض الجاليات اليهودية، التي بدأت بالمجيء إليه منذ سنة ٥٨٨ ق. م. على أثر قيام الملك البابلي بختنصر بتنقية مجتمع مدينة بيت المقدس في فلسطين من الشرور اليهودية(١٢) ولايستبعد أن تكون مجموعة مهمة من يهود إسبانيا، قد انتقلت إلى المغرب قبل وبعد الفتح العربي الإسلامي للأندلس والمغرب. فقد ظهر اليهود قبل الفتح على صعيد التدخل في الشؤون السياسية لكلا البلدين، مثال ذلك أنهم قاموا بمساعدة الفاندال في إسبانيا، وكذلك في المغرب عندما احتله الفاندال، وذلك انتقاماً من المسيحيين الإسبان، الذين كانوا يعاملونهم بقسوة(١٣).

وبقي اليهود يتمتعون بحرية الإقامة والانتقال في كل أقطار المغرب العربي، عندما فتح العرب جميع أقطاره، وازداد استقرارهم تدعيماً وقوة في عهد الدول الانفصالية، التي قامت في القرن الثاني الهجري، كدولة الأغالبة في تونس، والدولة الإباضية الرستمية في تاهرت بالمغرب الأوسط (الجزائر اليوم)، ودولة بني مدرار في سجلماسة بالمغرب الأقصى، حيث باشر اليهود أعمالاً متعددة الوجوه، ولاسيما التجارة التي نشطت خلال القرن الثالث الهجري بين أقطار المغرب وإفريقية من جهة، وبين الأندلس من جهة ثانية، وبخاصة تجارة الذهب، التي تميز اليهود بها، وعرفوا أسرار نجاحها وطرقها المربحة.

ويبدو أن عدد الجالية اليهودية في المغرب، كان كبيراً إلى حد ما، يدل على ذلك، أن اليهود كانوا أكثر من المسيحيين في المغرب فمنذ الأيام الأولى لبناء مدينة فاس المغربية، شكل اليهود فيها جالية كبيرة، فيذكر ابن أبي زرع في كتابه (الأنيس المطرب بروض القرطاس) أن إدريس الثاني فرض الجزية على يهود فاس، فكان مبلغ جزيتهم في كل سنة ثلاثين ألفاً(١٤). ويذكر ابن حوقل في عدة مواضع من أراضي الفاطميين، كانت تجبى ضريبة تسمى (الجوالي) ويكاد يكون من المؤكد أن هذه الضريبة هي الجزية نفسها، التي كانت تفرض على غير المسلمين(١٥).

وعلى الرغم من التسامح العربي شبه الكامل مع اليهود في الغرب العربي، فقد يبدو

من الواضح في تاريخ المغرب والأندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، أنه لا وجود لليهود في ميدان الإدارة العامة على الإطلاق، وإن وجد استثناء لذلك، فهو قليل ونادر جداً، وربما يعود سبب ذلك إلى قوة الوجود العربي على هذا الصعيد، حيث الكوادر العربية الإدارية متوفرة بصورة كافية، وهذه الكوادر تتفوق على غيرها بالعلم والمعرفة والخبرة والتوجه، هذا بالإضافة إلى تماسك الدولة وقوتها وزخمها الحي، وبخاصة خلال عصر الإمارة والخلافة الأموية في الأندلس، وبالتحديد خلال فترة حكم الخليفة الناصر لدين الله وولده الحكم المستنصر، التي استمرت من سنة ٣٠٠ - ٣٦٦هـ = ٩١٣ - ٩٧٧م، حيث وصل يهودي واحد إلى شغل منصب الوزارة، ساعده على ذلك تعمقه في أصول وأنواع الثقافة العربية، وكذلك التسامح العربي في عصر الخلافة، الذي ترافق مع تقدم البلاد على كل الصعد، ولاسيما منها الاقتصادية والعلمية. هذا الوزير هو أبو يوسف حسداي بن اسحق بن عزرا ابن شبروط المتوفى سنة ٣٥٩هـ = ٩٧٠م، الذي اشتغل عند الخليفتين سابقي الذكر في ميدان الإدارة والطب على حد سواء، وقد كانا يشاورانه في كثير من الأمور الكبيرة الخاصة بالدولة(١٦).

أما فيما بعد هذه الفترة الذهبية، فقد اختلف الأمر بصورة جذرية، ولاسيما خلال عصر دول الطوائف بالأندلس، عندما سقطت الخلافة الأموية، وظهر عدد كبير من الدول، كان التناحر والتقاتل هو القاسم المشترك فيما بينها، الأمر الذي أدى إلى استخدام العناصر غير العربية، ليس في مجال الإدارة فحسب، بل في جميع المجالات. ويرز من بين هذه العناصر، العنصر اليهودي، الذي استطاع بذكاء وحسن تدبير من الدخول إلى أعماق وكيان حكام دول الطوائف، الذين تغافلوا عن كل شيء يتعلق بحقوق الوطن، وراحوا يركضون خلف مصالحهم الشخصية والعائلية والقبلية.

وقد اعتمد حكام الطوائف على اليهود في بعض الأعمال المهمة من مجال الإدارة، وحاول هؤلاء اليهود في خلال المناصب التي شغلوها، الإساءة للعرب، وذلك بالوقوف ضد مصالحهم الوطنية والاقتصادية والإنسانية العامة. وفي تاريخ الأندلس الكثير من الأمثلة على ذلك، نسوق بعضها على سبيل التمثيل لواقعهم الحقيقي في الأندلس. فحينما استقر الحكم للزيريين في غرناطة، وأصبحت واحدة من دول الطوائف في القرن الخامس الهجري= الحادي عشر الميلادي، قام باديس ابن حبوس، أحد حكامها المشهورين بتعيين اسماعيل بن نغدلة اليهودي وابنه يوسف وزراء في بلاطه. وخلال فترة قصيرة من الزمن، اشتهر أمر اسماعيل، فأصبح المتصرف الوحيد والرئيس في جميع الأشغال والأعمال في دولة باديس، وفاز بالجاه والمال ورفع إلى أعلى منزلة، فاتخذ عمالاً ومتصرفين في الأشغال من أبناء جنسه (اليهود) فاكتسبوا المال والمراتب، وتطاولوا على العرب. وفيه يقول الشاعر الأندلسي عبد العزيز خيرة القرطبي المعروف بالمنفتل

قرن الفضائل والفواضل

فشأى الأواخر والأوائل

سقطوا برفعة فضله

كالشمس في شرف المناقل

متقلد سيف العلا

والمكرمات له جمائل

وقد أثارت هذه الأبيات وغيرها حفيظة وغضب ابن بسام الشنتريني فعلق في آخر القصيدة قائلاً: «.... وأبعد الله المنفتل فيما نظم فيه وفصّل وقبحه وقبح ما أمّل»(١٧).

وكان من عظمته في دولة الحبوسيين بغرناطة، أن قيل فيه بعد أن شوهد في قرطبة مع سيده باديس بن حبوس حاكم غرناطة: «ولم أفرق بين الرئيس والمرؤوس وتشابهت المناكب والرؤوس». وقال عنه ابن السقاء الوزير القرطبي المعاصر: «إنه نسي اليهودية وكان منهمكاً في نظر الكتب، ونشد أشياء من علم العرب. وكان آخر أمره أن حجب صاحبه عن الناس، وسجنه بين الدن والكاس، ملحاً في أمره مبرماً لأسباب غدره..»(١٨).

ولم يرض بهذه المكانة الرفيعة، التي شغلها في دولة الحبوسيين بغرناطة، بل راح يتآمر على سيده، الذي جعله أهم شخصية بعده، وذلك بالإجهاز على السلطان الزيري كله واستبداله بسلطان بني صمادح أصحاب المرية، واتخذ الترتيبات المناسبة لتحقيق انتصارهم، واحتلال مدينة غرناطة، وقد أفلح هذا اليهودي في إخراج القواد الأقوياء من غرناطة بحجة حمايتها من غزو ابن عباد صاحب إشبيلية، وأثار طمعهم بالأموال المخصصة لهم، بينما أغفل الحصون الشرقية المجاورة لدولة المرية، وأغفل تزويدها بالعدد والمؤن الضرورية، حتى خلا الكثير منها، وفكر القائمون عليها أنه لم يعد هناك دولة ولا سلطان. وحينما وجد الفرصة مناسبة، أشار على ابن صمادح بالتقدم، واستطاع احتلال وادي آش بسهولة، وتقدم نحو غرناطة، حيث تظاهر اليهود بالخوف كالآخرين، وانتقل من المدينة إلى العقبة. وفي الليلة المتفق عليها لفتح الأبواب لابن صمادح، أفشى أحد العبيد الضالعين في المؤامرة بالسر، وصاح بذلك بين الناس محذراً ومشيراً إلى مدبرها، فقامت العامة على اليهودي وهاجموه في محبسه وأحرقوه بالفحم، ولوحق اليهود على أثر ذلك، فقتل منهم أكثر من أربعة آلاف شخص في غرناطة(١٩).

وكان هذا اليهودي معداً إعداداً تاماً للقيام بأعباء الوزارة، حيث كان يمتلك جميع المؤهلات العلمية والتطبيقية، إلا أنه كان يحتاج إلى لين الجانب والتواضع، وراح يظهر بمظهر أميره باديس ممتطياً جواده إلى جانبه، وشارته في الملبس كشارته، حتى أن الناظر إليهما، لا يفرق بين الأمير ووزيره، بل كان هو المسيطر المتسلط على باديس(٢٠).

إلى جانب آل النغريلة، فقد اشتهر في غرناطة خلال عصر الطوائف أيضاً، اليهودي صموئيل هاليفي، وكان يدعى عبادة بن نغدلة، الذي ولد في قرطبة، ودرس التلمود على الربان هانوخ الرئيس الروحي للجالية اليهودية. ثم انصرف بجد ونجاح إلى دراسة الأدب العربي، وتثقف بأكثر العلوم، التي كانت معروفة إلى ذلك العهد، ثم اشتغل في مجال التجارة مدة طويلة في قرطبة ومالقة، ثم ضحك له الحظ، وانتشلته بعض الفرص السعيدة من هذا المركز الوضيع، ذلك أن حانوته كان قريباً من قصر أبي القاسم بن العريف وزير جيوش ملك غرناطة. وكان على

رجال القصر في الغالب، أن يراسلوا مولاهم فيما يعرض لهم من الشؤون. ولكونهم جهلاء بفن الكتابة لجأوا إلى صموئيل هذا، فكتب لهم ما تمس إليه الحاجة من تلك الرسائل، التي أثارت إعجاب الوزير، إذ ألفاها مكتوبة بأبلغ وأجزل أسلوب عربي، مما حمل الوزير عند عودته إلى ملقة، أن يسأل عن المنشئ لتلك الرسائل، ولما علم أن اليهودي استقدمه إليه وخاطبه بقوله: «وليس خليقاً بك أن تبقى صاحب حانوت، وما أجدرك أن تكون كوكباً يسطع لألاؤه في بلاط الملك، فإذا توفرت على ذلك رغبتك فإني متخذك لي ناموساً خاصاً» فتقبل منه هذه المنة شاكراً، وصحبه الوزير معه عند عودته إلى غرناطة، وازداد إعجابه به، عندما أخذ يبادله الحديث في شؤون الدولة، إذ وقف منه على رجل نادر الذكاء بين الرجال، بعيد النظر، سديد الرأي حتى قال بعض المؤرخين اليهود: «إن النصائح التي كان يسديها صموئيل كانت بمثابة أقوال صادرة عن إنسان ملهم يستوحي كلام الله ويستفسره» ولهذا كان الوزير يأخذ بها، ويخصه بجميل الثناء. ولما أحس الوزير بدنو الأجل في مرضه، الذي مات فيه، جاء الملك يعوده، وقد داخله حزن عميق على وزيره وخادمه الأمين، فانتهز الوزير هذه الفرصة وقال للملك: «ولم تكن النصائح والآراء الرشيدة التي كنت أبديها لك أيها الملك في العهد الأخير صادرة مني، بل كانت وحياً أتلقاه من صموئيل ذلك اليهودي، الذي آثرت أن يكون ناموسي الخاص، فاقصر نظرك عليه واتخذه أباً لك ووزيراً، أخذ الله بيدك وشد به أزرك».

وقد عمل الملك الغرناطي حبوس بهذه النصيحة، وأحل صموئيل بالقصر محل وزيره الراحل، وصار ناموس الملك ومستشاره، وهي الفرصة الأولى، التي توصل فيها اليهود إلى الوزارة في الأندلس، علماً أن بعض اليهود قد تمتع على الأرجح بشيء من الاعتبار والحظوة لدى بعض حكام الأندلس العرب المسلمين، الذين كانوا يستعملونهم غالباً على وزارة المالية، ولكن التسامح العربي في الأندلس، لم يبلغ إلى حد أن يتولى يهودي رئيس الوزراء، وإذا جاز هذا الأمر في جهات أخرى، فلم يكن ليجوز في غرناطة، تلك المدينة التي كثر عدد اليهود المقيمين فيها. ولما كانت في أيديهم معظم الثروة، فقد كانوا يتدخلون غالباً في شؤون الدولة.

ويصح أن يفسر سمو صموئيل إلى هذا المنصب بأسلوب آخر، فإنه لم يكن من السهل على ملك غرناطة، أن يعثر على من يقلده منصب الوزير الأول، إذ من المحقق أنه لم يكن باستطاعته أن يسند هذا المنصب الخطير، لا إلى رجل من المغاربة ولا إلى آخر من العرب من غير المغاربة، لأنه لم يكن يثق بأي من الطرفين، ولم يبق أمامه سوى اليهود(٢١).

وهكذا اتخذ من هذا الرجل وزيراً له. فعلى الرغم من أنه بقي على دينه، كان لا ينحرف وهو يكتب لأساطين المسلمين عن أن يستعمل في رسائله ومكاتباته الصيغ والنصوص والعبارات الدينية المألوفة عند كتّاب المسلمين. فلا بد أن يكون هذا الرجل قد أحرز من البلاغة العربية كنزاً ثميناً، كان ينفق منه كلما أراد الكتابة، ولهذا لم يشعر الملك وقد رفعه إلى منصة رئاسة الوزارة بخجل، والعرب أنفسهم قد ارتاحوا إلى هذا الاختيار ووافقوا عليه، إما لأنهم كانوا يشعرون أنه

نتاج الثقافة العربية الواحدة، أو أنهم أرادوا تأييد إرادة الحاكم على المستوى الظاهري على الأقل.

وقد استغل مكانته، فقام يسهر على المصالح اليهودية، ويعنى بالشبيبة اليهودية عناية أبوية، ويتفقد فقراء الحال منهم، ويمدهم بما يسد حاجتهم على كل صعيد. وكان في خدمته كتاب ينسخون (المشنا والتلمود) فكان يوزع نسخها جوائز على التلاميذ، الذين لا يستطيعون شراءها. ولم تكن مكارمه وخيراته وإحساناته، لتقتصر على أتباع دينه في إسبانيا فحسب، بل كانت تتعداهم إلى أمثالهم في إفريقية وصقلية والمشرق. وقد أصبح اليهود في كل صقع وبلد، يعتمدون عليه كمصدر للمعونات والرزق. لذلك فقد قام يهود غرناطة بمنحه لقب (ناغد) أي زعيم أو أمير يهود غرناطة(٢٢).

وفي غرناطة أيضاً، عرف بعض الإداريين اليهود الآخرين. وكانت مناصبهم الإدارية التي شغلوها من أهم المناصب لحساسيتها ودقتها وتأثيرها على الصعيد الاقتصادي فقد استلم أبو الربيع اليهودي منصب الخازن في دولة غرناطة. والخازن كما هو معروف في ذلك العهد، كان يقوم بوظيفة الإشراف على عدد من المهمات الكبيرة، فقد كان مسؤولاً على خزانة الأموال العامة، من حيث جمعها وتوزيعها في شتى الوجوه والسبل، كما كان مسؤولاً عن إدارة المستودعات العامة لمواد التموين المختلفة من غذاء وكساء ومرافق. وقد كان أبو الربيع اليهودي سالف الذكر مسؤولاً عن خزانة الأموال في دويلة غرناطة في عهد حاكمها باديس بن حبوس، الذي اشتهر كأعظم حاكم أندلسي ومغربي اعتمد على اليهود في مجال الإدارة العامة(٢٣).

ولم تكن دويلة غرناطة وحدها، التي اعتمدت على اليهود في الميدان الإداري، كما لم يكن الغرناطيون وحدهم، الذين انفردوا بإيصال اليهود إلى مرتبة الوزارة، بل حدث الشيء نفسه في بلاط بني هود بولاية سرقسطة (الثغر الأعلى) في شمال شرق الأندلس. حيث وصل إلى وزارتهم اليهودي أبو الفضل بن حسداي، الذي تحول من اليهودية إلى الإسلام، وكان من مشاهير الأدباء في الأندلس(٢٤).

وفي عصر دول الطوائف أيضاً، استخدم اليهود بكثرة لجمع الضرائب والمكوس من العرب وأهل الذمة وقد نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً(٢٥).

وقد استخدمهم الجانب الإسباني في المجال الإداري، وبخاصة في الإدارة المالية ففي سنة ٤٧٥هـ = ١٠٨٢م قام ألفونسو السادس بإرسال وفد إلى حاكم إشبيلية المعتمد بن عباد، يطالبه بدفع الجزية المترتبة عليه، وكان رئيس هذا الوفد يدعى ابن شاليب اليهودي، الذي رفض عيار الذهب المقدم كجزية إلى ألفونسو، وهدد الإشبيليين بكل وقاحة وجرأة، بأن الجزية ستؤخذ في العام القادم على هيئة أراض، مما أثار حنق وغضب المعتمد بن عباد، الذي شعر بالذل والمهانة من خلال هذا التهديد، الذي يعني في أبسط أشكاله، أنه لا قيمة لحكمه ولا لشخصه ولا لوجوده، فأمر بسجن الوفد وصلب ابن شاليب اليهودي منكساً(٢٦) وهذا يشير إلى حقيقة هامة، تتجلى في أن اليهود

في الأندلس في ذلك العصر، كانوا يشعرون أنه لا قيمة للعرب، بعد أن تفرقوا على هيئة دول مدن هزيلة، ولن يكون بمقدورهم عمل شيء، مهما كانت الأذية بالغة الضرر، الأمر الذي شجع ابن شاليب على القيام بتصرفه سابق الذكر. ويشير من ناحية أخرى إلى أن اليهود في الأندلس، كانوا دوماً مع الجانب القوي والمنتصر. ويبدو أن الإسبان في عهد الطوائف، حاولوا استقطاب اليهود في صراعهم ضد العرب في الأندلس، فسمحوا لهم بإقامة أشياء لم يكن مسموحاً بها في العصور الماضية، الأمر الذي كان يستهوي قلوب اليهود، ويجعلهم يفضلونه، من منطلق أن كفة الرجحان كانت تميل لصالح الإسبان. فقد قام الإسبان في مدينة طليطلة باعتماد صموئيل اللاوي وزيراً في بلاطهم خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي وعلى عادة اليهود فقد استغل منصبه هذا، فبنى كنيساً لليهود على نفقته الخاصة. وأطلق عليه تسمية كنيس (الانتقال) وظل قائماً حتى قام كاثوليك إسبانيا بطرد اليهود، وحولوا هذا الكنيس إلى كنيسة باسم (سان بنيتو)(٢٧).

وفي المغرب العربي وجد اليهود تشجيعاً قوياً من قبل الحكام، حتى ما قبل نهاية القرن الخامس الهجري بسنين قليلة، ذلك لأن عرب المغرب كانوا كإخوانهم في الأندلس خلال عهود القوة العربية الواحدة، ولاسيما خلال عصر الإمارة والخلافة الأموية، كانوا يعاملون اليهود معاملة طيبة، وذلك انطلاقاً من نظرتهم الإنسانية الرائعة، هذه النظرة التي لا تفرق بين الناس، طالما هم ملتزمون بمسيرة الحكم العامة.

ففي عصر الفاطميين في المغرب، تمتع اليهود بحرية واسعة في ممارستهم لأعمالهم العادية والضرورية، الأمر الذي مكنهم من شغل مناصب إدارية عالية في الدولة. نضرب على ذلك مثلاً يعقوب بن كلس اليهودي، الذي دخل في خدمة المعتز الفاطمي سنة ٣٥٧هـ = ٩٦٨م، واعتمد عليه في أمور خطيرة جداً، منها أنه قام بتشجيعه على الهجوم على مصر(٢٨).

وكان المعز الفاطمي يعتمد اعتماداً كبيراً على آراء الحاخام اليهودي بلطيل بن شفاطيا، الذي كان يقوم بتقديم معلومات فلكية وتنجيمية للمعز، حينما كانت قواته تحاصر منطقة أوريا Oria في جنوب إيطاليا، فبشره بالخير بخصوص نجاح هذه القوات في أعمالها الحربية فاعتمده مستشاراً خاصاً به، ووزيراً لمملكته في المغرب عند إقامته بمدينة القيروان، وكذلك بعد انتقاله إلى مصر(٢٩).

وفي عصر دولة بني مرين في المغرب الأقصى، اشتهر كثيرون من اليهود، الذين كانوا يعيشون في مدينة فاس. وقد تمكنوا من الوصول إلى البلاط المريني، ولاسيما في فترة حكم يوسف المريني، فكانوا يرافقونه في حلّه وترحاله ويقومون بخدمته، وذلك منذ طفولته، وكانوا يتولون إدارة شؤون بيته، ويقضون أموره الخاصة به، ويجالسونه في خلواته، وينادمونه في ساعات أنسه ولهوه. وبشكل عام فقد عظم شأن اليهود عند سلاطين بني مرين، فاستخدموهم في أعمال كثيرة، من أمثال خليفة بن وقاصة وأخوه إبراهيم، وصهره موسى بن السبتي، وابن عمه خليفة الأصغر وغيرهم. وقد استمروا على ذلك

فترة من الزمن، إلى أن قام السلطان يوسف المريني سنة ٧١١هـ = ١٣٠٢م بقتل هؤلاء جميعاً ما عدا خليفة الأصغر، الذي قتله بعد مدة(٣٠).

ولما مات الخليفة يوسف بن يعقوب ابن عبد الحق المريني، خلفه ابنه أبو الربيع سليمان بن يوسف بن يعقوب، فرفع من شأن الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين، كما كان في أيام والده. وكان بنو وقاصة اليهود، يرون أن سبب نكبتهم أيام السلطان يوسف، كانت بسعاية أبي محمد بن أبي مدين، وكان خليفة الأصغر اليهودي منهم، قد أفلت من الموت، وتمكن من استلام بعض أعمال السلطان أبي الربيع، فجعل محور عمله التآمر على أبي مدين والانتقام منه. فبلغ السلطان بأن أبا مدين قام بإفشاء بعض خصوصيات السلطان، ولاسيما موعد خلوته مع نساء حاشيته، فأمر بقتل أبي مدين. ولم تمض فترة وجيزة حتى اكتشف أمره، فجاء باليهودي خليفة بن وقاصة الأصغر وحاشيته فقتلوا جميعاً(٣١).

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد عاد السلاطين المرينيون فيما بعد إلى استخدام اليهود في الإدارة، وفي أماكن حساسة للغاية، كما فعل السلطان عبد الحق المريني، عندما قتل وزيره يحيى بن يحيى الوطاسي وحاشيته، وعين مكانه رجلين من اليهود، قاما بمعاملة أهل فاس معاملة قاسية، مما أثار حفيظة أهله على السلطان فقاموا بقتله سنة ٨٦٩هـ = ١٤٦٥م(٣٢).

وهكذا فإن اليهود، الذين عملوا في الميدان الإداري في المغرب والأندلس، لم يلتزموا بحدود الخطة التي رسمت لهم من قبل حكامهم، فراحوا يسعون لتحقيق مصالحهم ومصالح الجالية اليهودية في كل من المغرب، والأندلس، وأدى بهم الأمر إلى التطاول على العرب من خلال قوة مناصبهم الإدارية.

وشغل اليهود في الحياة السياسية في المغرب والأندلس دوراً هاماً للغاية، الأمر الذي يجعلنا نقف عنده وقفة متأنية ودقيقة، لأنه مؤشر ثابت في عمق الحياة اليهودية في كل زمان ومكان عاش فيه اليهود على الأرض.

قام العرب الفاتحون في الأندلس باستخدام اليهود في حاميات المدن، التي كان يفتحها الجيش العربي، حتى يتمكنوا من المحافظة على قوة الجيش كاملة. وكان اليهود يريدون من خلال وقوفهم في الصف العربي، نسف الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية، وكذلك الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية والممالك الفرنجية بأسرها، وبشكل خاص قهر الإسبان، والتخلص من الظلم الإسباني، الذي عكر صفو حياتهم العامة(٣٣).

ويؤكد هذه الحقيقة أيضاً لويس برتراند عضو الأكاديمية الفرنسية في كتابه (تاريخ إسبانيا) بقوله: «**إن موقف اليهود عبر القرون لم يتبدل، إنهم حلفاء الإفريقيين ضد الإسبان، وحلفاء الإسلام ضد المسيحيين، وحلفاء المسيحيين ضد المسلمين عندما تبدل نجمهم. إنهم يفرقون بين أعدائهم ليسيطروا عليهم**»(٣٤).

ولم يقتصر دورهم على التفريق بين العدو والصديق، بل قاموا بالتفريق بين الصديق وصديقه، وبين الأخ وأخيه. مثال ذلك، أنه كان عند عبد الرحمن بن حبيب والي إفريقية

رجل يهودي، هو الذي شجعه على طرد عبدالرحمن الداخل من المغرب، حينما أخبر عبدالرحمن بن حبيب، بأن الداخل ينوي إقامة دولة أموية في المغرب(٣٥).

ويبدو أن اليهود منذ قديم الزمان، تعودوا على استخدام طريقة شائنة ومخزية في القضاء على الخصوم السياسيين، تتجلى في استخدام النساء كأداة للتنفيذ. ففي عصر الإمارة الأموية بالأندلس، وخلال فترة حكم الأمير عبد الله بن محمد الأموي، اشتهر أمر الثائر سعيد بن جودي، الذي التجأ إلى عمر بن حفصون زعيم الثائرين في هذه الفترة على الأمويين، وبقي عنده فترة من الزمن، ولم يتمكن الأمير الأموي من التخلص منه، إلا من خلال التآمر مع عشيقة له من اليهوديات، حيث قتل في دارها(٣٦).

مع ذلك فقد اعتمد العرب على اليهود في مسائل بالغة الخطورة والحساسية. فقد اعتمد عليهم في تحضير وإعداد الأطعمة. فكان للمنصور محمد بن أبي عامر رجل من اليهود لا عمل له سوى البحث عن توضع النحل في الكهوف والشعاب الجبلية في الأندلس، وذلك من أجل استخراج العسل الخالص، الذي يتألف كما هو معروف من رحيق الأزهار المتنوعة في بيئة الأندلس(٣٧).

وفي عصر الازدهار العربي في الأندلس، الذي صادف عصر الخلافة الأموية فيها، قام أشهر خليفة أندلسي، وهو عبد الرحمن الناصر لدين الله بإرسال سفير من اليهود، هو حسداي بن شبروط إلى جليقية لعقد صلح مع رذمير الثاني في سنة ٣٢٩هـ = ٩٤١م وإطلاق سراح محمد ابن هاشم التجيبي، القائد الذي أسر في وقعة الخندق سنة ٣٢٧هـ = ٩٣٩م. وقد نجحت السفارة في إطلاق سراح التجيبي، وعاد مع السفير اليهودي حسداي بن شبروط(٣٨).

واستُخدم اليهود في مدينة قرطبة في بعض الأحداث السياسية، التي كان وقعها كبيراً في نفوس الأندلسيين، من ذلك استخدام أحد اليهود، الذي كانت فيه بعض نواحي شبه بشخص الخليفة هشام المؤيد الأموي، على أنه هو الخليفة، فقد أمر محمد بن هشام بن عبد الجبار، أن يشهد بعض من حضر وفاته من أصحابه، على أنه هشام المؤيد الأموي، وأحضر القاضي ابن ذكوان والفقهاء ومجموعة من عامة الناس، فصلوا عليه وقاموا بتقديم العزاء لأقربائه كما هي العادة(٣٩).

وفي بعض بلاطات حكام الأندلس، اعتمد اليهود كمنجمين، يتوقعون ويستنبطون بطرق سحرية عجيبة، ما سيكون عليه الأمر في المستقبل. يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الحكام رأوا اليهود في أحلام نومهم، فاستبشروا ببعض الأمور المفجعة، كما جرى مع أحد وزراء المنصور محمد بن أبي عامر خلال الربع الأخير من القرن الرابع الهجري، حينما رأى في أحلام نومه يهودياً يمشي في أزقة مدينة الزاهرة(٤٠)، وهو يحمل خرجه في عنقه وينادي بعبارة (خرويش) فسأل المفسر عن ذلك، فأخبره باقتراب خراب الزاهرة(٤١).

أما في عصر الطوائف بالأندلس، فقد كثرت فيه مشاكل اليهود، وأخذت شكلاً أكثر خطورة وتأثيراً في الحياة السياسية العامة، مستغلين بذلك حالة الانقسام، التي وقعت في صفوف العرب في الأندلس، فراحوا يتدخلون في كل أمر يستطيعون من خلاله إثارة نار الفتنة والخلاف بين حكام دول الطوائف،

وبينهم وبين بعض رجال إدارتهم : فعلى الرغم من الصداقة، التي بدأت بين المعتمد بن عباد، وبين الوزير ابن عمار في إشبيلية منذ أن كانا صغيرين، فقد تمكن الواشون من الوقيعة بينهما، وكانوا من اليهود الذين حصلوا على نسخة من قصيدة لابن عمار يهجو فيها المعتمد، وأرسلوها إلى حاضرة المعتمد، فتوترت الأمور بين الرجلين، حتى غدا الإصلاح بينهما ضرباً من المحال(٤٢).

وقام بعض اليهود بالتدخل في الصراع بين زعماء إشبيلية وزعماء طليطلة، حينما هاجم المعتمد بن عباد مدينة قرطبة سنة ٤٦١هـ = ١٠٦٩م، وتمكن من السيطرة عليها وجعل فيها ابنه سراج الدولة عباد بن محمد، ومعه القائد العسكري ابن مرتين، وفي سنة ٤٦٧هـ = ١٠٧٥م، هاجم حاكم طليطلة ابن ذي النون قرطبة بواسطة قائده حكم بن عكاشة الذي تمكن من الدخول إلى المدينة وقتل ابن عباد، فأجابهما إلى ذلك، وفر ابن عكاشة دون مقاومة، ولما وصل إلى القنطرة(٤٣) في مدينة قرطبة، قتله رجل يهودي من سكان قرطبة(٤٤).

ولما بدأت كفة الإسبان ترجح في الأندلس، تحول اليهود عن العرب، بعد أن وجدوا ذلك ضرورياً جداً لتحقيق مصالحهم العامة، وعملوا عند الإسبان في الكتابة والوزارة وشتى أنواع وفروع الخدمة العامة. وقد أشار إلى ذلك بوضوح حاكم قشتالة وليون قبل معركة الزلاقة بوقت قصير بقوله : «الجمعة لكم والسبت لليهود، وهم وزراؤنا وكتابنا، وأكثر خدم العسكر منهم، فلا غنى بنا عنهم»(٤٥).

وحينما كانوا يظفرن بالعرب، أو تسمح الفرصة لهم بالتحكم فيهم، فإنهم كانوا يعاملونهم معاملة قاسية. فعلى سبيل المثال،تمكن الإسبان من السيطرة على بلنسية سنة ٤٨٧هـ = ١٠٩٢م، ووضعوا على رأس إدارتها رجل من اليهود ذكر ابن علقمة في رواية له ينقلها ابن عذاري في كتابه (البيان المغرب) يقول «وبلغ اليهودي لعنه الله من المسلمين مبلغ الغاية في العذاب، وسلط لليهود على الإسلام، فبلغوا النهاية في النكال والنكاية، ومنهم الأمناء الموكلون، والمتصرفون وأصحاب الرسوم، وخدام البر والبحر. وجلس اليهودي للقبض بباب المدينة من الغرب بالعصا والسوط»(٤٦).

أما في الفترة التي جاءت بعد انتهاء عصر الطوائف، والتي دامت حتى سنة ٦٦٨هـ = ١٢٧٠م، فإن وضع اليهود في المغرب والأندلس تحول إلى شكل آخر غير الذي كان في العصور السابقة. فقد ضيق المرابطون على اليهود بحجة أنهم أقاموا بأعداد كبيرة في منطقتين، هما سجلماسة وأغمات الواقعتين في جنوب المغرب الأقصى كبوابتين لتجارة الذهب عبر الصحراء مع بلاد الأندلس وما يليها من البلدان الأوروبية الأخرى، ومع بلدان إفريقية السوداء. فقام يوسف ابن تاشفين بممارسة ضغط كبير على اليهود في مراكش عاصمة المرابطين القريبة من أغمات. وكانت أشد وسائل الضغط، تلك التي تمثلت بإجبارهم على اعتناق الإسلام بالقوة، لكنهم قاوموا ذلك بوسائل مختلفة، كمحاولتهم دفع مبالغ مالية طائلة في سبيل إعفائهم من أمر اعتناق الإسلام، وإعطائهم الحرية والخيار في هذه المسألة الحساسة في حياتهم(٤٧).

وخلال دخول يوسف بن تاشفين إلى الأندلس في المرة الرابعة سنة ٤٩٥هـ = ١١٠٢م، توجه إلى اليسانة، وكانت مركز التعامل الرئيس بالذهب، وبعد مفاوضات مع يهود هذه البلدة، توصل الفقيه ابن حمدين إلى اتفاق معهم، يدفعون بموجبه مبلغاً مالياً محترماً، مقابل أن تترك لهم الحرية بممارسة طقوسهم الدينية كاملة(٤٨).

وفي عصر الموحدين، الذي استمر لفترة طويلة إلى حدٍ ما (٤٩) بقي أمر عدم الاعتماد على اليهود قائماً، حتى أنه كان أشد مما كان عليه في عصر المرابطين، لأن الموحدين لم يختلفوا عن المرابطين في مسألة حشر العقيدة الدينية في قضايا الحكم. ففي زمن أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، فرض على اليهود أن يرتدوا لباساً خاصاً يميزهم عن غيرهم. وتكون هذا اللباس من قماش ذات لون كحلي، وأكمام مفرطة السعة، تصل إلى قريب من الأقدام، وبدلاً من العمائم أغطية على أشنع صورة كأنها البراديع، تبلغ إلى تحت الأذنين(٥٠).

وكانت نتيجة هذه السياسة بشكل عام سلبية، لأنها أثارت حقد اليهود على العرب المسلمين، فقد كانوا يتحينون الفرصة للانتقام، وقد أتيحت لهم فرصة في عصر الموحدين، كانت في غرناطة، حينما أعلن إبراهيم بن همشك عصيانه على الموحدين، لأنه كان يتطلع إلى السيطرة على غرناطة. وفي نهاية الأمر لجأ إلى المكر والخديعة، وتوجه إلى اليهود، وعقد معهم مؤامرة، يقومون بموجبها بمساعدته على دخول غرناطة، وإلقاء الحصار على قلعتها، التي كان المدافعون من الموحدين قد تجمعوا فيها.

وعلى أثر ذلك جرت معركة في مرج الرقاد بالقرب من غرناطة، انهزم فيها الموحدون وتكبدوا خسائر كبيرة في النفوس والأموال والسلاح. وكان ذلك سنة ٥٥٧هـ = ١١٦٢م(٥١).

ولما تقلصت رقعة السيطرة العربية في الأندلس، وانحصرت في ولاية غرناطة تحت حكم بني الأحمر وبني نصر، عادت المعاملة الطيبة إلى الظهور والتطبيق بشكل لم تعهده الأندلس إلا في زمن القوة، ولابد أن ذلك يعود إلى النضوج الذي اشتهر به النصريون على الصعيد السياسي والحضاري. فقد عدوا اليهود في بلادهم مواطنين، يمكن ضبطهم وتحويل أكثر أعمالهم إلى الصالح العربي العام (٥٢)ورغم هذه المعاملة الطيبة، التي عبرت عن رقي العرب وأهليتهم لقيادة غيرهم، فقد راح اليهود يحشرون أنفسهم في الأمور السياسية العامة للدولة الغرناطية فعندما توفي الحاكم الغرناطي الغني بالله ابن الأحمر سنة ٧٩٣هـ = ١٣٩١م، خلفه في الحكم ابنه أبو الحجاج يوسف بن الأحمر، فقام بأمره رجل اسمه (خالد) مولى أبيه وقبض على إخوته سعد ومحمد ونصر، فكان آخر العهد بهم، ولم يوقف لهم بعد على خبر. وبعد فترة وجيزة، سعى عنده في خالد هذا، واتهم على أنه يعد السم لقتله، ويبدو أن ذلك كان صحيحاً، لأن الطبيب يحيى بن الصائغ اليهودي طبيب الدار السلطانية قد داخله ذلك فقتل خالد ثم حبس الطبيب ابن الصائغ، وذبح فيما بعد في محبسه حتى الموت(٥٣).

وفي ميدان العلوم العامة أيضاً، شغل اليهود في الأندلس والمغرب مكانة خاصة، ذلك لأن الأندلس بخاصة، ازدانت

بالمؤسسات التعليمية في كافة الاختصاصات، وكان باستطاعة أي إنسان طلب المعرفة في الاختصاص الذي يتناسب مع ميله الشخصي، فاليهود موضوع هذا البحث، لم يقدموا عبر تاريخ الإنسانية الطويل مساهمات مؤثرة في تقدم الحضارة العام، وأكثر مدوناتهم مأخوذة عن الثقافات القديمة وعن النصوص، التي خلفها السومريون والكنعانيون والأكاديون والبابليون والآشوريون، وأخيراً الأندلسيون والمغاربة. ويؤكد ذلك الدكتور اليهودي اسرائيل ولفنغسون بقوله : «إن يهود بلاد العرب، لم يظهروا شيئاً من النبوغ والعبقرية مطلقاً : ولم يشتهر من بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقي الفكري»(٥٤).

ويؤكد هذه الحقيقة غوستاف لوبون بقوله : «لم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة، ولا أي شيء تقوم به حضارة. واليهود لم يأتوا قط بأية مساعدة مهما صغرت في إشاعة المعارف البشرية. واليهود لم يجاوزوا قط الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ»(٥٥).

وإذا كان اليهود قد برعوا في علم من العلوم خلال فترة هذا البحث، فالفضل في ذلك يعود إلى العرب، الذين انتقلوا بإسبانيا من عهود الظلام إلى عهود النور والتقدم. وما أنتجوه من ثقافة وما ترجموه من كتب إلى اللاتينية والعبرية، فقد حصل من جراء اهتمامهم بعلوم العرب، كمواطنين في دولتهم، كان عليهم اكتساب المعارف العربية لتحسين أوضاعهم العامة. وهذا ما حدث بالفعل على أرض الواقع، لأنهم كانوا أدرى من غيرهم في حقيقة هذه الأمور. وباختصار فإن المحصلة اليهودية العلمية، هي في النهاية محصلة عربية خالصة، ذلك لأن اليهود ما كان لهم أن يتعلموا علوم العرب، لولا دخولهم إلى الأندلس وبقاؤهم فيها لفترة طويلة.

كان في مقدمة العلوم التي برعوا فيها إلى حد ما، العلوم الطبية، التي عمت الأندلس عن طريق العرب، وكان اليهود يفضلونها على غيرها، لأنها أقرب مصدر لتوفير المال والجاه في زمن كان الأطباء فيه قليلين جداً. ومع ذلك فإن الأطباء العرب، الذين جمعوا بين ممارسة الطبابة والمداواة، وبين التأليف المبدع القائم على التجربة وبعض التقانات، التي كانت من أرقى ما عرفه العالم خلال العصور الوسطى.

ومن الأطباء اليهود، الذين اشتهروا خلال هذه الفترة، الطبيب حسداي بن شبروط، الذي عاصر الخليفة الناصر لدين الله الأموي المتوفى سنة ٣٥٠هـ = ٩٦٢م. واهتم هذا الطبيب بشكل خاص بتفسير عقاقير ديسقوريدس(٥٦).

وكذلك الطبيب مروان بن جناح، الذي كان أفضل من ابن شبروط بصناعة الطب، ذلك لأنه قام بتأليف حسن في الأدوية المفردة(٥٧) ومثلهما الطبيب اسحق بن قسطار في طليطلة(٥٨). ومناحيم بن الفوال في سرقسطة(٥٩) وحسداي بن يوسف السرقسطي، وابن بكلارش وغيرهم من الذين عملوا عند الإسبان، مثل إبراهيم بن الفخار، الذي اشتغل في طليطلة في عصر الموحدين، وإبراهيم بن زرزر الغرناطي، الذي التجأ إلى حاكم قشتالة في أواخر عمره(٦٠) ويوسف ابن وقار الطليطلي في قشتالة(٦١).

إلى جانب علم الطب، فقد أثرت الثقافة العربية الإسلامية في ظهور بعض اليهود في ميدان علم الفلك والرياضيات. ففي الفلك، اشتهر بعض تلامذة مسلمة المجريطي، مثل أحمد بن عبد الله الغافقي اليهودي المتوفى سنة ٤٢٧هـ = ١٠٣٥م. وقد وضع زيجاً مختصراً على مذهب السند هند سماه (مختصر الزيج) وكتب رسالة في الإسطرلاب والأسماء والواقعة عليه(٦٢).

أما في مجال الفلسفة، فقد تفوق اليهود فيه من خلال اهتمامهم الجاد بالفلسفة العربية، التي كان لها رجالها المعروفين بآرائهم الجدية وأفكارهم الواقعية التي تعتمد على الطريقة العقلانية، والفكر المبني على التسلسل المنطقي، الذي يجانب في معظمه الغيبيات والأوهام، التي لا قيمة لها في حياة البشر العامة.

كان من فلاسفة اليهود في الأندلس، سليمان بن جابيرول المتوفى سنة ١٠٥٨م في بلنسية، وهو يشبه سلفه ابن مرة، الذي أدخل إلى الغرب نظاماً باطنياً للكتابة، حيث تتخذ الكلمات معنى داخلياً غامضاً لا يفهمه إلا العارفون بالأسرار. وله من الكتب (ينبوع) وكتاب (إصلاح الأخلاق)(٦٣). ومنهم مناحيم بن الفوال، الذي تفوق على ابن جابيرول بوضع مؤلفات هامة منها : (كنز المقل) رتبه على المسألة والجواب، وضمّنه جملاً من قوانين المنطق وأصول الطبيعة(٦٤). ومنهم أيضاً يوسف بن صديق ديان اليهود (قاضي اليهود) المتوفى سنة ٥٤٣هـ = ١١٤٩م، الذي ألف كتاباً في المنطق وآخر في الفلسفة الدينية سماه (الكون الأصغر) وكلاهما باللغة العربية، وكان ابن صديق مطلعاً على كتابات أفلاطون وأرسطو ورسائل إخوان الصفا(٦٥). وبشكل عام فالفلسفة اليهودية في الأندلس، هي تلميذة الفلسفة العربية، ولاسيما فلسفة ابن رشد، التي كانت دعامة الفكر الفلسفي اليهودي حتى عصر النهضة(٦٦).

يضاف إلى اهتمام اليهود في العلوم، اهتمامهم بالترجمة، التي بدأت في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي. كان في مقدمة من اهتم بالترجمة ابن ابراهيم بن الطليطلي المتوفى سنة ١١٦٧م، الذي نقل كتباً ألفها اليهود باللغة العربية، ومنهم يهوذا ابن شاول بن تيون المتوفى سنة ١١٩٠م، الذي قام بنقل كتاب (إصلاح الأخلاق) لابن جابيرول، وغيرهم كثيرون(٦٧).

ومن اللافت للانتباه في هذا المضمار، أن اليهود الذين عملوا في الترجمة، استهوتهم ترجمة أعمال العرب أنفسهم في جمال علوم اللغة العربية، التي كانت أداة الفكر في ذلك العصر.

أما في حقل التجارة، فقد كان الأمر يختلف اختلافاً جذرياً، حيث برز نشاط يهود الأندلس بشكل واضح. فقد كانت لهم في كل مدينة أو بلدة حوانيتهم الخاصة، التي كانت مصدر أرباح كبيرة بالنسبة لهم. لكن اللافت للانتباه، أنهم تفوقوا على جميع فئات السكان في الأندلس والمغرب في التجارة العامة، وبشكل خاص في تجارة العبيد، التي كانت من التجارات المزدهرة في ذلك الوقت في عدد من البلدان في الشرق والغرب، ومنها الأندلس التي شغلت مكانة مرموقة على هذا الصعيد فقد كان العبيد الصقالبة، الذين يشترون للخدمة العامة في الجيش والقصور

وغير ذلك، يجلبون من يوغوسلافية وبلغاريا وصقلية وسردينيا وغيرها، وكان اليهود هم الذين يقومون بهذه المهمة. وقد ذكر أنهم كانوا يخصونهم في معامل خاصة أقيمت لهذه الغاية، كمعمل فردون في فرنسا، وغالباً ما كانوا يأتون بهم وهم صغار(٦٨).

ولعل أهم الأدلة على ممارسة يهود الأندلس لهذه التجارة الرابحة، أنهم كانوا يذهبون إلى مواقع حدوث المعارك، وينتظرون بترقب نتائج المعارك بين العرب والإسبان، حتى يشتروا أسرى الطرف المهزوم بأبخس الأثمان وأقلها، وبعد ذلك يقومون بعرض هؤلاء الأسرى على جهتهم الأصلية. وحينما كانت هذه الجهة تقرر شراء أسراها، كانوا يفرضون الثمن الذي يريدونه دون شفقة أو رحمة(٦٩).

ووصل اليهود في تجارتهم إلى العديد من المناطق الأوروبية، مثال ذلك التاجر الرحالة إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي الإسرائيلي، الذي تركزت أعماله في أوروبا على الرقيق وبعض البضائع الأخرى. فوصل في تجارته إلى فرنسا وألمانيا وهولندا وبولندا وبلغاريا وتشيكو سلوفاكيا وغيرها(٧٠).

ولم يتورع يهود الأندلس والمغرب عن استخدام أية وسيلة، كانوا يأملون من ورائها تحقيق منفعة ما أو ربح معين، لأن التجارب والأيام علمتنا أن اليهود لا يأبهون إلا بمصالحهم الخاصة، حتى ولو أنها جاءت على حساب غيرهم من فقراء الناس. من هذه الوسائل القبيحة، أنهم كانوا يرهنون الأسرى مقابل مبلغ مالي معين إلى أمد معين، يجعلهم أحراراً في التصرف بالأسرى، إذا لم يسترجعوا المال المودع عند أصحاب الرهائن. وكانوا إضافة إلى ذلك، يقومون بإقراض أموال معينة إلى آجال محددة مقابل فوائد مختلفة(٧١) **وتدل على هذا الواقع المخزي الوثائق الكثيرة، التي لا تعد ولا تحصى في مدينة طليطلة وضواحيها، حيث شكل اليهود مجموعة كبيرة من المرابين النشيطين، فمن يذهب حتى اليوم إلى هناك، يقف على شواهد ماثلة، تدل بوضوح على ما كان لهم من أهمية بالغة في مجتمع طليطلة**(٧٢).

إضافة إلى كل ذلك، فقد كان اليهود في قشتالة وغيرها من أماكن السيطرة الإسبانية، ينعمون باحترام كبير، لخبرتهم المالية والتجارية، ويظهر ذلك جلياً من خلال استخدام الإسبان لهم في مسألة تخمين وتقدير أثمان وقيم الأراضي، التي كانت تعرض للبيع. فقد كانت تشكل لجنة تخمينية خبيرة من أربعة أشخاص، اثنان من الإسبان، واثنان من اليهود، يقومون بتقدير قيمة الأرض، ويتقاضون على ذلك أجراً معيناً أو نسبة ما، لا يعرف مقدارها على وجه التحديد(٧٣).

وفي الختام نقول، إن كل ما تقدم من معلومات وأخبار عن حياة اليهود في المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى، لا يشكل إلا جزءاً يسيراً من تلك الأعمال المتعددة، التي قاموا بها تحت المظلة العربية الإسلامية، التي وفرت لهم كل أسباب الحياة والحرية. ورغم ذلك فقد ضربوا بكل هذا عرض الحائط، فلم يتأخروا عن إنزال الضرر بالعرب، في كل مناسبة ساعدتهم فيها الظروف منذ بداية عهد العرب في الأندلس، مثال ذلك أن دخول العرب إلى شمال إفريقية، هو الذي جدد آمال

اليهود في استعادة مكانتهم المنهارة، عن طريق تحريض العرب للدخول إلى أوروبا، التي كانت مركز ثقل للمسيحية وكان هدف اليهود الاستراتيجي من وراء ذلك، هو إطالة أمد الصراع بين المسيحية، التي كان اليهود يضمرون لها أقبح النيات، وبين الإسلام الذي أدى ظهوره وانتشاره في المشرق العربي إلى تقليص نفوذهم على كل الصعد، فيخرج الطرفان من النزاع منهوكي القوى، فينقض عليهما اليهود بسهولة، ويقررون ما يرونه مناسباً لمستقبلهم العام.

هذه هي صورة اليهود، التي لم تتغير طوال حكم العرب في الأندلس، ولا نظن أنها ستتغير في مستقبل الأيام. فقد كان اليهود في الأندلس والمغرب وسيظلون إلى الأبد مجموعة بشرية، لا تعرف الوفاء والأمان ولا تلتزم بالعهود والمواثيق.

هذا ما يجب أن ندرسه نحن العرب بعناية فائقة، لأن أخطر ما يواجهنا في الحاضر والمستقبل، أمر وجود اليهود قريبين منا: فقد تمكنوا أن يستغلوا دولة العرب القوية في الأندلس لصالحهم، في وقت كان العرب سادة العالم، فكيف سيكون الأمر في هذا الزمن، والعرب يعانون من داء التدابر والضعف في كل الميادين.

الهوامش

١ - فرحات، يوسف. غرناطة في ظل بني الأحمر. ـ ط١. ـ بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣م، ص ٩٧. إمبراطورية الخزر وميراثها. مكتب دراسات فتح، ١٩٨٠، ص ٢٢.

٢ - فروخ، عمر. العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط. ـ ط٢. ـ بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨١م، ص١٧٩.

٣ - فروخ، عمر. المرجع السابق ص٧٧ - ٧٨.

٤ -توينبي، آرنولد. مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل. ـ ط١. ـ القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤م، ص٣١٩ - ٣٢٠.

٥ - فروخ، عمر. تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية. ـ ط٤. ـ بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩م، ص١٥٤.

٦ - محمد بن عبد المنعم، الحميري. الروض المعطار، تحقيق ليفي بروفنسال. ـ القاهرة: لجنة التأليف، ١٩٣٧م، ص٢٣.

٧ - محمد بن محمد، الإدريسي. صفة المغرب، تحقيق دوزي ودي خويه. ـ ليدن: بريل، ١٩٦٨م، ص٢٠٥.

٨ - مؤلف مجهول. الحلل الموشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة. ـ الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ١٩٧٩م، ص٨٠.

٩ - أرسلان، شكيب. الحلل السندسية. ـ ط١. ـ فاس: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٦م، ص٣٩٥. الحلل الموشية في الأخبار الأندلسية، مرجع سابق، ص٥٧.

١٠ - فروخ، عمر. العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، مرجع سابق، ص١٨٦.

١١ - بروفنسال، ليفي. الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد سالم وصلاح حلمي. ـ القاهرة: مطبعة النهضة، ١٩٥٦م، ص٦٤. ابن القرطبي، عبد الله بن محمد. تاريخ علماء الأندلس. ـ القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م، ١:١٢٧.

١٢ - دنلوب، د. م. تاريخ يهود الخزر، ترجمة سهيل

زكار . ـ ط٢ . ـ دمشق : دار حسان، ١٩٩٠م، ص١٧٩.

١٣ – أحمد، علي . تاريخ المغرب العربي الإسلامي . ـ دمشق : جامعة دمشق، ١٩٩٢م، ص٣٩.

١٤ – ابن أبي زرع . الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص٨٥.

١٥ – ابن حوقل، محمد الموصلي . صورة الأرض . ـ ط٢ . ـ ليدن : ١٩٣٨م، ص٧٠. وانظر أيضاً ج. ف. ب. هويكنز، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، ترجمة أمين توفيق الطيبي . ـ تونس : الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠م، ٦٩.

١٦ – صاعد الأندلسي . طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلوان . ـ بيروت : دار الطليعة، ١٩٨٥م، ص٢٠٣ – ٢٠٤، آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص٤٩٨.

١٧ – الشنتريني، ابن بسام . الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . ـ القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٢م، ٢:١:٦٦٢ – ٢٦٧.

١٨ – ابن بسام . المصدر السابق، ص٢٧٠.

١٩ – الأمير عبد الله . مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان، تحقيق ليفي بروفنسال . ـ القاهرة : دار المعارف، ١٩٥٥م، ص٤٨ – ٥٥. ابن بسام، مصدر سابق، ص٢٧١ – ٢٧٤. ابن عذاري المراكشي. البيان المغرب، اعتنى بنشره ليفي بروفنسال، باريس، ١٩٣٠م، ٢٣١:٣.

٢٠ – لسان الدين ابن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان . ـ القاهرة : مكتبة الخانجي، ١٩٥٥م، ٤٣٧:١. وانظر أيضاً للمؤلف نفسه تاريخ إسبانيا الإسلامية أو أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال . ـ ط٢ . ـ بيروت : دار المكشوف، ١٩٥٦م، ص٢٣٠ – ٢٣١.

٢١ – ابن بسام، الذخيرة، مرجع سابق، ١٢٢:١.

٢٢ – دوزي . ملوك الطوائف، ترجمة كامل الكيالي . ـ القاهرة : مكتبة عيسى البابي الحلبي، ١٩٣٣م، ص٣٩ – ٤٧.

٢٣ – الأمير عبد الله . كتاب التبيان، ص١٣٠.

٢٤ – علي، ابن سعيد . المغرب في حلي المغرب، تحقيق شوقي ضيف . ـ القاهرة : طبعة دار المعارف، ١٩٥٥، ٤٤١:٢ – ٤٤٤.

٢٥ – أحمد بدر، تاريخ الأندلس . ـ دمشق، ص١٧٤.

٢٦ – التلمساني، المقري . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس . ـ بيروت : دار صادر، ١٩٦٨م، ٤٣٩:١. الحلل الموشية، مرجع سابق، ص٤١ – ٤٢. وانظر ابن الخطيب تاريخ إسبانيا أو أعمال الأعلام، مرجع سابق، ص٢٤٤–٢٤٥. ودوزي ملوك الطوائف، مرجع سابق، ص٢٦٧ – ٢٦٨. وقد طلب ابن شالبيب إضافة لذلك السماح لزوجة الفونسو بالإقامة في مدينة الزهراء بعد أن تضع مولودها في جامع قرطبة.

٢٧ – أرسلان، شكيب . مرجع سابق ٤٢٠:١ – ٤٢١، ٤٣٤. وانظر الأمير عبد الله، كتاب التبيان، مرجع سابق، ص٦٨، وما بعدها.

٢٨ – فيشل، ولتر. ج. يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الإسلامية في العصور الوسطى، ترجمة سهيل زكار . ـ بيروت : دار الفكر، ١٩٨٨م، ص٧٨ – ٧٩.

٢٩ – فيشل، ولتر. ج. المرجع السابق، ص٩٤ – ٩٥.

٣٠ – الناصري . الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري . ـ الدار البيضاء : دار الكتب، ١٩٥٤م، ٨٠:٣ – ٨١.

٣١ – الناصري، المصدر السابق، ١٠٠:٣.

٣٢ – الناصري . المصدر السابق، ١٩٥٤م، ٩٨:٤ – ١٠٠.

٣٣ – طلفاق، خير الله . حضارة العرب في الأندلس . ـ بغداد : دار الحرية، ١٩٧٧م، ص٨٨، ١٠٨ – ١٠٩.

٣٤ – طلفاق، خير الله . المرجع السابق، ص١٣٤.

٣٥ – الناصري . الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، مصدر سابق، ١١٩:١.

٣٦ – ابن عذاري، المراكشي . البيان المغرب، مرجع سابق . ـ بيروت : دارصادر، ١٩٥٠م، ٢٠٣:٢ – ٢٠٤.

٣٧ – ابن بسام . مصدر سابق، ص٦٨.

٣٨ – ابن حيان، أبو حروان . المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، ص٤٦٣.

٣٩ – ابن عذاري، مصدر سابق، ٣:٧٧ – ٧٨. ابن الخطيب . تاريخ إسبانيا الإسلامية أو أعمال الأعلام، ص١١٢.

٤٠ – تقع هذه المدينة على بعد ستة كيلومترات إلى الشرق من قرطبة، بناها المنصور محمد بن أبي عامر تعبيراً عن مساواته للخلفاء، ورغبة منه في إقامة مقر خاص له، يكون مركزاً لإدارته ومخازنه السلطانية.

٤١ – ابن عذاري، مصدر سابق، ٣:٦٥.

٤٢ – دوزي، مرجع سابق، ص٢٥٥، وما بعدها.

٤٣ – القنطرة عند الأندلسيين هي الجسر، وقد أقيمت هذه القنطرة على الوادي الكبير في عصر الولاة.

٤٤ – ابن الخطيب . تاريخ إسبانيا الإسلامية أو أعمال الأعلام، مرجع سابق، ص١٥٨–١٥٩.

٤٥ – دوزي، مرجع سابق، ص٢٩١.

٤٦ – ابن عذاري، مصدر سابق، ٤:٤١.

٤٧ – الحميري، محمد بن عبد المنعم . الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس . ـ بيروت : دارصادر، ١٩٧٥، ص٤٦، ٣٠٦. أشباخ، يوسف . تاريخ الأندلس، ترجمة محمد عبد الله عنان . ـ القاهرة، ١٩٣٩م، ص١٢٠.

٤٨ – الحلل الموشية، مرجع سابق، ص٦٥ – ٦٦.

٤٩ – استمر حكم الموحدين في المغرب والأندلس حتى سنة ٦٦٨هـ.

٥٠ – المراكشي، عبد الواحد . المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي . ـ القاهرة، ١٩٤٩م، ص٣٠٤ – ٣٠٥.

٥١ – ابن صاحب الصلاة، عبد الملك . المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي . ـ بيروت : دار الأندلس، ١٩٦٤م، ص١٨٦ وما بعدها.

٥٢ – أرسلان، شكيب . مرجع سابق، ٢:٣٣٠.

٥٣ – الناصري . مصدر سابق، ٤:٨١.

٥٤ – سوسة، أحمد . العرب واليهود في التاريخ . ـ دمشق، ١٩٧٥م، ص٣٩٦.

٥٥ – سوسة، أحمد . مرجع سابق، ص٣٩٧.

٥٦ – ابن جلجل، سليمان بن حسان . طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد . ـ القاهرة : المعهد الفرنسي، ١٩٥٥م، ص٢٣. حداد جورج، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص٥٢٦.

٥٧ – صاعد الأندلسي . مصدر سابق، ص٢٠٤.

٥٨ – صاعد الأندلسي . المصدر السابق، ص٢٠٤ – ٢٠٥.

٥٩ – صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص٢٠٦.

٦٠ – علي بن سعيد . مصدر سابق، ص٢٣. ابن الخطيب . نفاضة الجراب، تحقيق أحمد مختار العبادي وعبد العزيز الأهواني . ـ القاهرة : دار الكتاب العربي، ص١٩.

٦١ – ابن الخطيب . تاريخ إسبانيا الإسلامية أو أعمال الأعلام، ص٣٢٢.

٦٢ – موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين . ـ بيروت : مؤسسة المعارف، ص١٢٣.

٦٣ – حداد، جورج . المدخل إلى تاريخ الحضارة، مرجع سابق، ص٥٢٦ – ٥٢٧.

٦٤ – صاعد الأندلسي . مصدر سابق، ص٢٠٤.

٦٥ – آنخل جنثالث بالنثيا . مرجع سابق، ص٤٩٨.

٦٦ – مدكور، إبراهيم . في الفلسفة، بحث منشور في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية . ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص١٥٥.

٦٧ – فروخ، عمر . أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوروبية . ـ بيروت، ١٩٥٢م، ص٢٢، ٣٢.

٦٨ – المقري، نفح الطيب، مرجع سابق، ٢:١٤٠. ابن حوقل، صورة الأرض . ـ ط٢ . ـ ليدن، ١٩٣٨م، ص١١٠. أرسلان، شكيب . مرجع سابق، ١:٤٦.

٦٩ – أرسلان، شكيب . مصدر سابق، فاس : المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٩م، ٣:٤٨١ – ٤٨٢.

٧٠ – موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، مرجع سابق، ص١٨٤.

٧١ – أرسلان، شكيب . مرجع سابق، ١:٤٠٥ – ٤٠٦.

٧٢ – أرسلان، شكيب . مرجع سابق، ١:٤٢٠– ٤٢١.

٧٣ – أشباخ . مرجع سابق، ١:١٣٥.

مبعوث مغربي في استانبول يتحدث عن أوضاع الخليج العربي أوائل القرن التاسع عشر

د. عبد الكريم كريم
رئيس جمعية المؤرخين المغاربة
جامعة محمد الخامس
كلية الآداب - الرباط

من المصادر التاريخية المغربية التي انفردت بتدوين معلومات هامة عن الخليج العربي: مخطوط «الترجمان المعرب على دول المشرق والمغرب» لأبي القاسم الزياني (-١٢٤٩هـ = ١٨٣٥م). توجد النسخة الأصلية للمخطوط بدار الوثائق التابعة للخزانة العامة بالرباط - المغرب، تحت رقم (د ٦٥٨).

مجموع صفحاته ٤٩١ صفحة من الحجم الكبير، بكل صفحة ٣١ سطراً وبكل سطر ١٥ كلمة. أنهى تأليفه عام ١٢٣١هـ = ١٨١٥م.

وكتاب الترجمان المعرب على دول المشرق والمغرب موسوعة تاريخية تنقسم إلى أربعة وعشرين باباً مع المقدمة. وأخبار الخليج العربي أوائل القرن التاسع عشر توجد في:

١ - الباب الرابع عشر عن دولة بني عثمان وفتوحاتهم (ص١٧٥ - ٢٤٨).

٢ - الباب الثالث والعشرين عن دولة الشرفاء السعديين بالمغرب (ص٢٤٢ - ٣٦٨).

٣ - الباب الرابع والعشرين عن دولة الشرفاء العلويين بالمغرب (ص٣٦٩ - ٤٩١).

تمكن أبو القاسم الزياني كسفير للسلطان محمد الثالث لدى السلطان العثماني في استانبول من الوقوف على كثير من أخبار المشرق العربي ومنطقة الخليج العربي:

«واعتمدت فيما سطرت على ما طالعته

من مصادر التاريخ ... وعلى ما طالعته بالقسطنطينية العظمى أيام سفارتي لها من سلطان المغرب بحضرة السلطان العثماني عبد الحميد رحمة الله عليه.. فقد أمر الوزير قيّمها أن يفتح لي الباب ويطلعني على دفتر الكتب وكل كتاب تعلقت به همتي ينزله لي أطالع فيه وأقيد... وقد طالعت منها تواريخ متعددة كل واحد يشتمل على عدة مجلدات». (الترجمان ص٢ – ٣).

«ولازال هذا السلطان محمود بن عبد الحميد هو خليفة العصر عام واحد وثلاثين ومائتين وألف ١٢٣١هـ = ١٨١٥م وهو تمام واحد وثلاثين ملكاً على ما في تاريخ كمال باشا أفندي وهو آخر من أرخ دولتهم في أيام السلطان، رفعه لخزانته وعرّبه خير الدين أفندي وكتب منه نسخة بالعربية أتحفني بمطالعتها أيام مقامي باستانبول فاعتكفت على اختصاره» (الترجمان ص٢٤٤).

يضاف إلى ذلك مشاهداته وما سمعه ممن التقى معهم من الحجاج في موسم الحج: «وإنما رسمت فيها ماشاهدته في الأقاليم التي بلغتها وغيره نقلته ممن اجتمعت بهم بالحرم الشريف ومكة» (الترجمان ص٣٣).

فما أهم المعلومات التي دونها المبعوث المغربي عن الخليج العربي أوائل القرن التاسع عشر؟

يمكننا أن نرتب المعلومات كالتالي:

١ – طبيعة منطقة الخليج العربي.

٢ – وصف عام لعمرانها وعناصر سكانها وبعض مذاهبهم.

٣ – جوانب اقتصادية.

٤ – الأوضاع السياسية.

١ - طبيعة المنطقة

كان الخليج العربي يعرف بالخليج الأخضر، وكان ينقسم إلى بحار داخلية عديدة تحمل أسماء المناطق التي تجاورها «الخليج الأخضر وهو بحر فارس والابلة ومكران وكرمان إلى أن ينتهي إلى الابلة حيث عبادان فهناك ينتهي آخره ثم ينعطف راجعاً إلى جهة الجنوب فيمر ببلاد البحرين واليمامة ويتصل بعمان... وهناك اتصاله بالبحر الهندي وطول هذا البحر أربعمائة فرسخ وأربعون فرسخاً»(١).

وهذا الخليج «بحر مبارك كثير الخير دائم السلامة وطي الظهر قليل الهيجان بالنسبة إلى غيره يتصف بكثرة الجزر وفيه جزائر كثيرة معمورة مسكونة»(٢).

وبارتفاع الحرارة «مدينة البحرين كثيرة المياه شديدة الحر كثيرة الرمال»(٣).

كما توجد به مناطق تتصف بالخصب وغزارة المياه «مدينة لار وهي حسنة كبيرة كثيرة المياه والبساتين»(٤).

ومدينة «قيس وهي المسماة سيران... مدينة عظيمة ذات بساتين ومزارع.. ثم مدينة هجر... وهي كثيرة الأنهار والأشجار»(٥).

٢ - عمران منطقة الخليج العربي

وصف المؤرخ الزياني عمران حوض الخليج العربي وأورد ذكر عدد من المدن الواقعة على ضفافه:

«وقاعدة أرض عمان مدينة نزوى... ومن مدنها مدينة هرمز على ساحل البحر ويقابلها في البحر جزيرة هرمز الجديدة وبها جرون يسكنها سلطان عمان... وبعد مدينة هرمز مدينة جنح بال على ساحل البحر

أيضاً... وبعدها مدينة قيس وهي المسماة سيران مدينة عظيمة... ثم بعدها مدينة البحرين... وبعدها مدينة القطيف... ثم بعدها مدينة هجر وتسمى اليوم الحسناء»(٦).

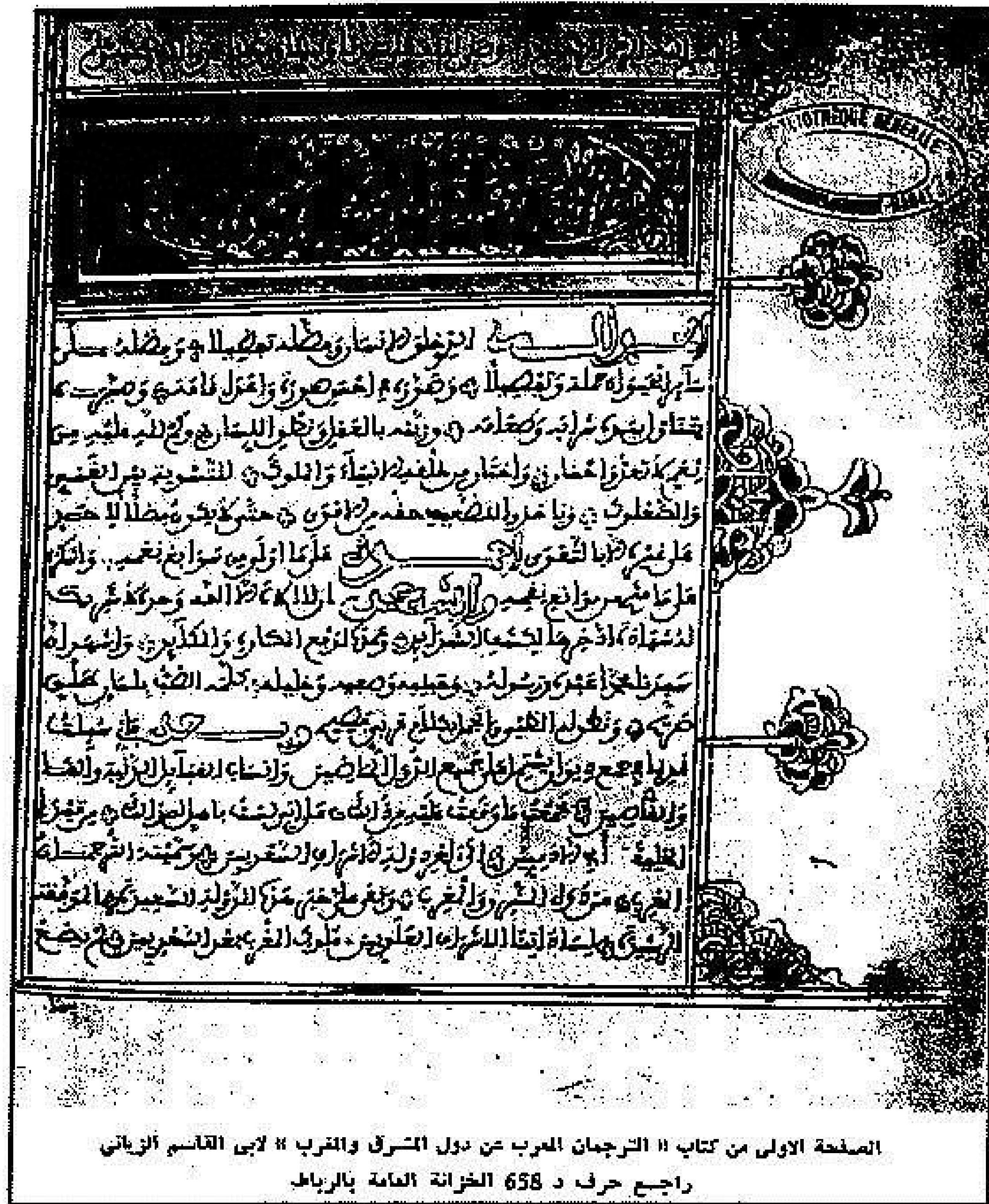
ويضيف عند حديثه عن العمران في الخليج العربي: «مدن جزيرة العرب أولها الإحساء ثم مدينة الأحقاف ثم مدينة أصحاب الأخدود... ثم مدينة إرم ذات العماد ثم مدينة أراص... ثم مدينة البحرين ثم مدينة جوهى اليمامة ثم مدينة حواتي ثم مدينة الحجر... ثم مدينة حارك بها مدن أيضاً ثم مدينة الخط قرب عمان ثم مدينة الرس قرب قلاقلا ثم مدينة سليمان ثم مدينة سلجين ثم مدينة سويقة ثم مدينة الشحر بعمان ثم مدينة هجر قرب عمان»(٧).

وعن أجناس السكان بالخليج العربي أكد الزياني عروبة المنطقة:

- «فهذه عمائر جزيرة العرب من اليمن إلى القادسية ومدائنها وهي باب العرب»(٨).
- «مدن جزيرة العرب أولها الإحساء...»(٩).
- «مدينة هجر يسكنها عرب بني حنيفة وهي بلدهم من قديم الزمان»(١٠)
- «بمدينة قيس... العرب هم الذين يغوصون على اللؤلؤ فيما بينها وبين البحرين»(١١).

كما أورد عنصر التركمان والعجم:
«ومدينة جنح باب على ساحل البحر أيضاً وسكانها تركمان وهم الذين يعمرون تلك المفاوز وهم أهل شجاعة وقسوة»(١٢).

«ومدينة قيس ... سكانها عجم وبها بعض العرب»(١٣).



الصفحة الاولى من كتاب « الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب » لابي القاسم الزياني
راجع حرف د 658 الخزانة العامة بالرباط

وعن بعض المذاهب ذكر:
«وقاعدة أرض عمان مدينة نزوى وأهلها إباضية»(١٤).

(وهذه البلاد كلها تسودها الوهابية)(١٥).

٣ - الناحية الاقتصادية

وصف أبو القاسم الزياني في (الترجمان المعرب) ما حبته الطبيعة من خيرات لمنطقة الخليج العربي، فهو «بحر مبارك كثير الخير دائم السلامة ... به مغاص اللؤلؤ الذي يخرج منه الحب البالغ الكبير وربما وقعت الدرة اليتيمة التي لا نظير لها»(١٦).

«وفي جزائره معادن أنواع اليواقيت والأحجار الملونة النفيسة ومعادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والسنبادج والعقيق وأنواع الطيب والأفاويه»(١٧). «وفي جزيرة هرمز الجديدة ... معدن الملح الأندراني في سباخ بها»(١٨).

وعن الظروف التي يتكون فيها الدر

واللؤلؤ بمياه الخليج العربي ذكر :

«يزعم البحرينيون أن الصدف الدري لا يكون إلا في بحر تصب فيه الأنهار العذبة فإذا أتى الربيع كثرت هبوب الريح في البحر ورفعت الأمواج ويضطرب البحر فإذا كان الثاني عشر من نيسان خرجت الأصداف من قعور هذه البحار ولها أصوات وقعقعة ويوسط كل صدفة دويبة صغيرة وصفاقتي الصدف لها كالجناحين وكالسور تتحصن بها من عدو متسلط عليها وهو سرطان البحر... وفي اليوم الثاني عشر من نيسان لاتبقى صدفة في قعور هذه البحار المعروفة بالدر واللؤلؤ إلا صارت على وجه الماء وتفتحت حتى يصير وجه الماء أبيض كاللؤلؤ وتأتي سحابة بمطر عظيم ثم تنقشع السحابة وقد وقع في جوف كل صدف ما قدره الله تعالى واختار ... وأفضل الدر المتكون في هذه الأصداف القطرة الواحدة والاثنتان والثلاثة وكلما قل العدد كان أكبر جرماً وأعظم قيمة والمتكونة من القطرة الواحدة هي الدرة اليتيمة التي لا قيمة لها»(١٩).

ويبدو أن الولاة كانوا يتعاطون تجارة اللؤلؤ : «وعندهم مغاصات اللؤلؤ تحت حكم سلطانها»(٢٠) **وفي المجال الاقتصادي نجد أيضاً إشارات إلى بعض المزروعات في المناطق الخصبة:**

– «مدينة قيس وهي المسماة سيران.. مدينة عظيمة ذات بساتين ومزارع»(٢١).

– «مدينة هجر ... كثيرة الأنهار والأشجار بها من التمر الآن محجى»(٢٢).

وإلى المبادلات التي كانت تتم بين مناطق الخليج «جزيرة هرمز الجديدة... يجلب لأهلها التمر من عمان والبصرة لأكلها مع السمك»(٢٣).

٤ - الأوضاع السياسية في الخليج العربي

من دراستنا لما ورد في الترجمان المعرب للزياني نلاحظ :

٤ : ١ – وجود وحدات سياسية مثل سلطنة عمان «ومن مدنها مدينة هرمز على ساحل البحر ويقابلها في البحر جزيرة هرمز الجديدة وبها جرون يسكنها سلطان عمان»(٢٤).

٤ : ٢ – قيام بعض الجماعات المحلية بفرض نفوذها :

– «مدينة جنح بال على ساحل البحر وسكانها يعمرون تلك المفاوز وهم أهل شجاعة وقسوة»(٢٥).

٤ : ٣ – سيطرة الوهابيين على مناطق واسعة من البلاد :

«وأما إقليم الشرق من سواد إلى العراق إلى مغايص الفرات إلى البحرين إلى عمان إلى نجران إلى اليمامة إلى حدود اليمن فقد تبعت الوهابية ... فالوهابي اليوم هو صاحب الأمر بجزيرة العرب»(٢٦).

٤ : ٤ – ضعف السلطان العثماني في منطقة الخليج العربي «ولما زاحمتهم الروم ببلاد الشمال وحاربوها ... وضعفت دولتهم عن مقاومة أجناس الروم وشغلوا بحربهم استبد على السلطان العثماني ملوك العجم وكل واحد منهم ضبط إقليمه وقطع نظره عن العثماني وعن الباشا الذي يأتي من عنده، ولم يبق إلا ذكره في الخطبة ورسمه على السكة... والممالك البحرية وممالك العرب وكل الممالك التي ذكرنا في بلاد العجم فقد خرجت عن ملكهم»(٢٧).

الهوامش

١ - أبو القاسم الزياني : الترجمان المعرب، ص٢٩٣.
٢ - المصدر السابق، ص٢٩٧.
٣ - المصدر السابق، ص١٩٠.
٤ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
٥ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
٦ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
٧ - المصدر السابق، ص٤٩٢.
٨ - المصدر السابق، ص١٩٠.
٩ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
١٠ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
١١ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
١٢ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
١٣ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
١٤ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
١٥ - المصدر السابق، ص٤٩٤.
١٦ - المصدر السابق، ص٢٩٧.
١٧ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
١٨ - المصدر السابق، ص١٩٠.
١٩ - المصدر السابق، ص٣٤٦.
٢٠ - المصدر السابق، ص١٩٠.
٢١ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
٢٢ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
٢٣ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
٢٤ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
٢٥ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
٢٦ - المصدر السابق، ص٣٥٥.
٢٧ - المصدر السابق، الصفحة ذاتها.

أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني: مقاربة ببليوغرافية

أحمد طالب
الجامعة الأمريكية - بيروت

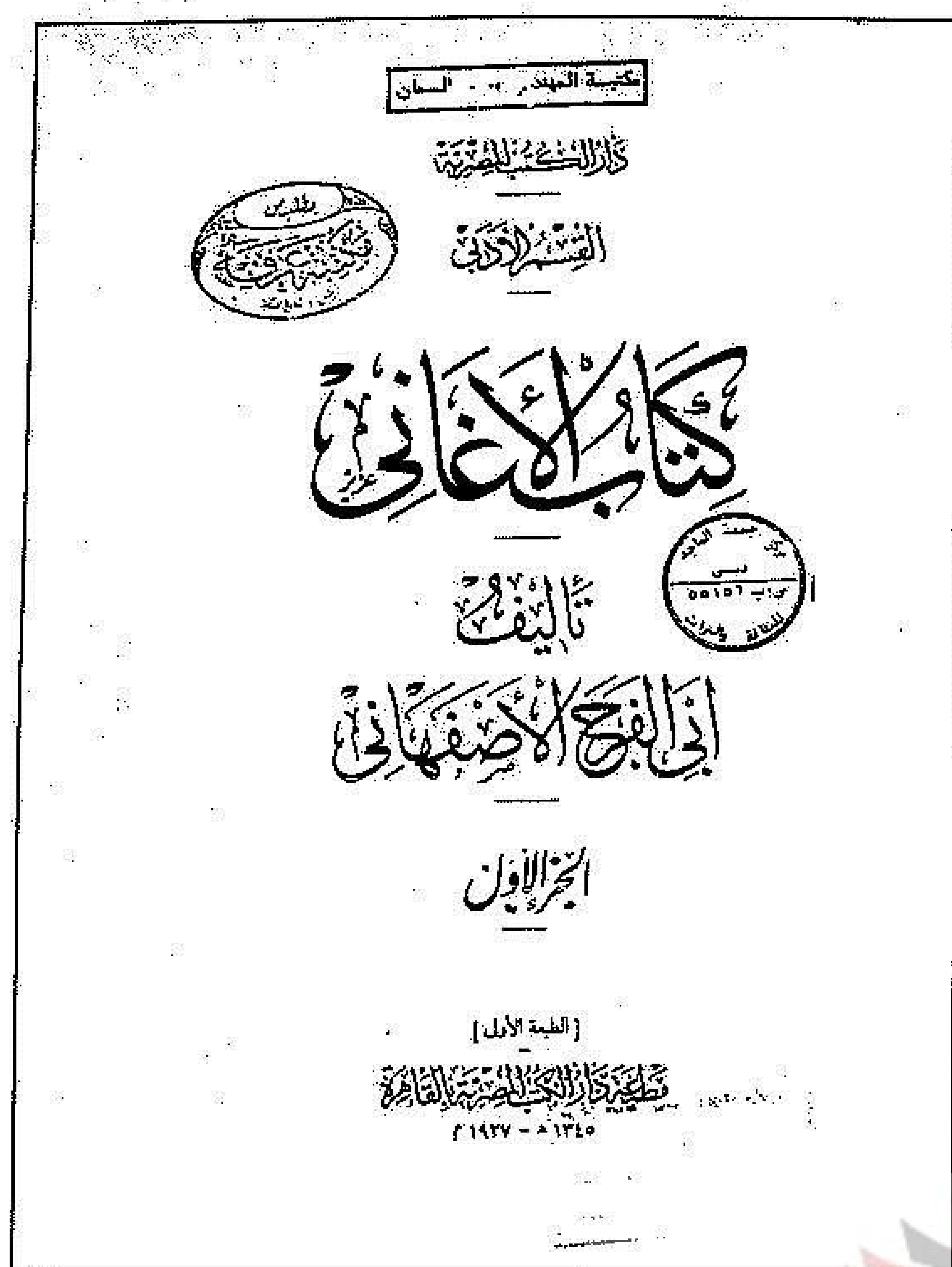
يعد كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني من كتب التراث الخالدة والتي لاتزال تلقى اهتماماً كبيراً بين الباحثين والمؤرخين والقراء على السواء. وسوف نستعرض في هذه الدراسة الببليوغرافية حياة الكاتب والمراحل الببليوغرافية المختلفة التي مر بها كتابه.

أولاً - الكاتب

ولد أبو الفرج الأصبهاني - أو الأصفهاني(١) - عليّ بن الحسين بن محمد ابن أحمد بن الهيثم... الأموي القرشي سنة ٢٨٤هـ = ٨٩٧م. وتذهب بعض الروايات إلى أنه ولد في مدينة أصبهان(٢) - أو إصفهان كما تعرف اليوم -. إلا أن هذا الأمر مشكوك فيه كما بيّن ذلك الدكتور محمد أحمد خلف الله والذي أثبت أن أبا الفرج قد ورث اللقب عن أسرته. ويرجح خلف الله بأن يكون أبو الفرج قد ولد في مدينة «سُرّ من رأى» حيث كانت تقيم عائلته(٣) ولعلّ أحد جدوده كان قد انتقل إلى أصبهان في فترة ملاحقة العباسيين لفلول بني أمية. وقد قضى أبو الفرج شطراً كبيراً من حياته في بغداد وإن كان قد تنقل لفترات قصيرة بين الكوفة والبصرة وأنطاكية والقدس والرقة ومكة والأهواز وباجسرا ومتّوث وغيرها من المدن... ولذلك يصفه بروكلمان بـ«الأديب الجوال»(٤). وفي بغداد «أكبّ أبو الفرج على الدرس، وجدّ في التحصيل، ودأب على قراءة

الكتب في العلوم والآداب... حتى صار زعيماً للحياة الأدبية في بغداد»(٥).

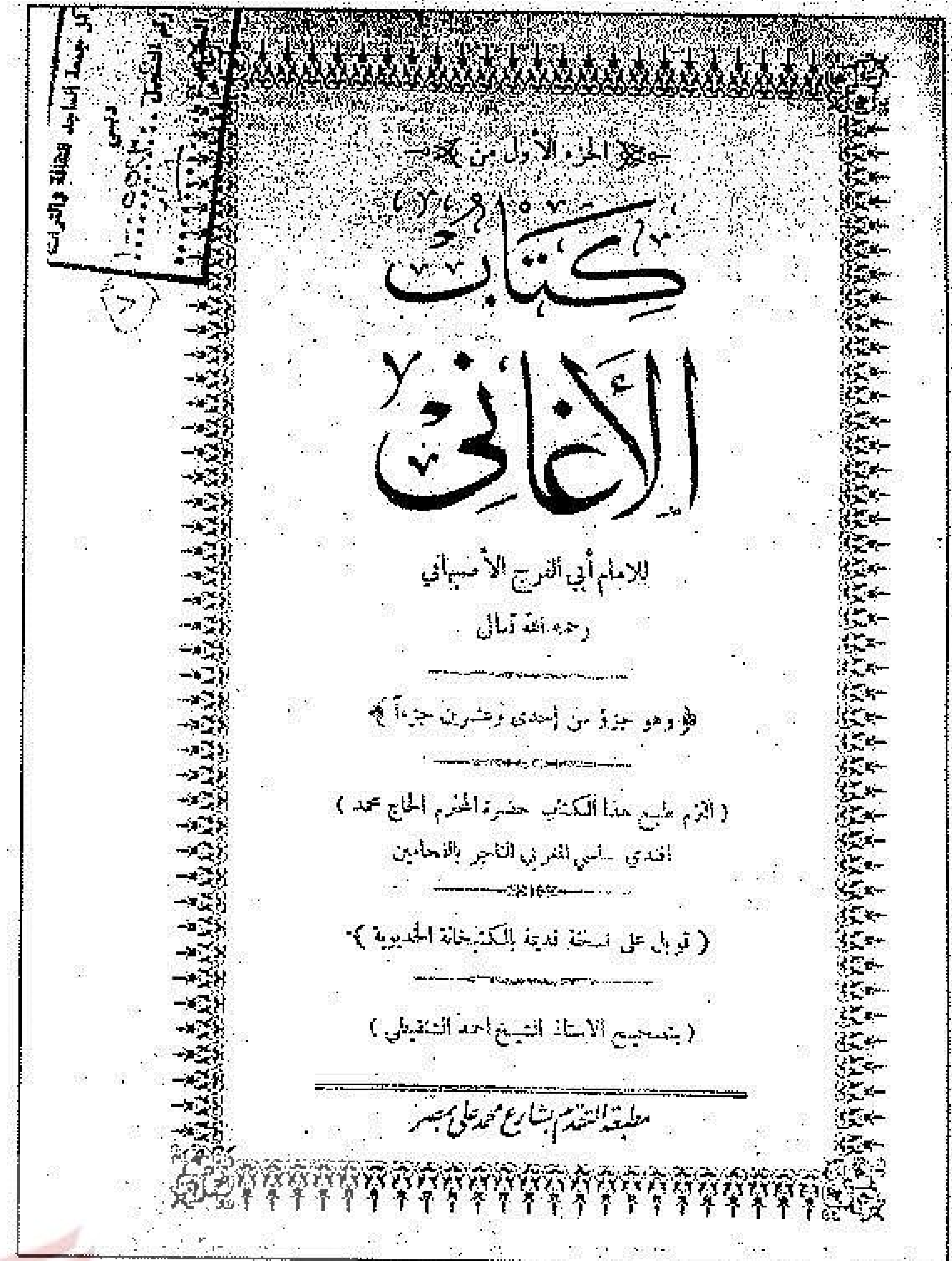
وقد نادم أبو الفرج الخلفاء والوزراء كوزيري بني بويه الصاحب إسماعيل بن عبّاد والمهلّبي، وسيف الدولة الحمداني أمير حلب، كما اتصل بطائفة كبيرة من علماء عصره، وهو من أزهى العصور الإسلامية، من شعراء وكتّاب ولغويين وموسيقيين ومغنّين ومؤرخين، فروى عنهم ونقل من كتبهم. ومن بين الرواة الكثر الذين يطول تعدادهم(٦) يأتي الحسن ابن علي (٢٢٥ - ٣٠٤هـ) في طليعتهم «ولعله شيخ الطالبيين وعالمهم... العلامة بالفقه والدين»(٧). إذ روى عنه أبوالفرج أربع مائة وثلاثاً وتسعين رواية، ثم عمّه الحسن بن محمد بن أحمد من كبار الكتاب بـ«سر من رأى» وقد روى عنه أبوالفرج أربع مائة وتسعين رواية(٨) ومنهم أبوبكر بن دريد اللغوي والأديب المشهور (٢٢٣ - ٣٢١هـ) وأبو بكر الأنباري (٢٧١ - ٣٢٨هـ) «أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة وأكثرهم حفظاً للشعر والأخبار»، والفضل بن حباب الجمحي (- ٣٠٥هـ) من رواة الأخبار والأشعار والأنساب، وعلي بن سليمان الأخفش (- ٣١٥هـ) من كبار اللغويين، وإبراهيم نفطويه العالم بالحديث والعربية (- ٣٢٣هـ) ومحمد بن جرير الطبري المؤرخ المشهور (٢٢٤ - ٣١٠هـ)، وأحمد بن جعفر بن جحظة (٢٢٤ - ٣٢٤هـ) الشاعر المطبوع والمغني الحاذق والراوية الظريف، وجعفر بن قدامة (- ٣١٩هـ) أحد مشايخ الكتّاب وعلمائهم، وابن المنجم النديم (٢٤١ - ٣٠٠هـ) الأديب والشاعر والمتكلم، ومحمد بن خلف بن المرزبان (- ٣٠٩هـ)



الحافظ للأخبار والأشعار والملح والمترجم والمؤلف... وغيرهم من كبار الأدباء والعلماء في عصره(٩). ولقد كان أبوالفرج عبقرياً عالماً بأيام الناس والأنساب والسير، وعنه يقول ياقوت الحموي (٥٧٤ - ٦٢٦هـ): «أبوالفرج الأصبهاني العلامة النساب الإخباري الحفظة الجامع بين سعة الرواية والحذق في الدراية. لا أعلم لأحد أحسن من تصانيفه في فنها وحسن استيعاب ما يتصدّى لجمعه، وكان مع ذلك شاعراً مجيداً(١٠).

مؤلفاته

صنّف أبو الفرج عدداً كبيراً من الكتب بلغ عددها ستة وثلاثين كتاباً ذكرها كثيرون من القدماء، وقد أحصاها محمد عبد الجواد الأصمعي المحقق بدار الكتب المصرية، استناداً إلى «فهرست» ابن النديم، و«إنباه الرواة» للقفطي، و«معجم الأدباء» لياقوت(١١). ويأتي في مقدّمها كتاب



الأغاني الكبير، أما كتبه الأخرى فمتنوّعة: كتب في الأدب والشعر والتراجم والأنساب والقيان والحانات والخمارين وأيام العرب... بالإضافة إلى جمعه لدواوين أبي تمام وأبي نواس والبحتري. أما كتبه المنشورة حتى الآن فستّة وهي:

١ - **كتاب الأغاني** وسنتحدث عنه تفصيلا.

٢ - **مقاتل الطالبين** / لأبي الفرج الأصفهاني، شرح وتحقيق أحمد صقر- القاهرة : دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٩ - ش، ٨٥٤ص.

(أعادت إصداره دار المعرفة ببيروت دون تاريخ).

«ترجم فيه أبو الفرج للشهداء من ذرية أبي طالب منذ عصر الرسول إلى الوقت الذي شرع فيه تأليف كتابه (٣١٣هـ) سواء أكان المترجم له قتيل الحرب أو صريع السمّ في السلم، وسواء أكان مهلكه في السجن أم في مهربه أثناء تواريه عن السلطان... وقد بلغ عددهم ما يزيد على مائتي شهيد» - (عن مقدمة المحقق أحمد صقر، ص : ل).

٣ - **كتاب أدب الغرباء** / لأبي الفرج الأصبهاني، نشره عن مخطوطة فريدة في العالم صلاح الدين المنجد • - ط١. - بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٢ - ١١٨ص.

وهو يتناول «أخبار من قال شعراً في غربة، ونطق عما به من كربة، وأعلى الشكوى بوجدة، من كل مشرد عن أوطانه، ونازح الدار عن إخوانه...» • - ص١٥.

٤ - **الإماء الشواعر** : مخطوط جديد، لصاحب الأغاني أبي الفرج الأصفهاني، تحقيق جليل العطية • - ط١. - بيروت: دار النضال، ١٩٨٤ - ٢٧١ص.

وأيضاً : الإماء الشواعر / تأليف أبي الفرج الأصبهاني، تحقيق نوري حمودي القيسي، يونس أحمد السامرائي - ط١. - بيروت : عالم الكتب: مكتبة النهضة العربية ١٩٨٤- ١٦٠ص.

يترجم فيه لثلاث وثلاثين أمة شاعرة كعنان وفضل ومحبوبة وعريب. (ومن الملفت أن يتمّ نشره من قبل ناشرين مختلفين في نفس السنة واستناداً إلى نفس المخطوطة التونسية...).

٥ - **القيان** / أبو الفرج الأصبهاني، تحقيق جليل العطية - لندن : رياض الريس، ١٩٨٩ - ١٦٠ص.

قام المحقق جليل عطية باستخراج نصوصه من مصادر مختلفة بعد أن عجز عن الوصول إلى أي مخطوطة له، حيث تمكن « من جمع أخبار أربعين قينة من العصرين الأموي والعباسي حيث حفلا بعدد كبير منهن ... وهو

مشتمل على لطائف مستحسنة، وأخبار مستظرفة من أخبار القيان، قديمهنّ وحديثهن، وشرح أحوالهنّ – (المقدمة).

٦ – **الديارات / لأبي الفرج الأصفهاني**، تحقيق جليل العطيّة ٠ – ط١ – لندن: رياض الريس، ١٩٩١– ٢٠٧ص.

عمد المحقق جليل العطية إلى استخراج نصوصه من المخطوطات والكتب التي نقلت عنه مباشرة أو غير مباشرة. ويبلغ مجموع أخبار الأديرة التي جمعها نحو اثنين وخمسين ديراً وهي تقع في العراق والشام وفلسطين والجزيرة والأهواز واليمن والروم.

وفاته

بعد حياة مليئة بالعطاء الأدبي والعلمي الخصب، توفي أبو الفرج ببغداد سنة ٣٥٦هـ = ٩٦٧م كما أجمع معظم الرواة(١٢)، عن عمر بلغ اثنين وسبعين عاماً، مخلفاً وراءه كتاباً أكسبه شهرة منقطعة النظير، ألا وهو «كتاب الأغاني».

ثانياً – كتاب الأغاني

يعد كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني من «أنفس كتب التراث العربي القديم، وأكثرها سيرورة، وأعظمها ذكراً، لما حوى من حقائق التاريخ، ومرويات القصص، وروائع النثر والشعر، من أقدم العصور إلى عصر مؤلّفه في القرن الرابع الهجري»(١٣). فهو بلا شك «موسوعة» أدبية ضخمة(١٤) تصوّر لنا حياة العرب والمسلمين الأدبية والاجتماعية والموسيقية والغنائية والسياسية والاقتصادية والتاريخية والدينية، وتصف لنا حياة الملوك والأمراء

كتاب الأغاني

تأليف

أبي الفرج الأصفهاني



المجلد الخامس

الناشر

دار الثقافة

بيروت

١٩٥٦

والخلفاء، والشعراء والمغنين، والرواة والمحدّثين، والصعاليك والمستضعفين، والجواري والقيان، وغير ذلك من صور الحياة في ذلك الزمان، لدرجة أنه يمكننا إعادة تصوير الحياة العربية – والإسلامية – بكاملها خلال ما يزيد على السبعة قرون – وبعد أكثر من عشرة قرون – من خلال هذا السفر الخالد. ولقد نعته ابن خلدون بـ«ديوان العرب جامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهي الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها»(١٥).

أما ياقوت الحموي فيقول «ولعمري إن هذا الكتاب لجليل القدر، شائع الذكر، جم الفوائد، عظيم العلم، جامع بين الجدّ البحت والهزل النحت، وقد تأملت هذا الكتاب وعنيت به وطالعته مراراً. وكتبت منه نسخة بخطّي

كتاب
الأغاني
لأبي الفرج الأصفهاني
الجزء الأول
أعداد لجنة نشر كتاب الأغاني
بإشراف
محمد أبو الفضل إبراهيم
الناشر
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

في عشر مجلدات، ونقلت منه إلى كتابي الموسوم بأخبار الشعراء فأكثرت»(١٦).

ويقول ابن خلّكان أن لأبي الفرج «مصنفات مستملحة منها كتاب الأغاني الذي وقع الاتفاق على أنه لم يعمل في بابه مثله»(١٧). كما أشاد بالكتاب سائر القدماء - إلا قلّة(١٨) - كذلك فعل المعاصرون وهم كثر. ومنهم الشيخ العلامة عبدالله العلايلي الذي يقول عنه: «مكتبة في كتاب. ذلك هو الأغاني. وناهيك بها شهادة أجمع عليها الرأي في قديم الناس، وظلت حيث هي من إجماع الرأي في حديثهم، وقد لا يقدر لها أن تحول عن وجهها في ما يباكر به النقد»(١٩). ويقول عنه معاصرنا الدكتور عبد المجيد دياب بأنه «لا يدانى في منزلته، وغزارة مادته، فقد اجتمع فيه ما لا يجتمع من تراث العرب الأدبي، وقد استوعب ثقافة عصره، وحصيلة معارفه، وحوى عيون النثر والشعر، والقصص والأخبار، والتاريخ والاجتماع، والمجون والجدّ، والغناء والموسيقا، وتراجم الأدباء... فنحن بعد ألف عام أو يزيد، نرى من خلال هذا الكتاب كيف كانت الكتاتيب ومجالس العلم ومنتديات الأدب.. كما نلمس فيه أيضاً تقاليد الناس وعاداتهم وما كانت عليه مجالس طربهم وغنائهم .. وأجناس شرابهم، وأنواع زينتهم، ومأكلهم وأزيائهم..»(٢٠).

ولقد أمضى أبو الفرج خمسين سنة من عمره - على ما يروي ياقوت - وغيره - عن أبي محمد المهلّبي عن أبي الفرج نفسه(٢١) - يجمع مواد كتابه، يغشى دكاكين الوراقين المنتشرة ببغداد بكثرة في ذلك العصر، العامرة بالكتب، كما قال معاصره التويختي - ينقّب في بطون المخطوطات، بحثاً عن قصيدة أو رواية أو سند لرواية، يسأل أهل الذكر والذاكرة، ويدوّن بأمانة ودقة ما يتحصّل لديه من معلومات أولاً بأول. ويُقال إنه أهدى كتابه هذا لسيف الدولة الحمداني(٣٠٣ - ٣٥٦هـ) فأعطاه ألف دينار «وبلغ ذلك الصاحب أبا القاسم بن عباد(٢٢) فقال: لقد قصّر سيف الدولة. إنه يستأهل أضعافها. ووصف الكتاب فأطنب ثم قال: ولقد اشتملت خزائني على مائتين وستة آلاف مجلد ما فيها ما هو سميري غيره ولاراقني سواه»(٢٣).

وخلاصة القول أنّ هذا الكتاب هو كنز من كنوز التراث العربي، وجوهرة نادرة يحسن بكل منا أن يقتنيه، يقرأه بشغف واستمتاع، وصبر وأناة وروية، يرجع إليه في خبر نادر، أو رواية شيقة، أو ترجمة شاعر ضاع خبره فعزّ الوصول إليه.

الباعث على تأليف الكتاب

يقول أبو الفرج: «والذي حملني على تأليفه أن رئيساً من رؤسائنا كلفني جمعه له، وعرفني أنه بلغه أن الكتاب المنسوب إلى اسحاق(٢٤) مدفوع أن يكون من تأليفه، وهو مع ذلك قليل الفائدة، وأنه شاك في نسبته، لأن أكثر أصحاب اسحاق قد ينكرونه، ولأن ابنه حمّاداً أعظم الناس إنكاراً لذلك». (الأغاني، ١:٦).

وهكذا فقد ألف أبو الفرج كتابه ليكون جامعاً لأغاني العرب وأشعارهم، وبديلاً عن الكتاب القليل الفائدة والمنسوب خطأ لاسحاق، وهو لشخص آخر يعرف بسندي الورّاق على ما يروي أبو الفرج عن أحمد بن جعفر جحظة (الأغاني، ١:٦). وكان الخليفة هارون الرشيد - على مايروي أبو الفرج عن اسحاق - قد أمر المغنين - وتحديداً ثلاثة منهم وهم إبراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع وفُليح بن العوراء - أن يختاروا له أفضل مائة صوت فاختاروها له، ثم عاد وأمر اسحاق أن يختارله أفضل عشرة منها ففعل، فأفضل ثلاثة ففعل. ثم أمر الواثق بالله (٢٠٠ - ٢٣٢هـ) الخليفة العباسي، اسحاق بن إبراهيم أن يختار له منها ما رأى أنه أفضل مما كان اختير متقدماً، ويبدل ما لم يكن على هذه الصفة بما هو أعلى منه وأولى بالاختيار. (الأغاني، ١:٢). وجاءت أولى الأصوات المختارة الثلاثة - بل أحدها - لمعبد المغني والموسيقي العباسي المشهور في شعر أبي قطيفة ومطلعه:

القصر فالنخل فالجمّاء بينهما

أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

كتاب

الأغاني

لأبي الفرج الأصفهاني

الجزء الحادي والعشرون

تحقيق

عبد الكريم إبراهيم العزباوي — محمود محمد غنيم

إشراف

محمد أبو الفضل إبراهيم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

فلحن ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة، ومطلعه:

أهاج هواك المنزل المتقادم

نعم وبه ممن شجاك معالم

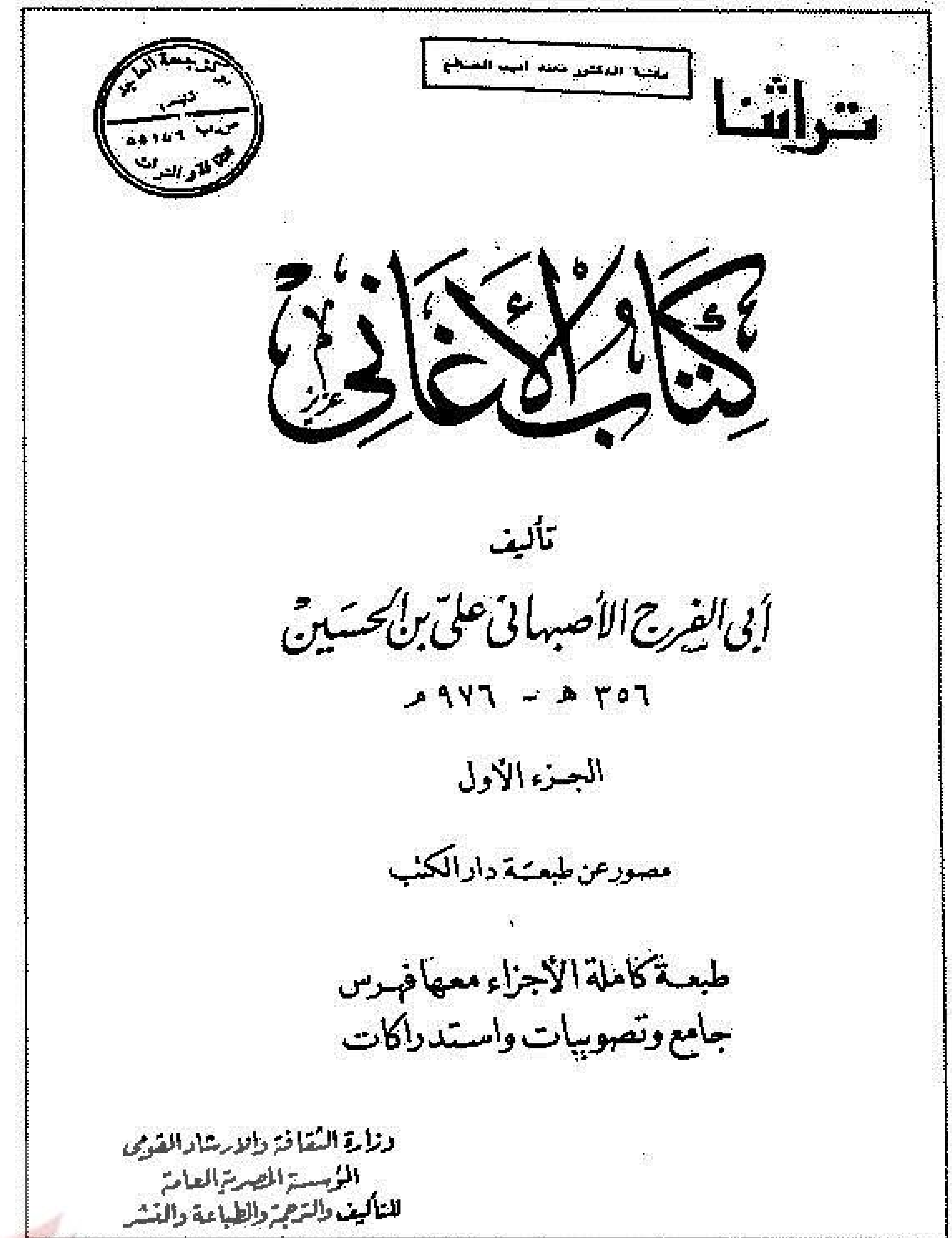
فلحن ابن محرز في شعر نصيب، ومطلعه:

إذا ما طواك الدهر يا أم مالك

فشأن المنايا القاضيات وشانيا

(الأغاني، ١:٨).

و«عنوان الكتاب يُبيّن بأن أبا الفرج إنما ألفه ليتحدث عن الغناء والأغاني.. ومع ذلك أن نرى أن الأغاني ليست إلا إطاراً خارجياً للكتاب، وأن المؤلف كان يتوخى من تأليفه تحقيق غرضين: أولهما جمع أخبار الشعراء المشهورين والمغنين المعروفين، والثاني إحصاء الأصوات المشهورة وبيان لحنها وطريقتها الغنائية(٢٥) إلا أنه ينبغي أن نشدد على أهمية الإرث الموسيقي الذي تركه



لنا أبو الفرج، والذي لا يزال الباحثون في علوم الموسيقى من عرب ومستشرقين يحاولون فك رموزه وقراءة ألحانه، وأن هدف أبي الفرج كان فعلاً الحديث عن الأصوات أو الألحان الموسيقية ثم الشعراء.

ترتيب الكتاب

جاء ترتيب الكتاب على منهج خاص يخدم غرض المؤلف الذي أراد أن يذكر الأصوات المختارة أولاً كمدخل لفصول كتابه، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن شاعر الصوت المختار ... ويدافع أبو الفرج عن منهجه المركّب هذا فيقول: «ولعل بعض من يتصفح ذلك ينكر تركنا تصنيفه أبواباً على طرائق الغناء أو على طبقات المغنين في أزمانهم ومراتبهم أو على ما غنيّ به من شعر شاعر. والمانع من ذلك والباعث على ما نحوناه علل: منها أنا لما جعلنا ابتداؤه الثلاثة الأصوات المختارة كان شعراؤها من المتأخرين، وأولهم أبو قطيفة وليس من الشعراء المعدودين ولا الفحول، ثم عمر بن أبي ربيعة ثم نُصيب. فلما جرى أول الكتاب هذا المجرى، ولم يمكن ترتيب الشعراء فيه، ألحق آخره بأوله وجُعل على حسب ما حصل ذكره. وكذلك سائر المائة صوت المختارة، فإنها جارية على غير ترتيب الشعراء والمغنين. وليس المغزى ترتيب الطبقات وإنما المغزى ما ضمّنه من ذكر الأغاني بأخبارها وليس هذا مما يضرّ فيها. ومنها أن الأغاني قلما يأتي شيء ليس فيه اشتراك بين المغنين في طرائق مختلفة لا يمكن معها ترتيبها على الطرائق. وإذا كان هذا هكذا فما رتّبناه أحلى وأحسن، ليكون القارىء له بانتقاله من خبرٍ إلى غيره، ومن قصة إلى سواها، ومن أخبار قديمة إلى محدثة، ومليك إلى سوقة، وجد إلى هزل...»(الأغاني، ١:٣–٤).

إلا أن هذا المنهج الذي اضطر الكاتب للدفاع عنه في حياته، أصبح عائقاً أمام سهولة استعماله خصوصاً بعد الانقطاع الكلّي بين عصره وعصرنا في مجال الإرث الموسيقي الذي كان يعتمد السماع بشكل أساسي، وهذا ما دفع الكثيرين من الكتّاب – قدماء ومعاصرين – إلى «إعادة ترتيبه» أو «تجريده» أو «تهذيبه» أو «الاختيار» منه .. كما سنبين لاحقاً.

أسلوب الكتاب

يقول أبو الفرج في مقدمته(٢٦) أنه قد جمع في كتاب «ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية قديمها وحديثها، ونسب كل ما ذكر منها إلى قائل شعره، وصانع لحنه، وطريقته، واشتراك إن كان بين المغنين فيه،

على شرح لذلك وتلخيص وتفسير للمشكل من غريبه، وما لا غنى عن علمه من علل إعرابه وأعاريض شعره التي توصل إلى معرفة تجزئته وقسمة ألحانة» (الأغاني، ١:١)(٢٧).

ولإعطاء صورة عن أسلوب أبي الفرج نقتطع تعليقه على الصوت الأول المختار:

القصر فالنخل فالجمّاء بينهما
أشهى إلى القلب من أبواب جيرون
إلى البلاط فما حازت قرائنه
دور نزحن عن الفحشاء والهُون
قد يكتم الناس أسراراً فاعلمها
ولا ينالون حتى الموت مكنوني

فبعد أن يفصل معاني الألفاظ ويوضح المعنى كاملاً يقول:

عروضه من أول البسيط ... الشعر لأبي قطيفة المعيطيّ، والغناء لمعبد، وله فيه لحنان: أحدهما خفيف ثقيل أوّل بالوسطى في مجراها من رواية اسحاق وهو اللحن المختار، والآخر ثقيل أول بالوسطى على مذهب اسحاق من رواية عمرو بن بانه» (الأغاني، ١٢:١) (٢٨).

وقد نرى أبا الفرج دقيقاً في أوصافه، بليغاً في معانيه، أنيقاً في أسلوبه. فلنسمعه ينقد شعر عمر بن أبي ربيعة مثلاً: «راق عمر ابن أبي ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر، وشدة الأسر، وحسن الوصف، ودقة المعنى، وصواب المصدر والقصد للحاجة، واستنطاق الربع، وإنطاق القلب، وحسن العزاء، ومخاطبة النساء، وعفّة المقال ... وطلاوة الاعتذار، وفتح الغزل، ونهج الغلل...»(الأغاني، ١٢:١). ويمضي أبو الفرج، بعد أن ينهي عباراته البليغة الرقيقة الطليّة، ليختار من شعر عمر ما يدلل بوضوح تام عن

مكتبة الأستاذ سليم الزركلي

كتاب الأغاني



تأليف

أبي الفرج الأصبهاني علي بن الحسين

٣٥٦ هـ - ٩٧٦ م

الجزء الخامس عشر
بتحقيق عبد السلام محمد هارون

مصور عن طبعة دار الكتب

طبعة كاملة الأجزاء معها فهرس
جامع وتصويبات واستدراكات

مؤسسة جمال للطباعة والنشر

كل وصف أطلقه على شعر عمر.

كما يؤكد أبو الفرج أنه ابتعد عن الحشو والتكثير بما تقل الفائدة منه، وأتى في كل فصل من ذلك بنُتف تشاكله، ولمع تليق به.. وذكر كل قصة تستفاد وحديث يستحسن، إذ ليس لكل الأغاني خبر نعرفه، ولا في كل ما له خبر فائدة.. وقد ضمّن كتابه أحسن جنسه، وصفو ما ألف في بابه، ولباب ما جمع في معناه ...» (الأغاني، ١:٢-٤).

أسانيده

يسند أبو الفرج دائماً رواياته إلى أشخاص معروفين اجمالاً وهم أهل ثقة وصدقية ومرجعية كما ذكرنا في بداية عرضنا. وإذا لم يكونوا كذلك فهو ينص على ذلك صراحة، وقد يوازن بين الروايات ويشكك في بعضها. وعادة ما تبدأ روايته بقوله «حدثني فلان ...» «أخبرني عمي» .. «أخبرني جماعة».. «أخبرني

من يفهم في الغناء» (الأغاني، ٨:٢٢٤ من طبعة دار الثقافة). وإذا عثر على شيء بغير إسناد فينص على ذلك «وجدت في بعض الكتب بغير إسناد» (الأغاني، ٢٢:٥٥٤ من طبعة دار الثقافة). وفي مكان آخر «وليس هذا من الأقوال المعوّل عليها» (الأغاني، ١:٢١ من نفس الطبعة) وأحياناً يقول: «ونسخت من كتاب ...» (الأغاني، ١:٣٢٥ من طبعة الهيئة العامة) أو «سألت ..» (الأغاني، ١:٣٢٥) أو «قال المكيون» (الأغاني، ١:١٢٥) أو «حدثت» (الأغاني، ١:٤١٣) أو حدثني جعفر بن قدامه عن زياد عن بعض شيوخه – سقط عني اسمه – قال: ... (الأغاني، ١٩:٢٤١) أو نسخت من كتاب جدّي يحيى بن محمد بن ثوابة ... (الأغاني، ١٩:٤٣) في حديثه عن شعر لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت مطلعه:

«آب ليلي بهموم وفكر
من حبيب هاج حزني والسهر ...

يقول ومن الناس من ينسب هذا الشعر إلى عمر بن أبي ربيعة: وهو غلط. وقد بيّن ذلك مع أخبار عبد الرحمن في موضعه»..(الأغاني، ١:٢٨٤). وقد يستند في روايته على شخص واحد، وقد تطول سلسلة الإسناد لتطاول العشرات من الرواة ورواة الرواة، لتمتد وتوغل في القدم .. ففي خبر مقتل حجر بن عدي مثلاً يقول: «حدثني أحمد بن عبد الله بن عمّار قال : حدثنا سليمان بن أبي شيخ قال : حدثنا محمد بن الحكم قال: حدثنا أبو مخنف قال : حدثنا خالد بن قطن، عن المجالد بن سعيد الحمداني والصقعب بن زهير، وفضيل بن خديج، والحسن بن عقبة المرادي وقد اخترت جملاً من ذلك يسيرة تحرّزاً من الإطالة...»

(الأغاني، ١٧:١٣٣). وهذه الأسانيد، هي لإثبات صدقية ما يرويه أو ينقله أبو الفرج. وإن كان قرّاؤنا اليوم يأنفون منها ويتجاوزونها ...!

رحلة الكتاب من المخطوط إلى المطبوع

أ – المخطوط

ما إن انتهى أبو الفرج من وضع كتابه ونسخه – وقد نسخه مرة واحدة في حياته – حتى ذاع صيته. ولعلّ الكثيرين من الأدباء والرواة عرفوا به قبل الانتهاء من وضعه والذي امتد سحابة نصف قرن من الزمان، فأخذ الورّاقون ينسخونه ويعرضونه للبيع في دكاكينهم، كما نسخه بعض الأدباء كياقوت الحموي الذي يقول أنه نسخ بخط يده نسخة واحدة منه في عشر مجلدات، كما اشترى أبو تغلب ابن ناصر الدولة نسخة بعشرة آلاف درهم بصرف ثمانية عشر درهماً للدينار. وبيعت مسوّدة الكتاب، وهي أصل نسخة أبي الفرج بالمناداة بأربعة آلاف درهم، إلا أن ياقوت تحرّى هذه الرواية وشكّك فيها(٢٩).

وقد حدث ما تخوّف منه أبو تغلب ابن ناصر الدولة الذي قال إن الأغاني «يساوي عندي عشرة آلاف دينار، ولو فقد لما قدرت عليه الملوك إلا بالرغائب(٣٠)، فقد أتت على بغداد، وغيرها من مدن العالم الإسلامي، أيام شداد، فدمّرت حضارتها، وأحرقت كتبها، وإننا لنعجب كيف نجت بعض نسخ هذا

الكتاب الضخم والفريد في بابه من عوادي الزمن ومعاول التدمير وألسنة النيران.. إلا أن النسخ القليلة التي نجت – منقوصة متفرقة في الغالب – تفرقت في مكتبات كثيرة شرقاً وغرباً – في مصر وتركيا والهند وبريطانيا وألمانيا وفرنسا وغيرها مما قد يكشف عنه البحث في المستقبل.

وبالرجوع إلى كتاب المؤرخ الببليوغرافي الكبير فؤاد سزكين المعنون «تاريخ التراث العربي»(٣١) والذي يعتبر بحق أشمل وأدق فهرس للمخطوطات العربية، وكتاب سلفه المستشرق والببليوغرافي اللامع كارل بروكلمان المعنون «تاريخ الأدب العربي»(٣٢) تبيّن لنا أن عدد المخطوطات التي ذكرها سزكين سبع وثمانون مخطوطة موزعة على تسع عشرة مكتبة. وكل مخطوطة تشكل جزءاً أو أكثر ولا يوجد بينها نسخة كاملة لكتاب الأغاني. ولعلّ أغناها مخطوطات ميونيخ التي تبلغ سبعاً وعشرين مخطوطة ومجموع أوراقها أربعة آلاف وثماني عشرة ورقة وتعود لسنة ٦١٣هـ بينها نسخة واحدة بحالة حسنة جداً. وهنالك أربع مخطوطات في المكتبة البريطانية (المتحف البريطاني سابقاً) للأجزاء (٤، ٥، ٢٣، ٢٤) وتعود للقرن السادس الهجري. أما أقدم المخطوطات فتوجد في مكتبة (فيض الله) باستانبول وهي تعود للسنة ٥٢٦هـ وتشمل ثمانية أجزاء من الكتاب وهي (٨، ٩، ١٢، ١٥ – ١٩). ولربما كانت نسخة بلدية الاسكندرية – على ما يذكر سزكين – التي تتألف من ثمانية أجزاء أقدم النسخ المعروفة إذ تعود للقرن الخامس الهجري. وإذا أضيفت هذه المخطوطات السبع والثمانون إلى تلك التي بدار الكتب المصرية، والبالغ عددها ست مخطوطات بحسب ما جاء في مقدمة طبعتها – ولا نحتسب هنا النسخ المصورة عن مخطوطات أصلية – فيكون المجموع المعروف حالياً ثلاثاً وتسعين مخطوطة(٣٣). وبمقارنة هذه المخطوطات – أو بعضها – تمكّن المحققون من إعادة بعث الكتاب حياً وكاملاً فحفظ لنا التاريخ ليس فقط كتاب الأغاني بل مضمون هذا الكتاب الذي يتناول العشرات من الشعراء والأدباء ممن ضاعت كتبهم وأشعارهم، وعفا عليهم الزمن بالإضافة إلى الثروة الموسيقية الضخمة و«الملغّزة» التي حواها هذا الكتاب الجليل..!

ب – طبعات الكتاب

أول طبعة ظهرت «للأغاني» كانت على يد المستشرق الألماني جوهان غوتفريد لودفيك كوزغارتن(١٧٩٢ – ١٨٦٢م) (Johann Gottfried Ludwig Kosgarten) حيث قام في سنة ١٨٤٠م بطبع المجلد الأول – أو مجلد أول – من هذا الكتاب مع ترجمة لاتينية له تحت عنوان:

Liber Cantilenarum Magnus ex Cadicibus Manuscriptis Arabice

وبالعربية: هذا كتاب الأغاني الكبير لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني. وقد نشرته «مكتبة كوشيانا» Libraria Kochiana في بلدة Gripesvoldiae (٣٤) – كما ورد اسمها باللاتينية – وقد بلغ عدد صفحاته العربية ٢٨٨ صفحة أما صفحاته اللاتينية فبلغت ٣٣٦ صفحة. ويبدو النص اللاتيني مبتوراً في نهايته. وتقتني هذا المجلد النادر ست مكتبات أميريكية بينها مكتبة الكونجرس الأمريكية(٣٥).

أولاً-طبعة بولاق(١٢٨٥هـ = ١٨٦٨م) (٣٦)

قامت المطبعة المصرية ببولاق بإصدار طبعة كاملة بلغت عشرين جزءاً وذلك سنة ١٢٨٥هـ (أو سنة ١٨٦٨ ميلادية كما ذكرت معظم المراجع العربية. أما مكتبة الكونجرس الأمريكي فتضع سنتي ١٨٦٨/٦٩ كتاريخ ميلادي مقابل...)

وهكذا وللمرة الأولى في التاريخ استطاع الجمهور العريض من قراء العربية الاطلاع على كتاب الأغاني - شبه كامل - بعد تسع مائة سنة وسنة من وفاة مؤلفنا الكبير رحمه الله.

ثم كشف المستشرق الأمريكي رودولف إرنست برونو (Rudolf Ernst Brunnow) (١٨٥٨ - ١٩١٧) وجود نقص في تراجم هذه الطبعة بلغ اثنتين وثلاثين ترجمة بعد أن قارن طبعة بولاق ببعض المخطوطات المتوفرة في مكتبات أوروبية فنشرها في كتاب مستقل سمّاه «الجزء الحادي والعشرون» وذلك سنة ١٨٨٨م(٣٧). وبعد ذلك قام المستشرق الإيطالي أغناطيوس غويدي (Ignazio Guidi) (أو جويدي كما في المراجع المصرية وبعض المراجع العربية الأخرى) (١٨٤٤ - ١٩٣٥م) بإعداد فهرس شامل لطبعة بولاق بمساعدة (برونو) وسبعة محققين آخرين وصدر عن دار بريل (Brill) في ليدن بهولندا سنة ١٩٠٠م. (بالفرنسية و/أو العربية). وتشكل هذا الفهرس من أربعة أقسام

١ - فهرس أسماء الشعراء.

٢ - فهرس القوافي.

٣ - فهرس أسماء الرجال والنساء والقبائل.

٤ - فهرس أسماء الأمكنة والجبال والمياه(٣٨).

وهكذا اكتملت الطبعة الأولى - إن صح التعبير الببليوغرافي - من كتاب الأغاني بمشاركة مصرية أمريكية إيطالية - إذا جاز القول - في السنة الأولى من القرن العشرين.

ثانيا - طبعة ساسي (١٩٠٥م)(٣٩)

قام الحاج محمد أفندي الساسي المغربي الورّاق «التاجر بسوق الفحامين بمصر» - كما جاء على صفحة عنوان هذه الطبعة - بالتزام طبع هذا الكتاب مجدداً في سنة ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م بعد أن نفدت طبعة بولاق من السوق. وقد طبعت بمطبعة التقدم بمصر وقام بتصحيحها الشيخ أحمد الشنقيطي. وصدر معها الجزء الحادي والعشرون الذي كان قد أصدره برونو سنة ١٨٨٨م. كما قام محمد مسعود بترجمة الفهرس الذي نشره (غويدي) إلى اللغة العربية وصدر في أربعة أجزاء. وبالرغم من أن بيان تأليفه يذكر بأنه «قام بتطبيق صفحاته على صفحات الطبعة الجديدة» إلا أنه تبين لنا أن هذا الفهرس يعود لطبعة بولاق وليس لطبعة ساسي.

«وعلى هاتين الطبعتين السقيمتين عاش القارئون لكتاب الأغاني يتعثرون، يقوى لهما القليلون ويعجز عنهما الكثيرون»(٤٠). فهاتان الطبعتان كان يعوزهما التحقيق والتوثيق والحواشي والشروحات والضبط، ولم تخل من كثير من التحريف والتصحيف. وللتدليل على النواقص والشوائب فيهما، يكفي أن نشير إلى أن محمد عبد الجواد الأصمعي قام بنشر التصحيحات التي كان سجّلها أستاذه محمد محمود الشنقيطي(٤١) - ولعله قريب الشيخ أحمد الشنقيطي الذي

قام بتصحيح طبعة ساسي - على نسخته الشخصية (وهي من طبع بولاق) والتي كانت محفوظة بالخزانة الزكية(٤٢). فصدر تصحيح الأغاني سنة ١٩١٦م في كتاب يتألف من ٧٠ صفحة تتضمن جداول بالخطأ والصواب في طبعتي بولاق والساسي. ويقول الأصمعي أنه قضى ثلاث سنوات في إعداده(٤٣).

ثالثا - طبعة دار الكتب المصرية (١٩٢٧ - ١٩٧٤م) (٤٤)

شرعت دار الكتب المصرية نشر هذا الكتاب وتحقيقه تحقيقاً علمياً دقيقاً، وذلك اعتباراً من سنة ١٩٢٥م. وقد جاءت مباشرة نشره بناء على مبادرة من أحد المواطنين المصريين واسمه علي راتب، إذ وجّه رسالة مؤرخة في ٥ شوال سنة ١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م، إلى مدير دار الكتب المصرية في ذلك الوقت طالباً إليه إعادة طبع الكتاب وتحقيقه ومتكفلا هو بتحمّل نفقات الطبع(٤٥). وهكذا كلّفت الدار لفيفاً من كبار المحققين الذين كانوا يعملون بالدار وتحديداً في القسم الأدبي - أمثال محمد الخضر حسين، وأحمد زكي العدوي، وعبد الرحيم محمود، والبرهامي منصور، وعباس عبد القادر، ومحمد عبد الجواد الأصمعي - كلّفتهم «بمراجعة الكتاب، وتصحيحه، وضبط غريبه، وجميع أعلامه وما ورد فيه من شعر، مع شرح ما غمض في ثنايا الكتاب وتصويب ما وقع من التحريف في طبعتيه السابقتين...»(٤٦). وهكذا صدر الجزء الأول سنة ١٩٢٧م محققاً تحقيقاً علمياً سليماً، ومزوداً بشروحات إضافية، وفهارس وافية قاربت حد الكمال. وتوالى صدور الأجزاء - وإن ببطء كبير - سنة بعد سنة، فصدرت الأجزاء الأحد عشر الأولى ما بين ١٩٢٧ و ١٩٣٨. ثم توقفت الدار عشر سنوات كاملة عن متابعة الإصدار (خلال فترة الحرب العالمية الثانية وما تلاها من أزمات على الساحتين المصرية والعربية) إلى أن أصدرت الجزءين الثاني عشر والثالث عشر سنة ١٩٥٠م. ومرّة جديدة توقفت الدار عن متابعة نشر الكتاب وألغي القسم الأدبي بها سنة ١٩٥٥م (وهو الذي كان يتولى عملية الإصدار). وفي سنة ١٩٥٨م صدر الجزء الرابع عشر (عن مطبعة وزارة التربية والتعليم) والخامس عشر سنة ١٩٥٩م والسادس عشر سنة ١٩٦١م. وتوقفت الدار نهائياً بعد ذلك عن متابعة المشروع. وتولّت الهيئة المصرية العامة للكتاب في سنة ١٩٧٠م متابعة إصدار بقية الأجزاء، بعد أن شكّلت لجنة خاصة بنشره بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم، فصدرت الأجزاء (١٧ - ٢٤) خلال خمس سنوات (١٩٧٠ - ١٩٧٤م)، (كما أصدرت طبعة جديدة للجزء الأول من طبعة دار الكتاب). وبالرغم من هذا البطء وذلك الانقطاع الطويلين في تحقيق هذا العمل الذي استغرق سبعة وأربعين عاماً، فإنه قد جاء غاية في الاتقان والتحقيق العلمي الدقيق، وزوّد بفهارس متنوعة لم تترك إلا القليل لمن يريد أن يستزيد! وجاءت الفهارس - أو الكشافات - إجمالاً كالآتي:

١ - فهرس التراجم.

٢ - فهرس الموضوعات.

٣ - فهرس الشعراء.

٤ - فهرس رجال السند.

٥ - فهرس المغنين.

٦ – فهرس رواة الألحان.

٧ – فهرس الأعلام.

٨ – فهرس الجماعات والقبائل.

٩ – فهرس الأماكن.

١٠ – فهرس القوافي.

١١ – فهرس أنصاف الأبيات.

١٢ – فهرس أيام العرب.

١٣ – فهرس الأمثال.

١٤ – فهرس أسماء الكتب (التي ذكرها أبو الفرج في سياق النص).

١٥ – فهرس مراجع التحقيق (وهو كشاف بالمعلومات التي رجع إليها المحققون وليس مجرد ببليوغرافيا).

ومع ذلك لم تسلم هذه الفهارس من بعض النقد والتي أثارها محقق ومعدّ فهارس طبعة دار الثقافة بيروت كما سنرى. ولعل من المفيد الإشارة إلى أنه قد حان الوقت لكي تصدر الهيئة المصرية العامة طبعة جديدة(٤٧) لهذا الكتاب، تأخذ فيها بعين الاعتبار بعض الأخطاء التي وقعت في الكتاب، وتضم إليها التصويبات والاستدراكات الملحقة بآخر الأجزاء، والأهم من ذلك كله أن تصدر الفهرس العام الشامل للمجلدات الأربعة والعشرين مجتمعة(٤٨). ومع ذلك تبقى هذه الطبعة الرائدة أمّ الطبعات المحققة، وإليها يعود الفضل في تيسير كتاب الأغاني – بعضه إن لم يكن كله – وانتشاره بين قراء العربية، ومنها استفادت وعنها أخذت – جميع الطبعات اللاحقة.

رابعاً – طبعة دار الثقافة ببيروت (١٩٥٥ – ١٩٦٤)

شكّل توقف دار الكتب المصرية عن متابعة إصدار الأغاني بعد سنة ١٩٥٠م – وإن مؤقتاً – حافزاً أمام دار الثقافة ببيروت لكي تعيد طبع الكتاب وتكمله في فترة زمنية قياسية. وقد كلفت الدار الشيخ عبد الله العلايلي، اللغوي الكبير، والأستاذين موسى سليمان وأحمد أبو سعد للإشراف على مراجعة وطبع الكتاب – فأصدرت الأجزاء الأربعة عشر الأولى مستندة إلى طبعة دار الكتب، منقّحة ومضيفة بعض الشروحات والتصويبات، ثم تابعت إصدار ما تبقى من أجزاء بالاستناد إلى طبعتي بولاق والساسي وإلى المخطوطات المحفوظة بدار الكتب، بعد أن كلفت الأستاذ عبد الستار أحمد فراج – الذي أصبح فيما بعد عضوا في المجمع العلمي بمصر – بتحقيق الأجزاء ١٧ – ٢٣ بالإضافة إلى عمل الفهرس. وانتهت من إصدار الكتاب كاملاً في سنة ١٩٦٠م أما الفهارس فصدرت في مجلدين خلال سنة ١٩٦٤م.

وتعد طبعة دار الثقافة من الطبعات الجيدة والمتقنة، بالإضافة إلى تقديمها فهرساً جامعاً شاملاً. وقد أورد الأستاذ عبد الستار بعض النقائص التي وقعت فيها فهارس دار الكتب، وهي نقاط جديرة بأن تؤخذ بعين الاعتبار عند إعداد الفهرس الشامل لطبعة الهيئة. كما أن فهرس دار الثقافة يقدم بعض الفهارس الإضافية، منها مثلاً فهارس المائة صوت المختارة والأصوات الأخرى... وبالإضافة إلى ذلك فهذا الفهرس يشير إلى الأجزاء الخمسة عشر من

طبعة دار الكتب وكذلك طبعة بولاق وكتاب تجريد الأغاني لابن منظور وهذا ما يجعل منه فهرساً جامعاً لأكثر من طبعة ويكسبه قيمة إضافية. وتجدر الإشارة إلى أن الدار قد أعادت إصدار هذا الكتاب للمرة الثامنة فيما تسميه «الطبعة الثامنة» (١٩٩٥م).

الطبعات اللاحقة

بعد صدور هاتين الطبعتين توالى صدور الطبعات المختلفة في بيروت والقاهرة . . . ولسنا في صدد استعراض هذه الطبعات، إنما ينبغي أن نقول بأن طبعات بيروت اللاحقة هي في الغالب منقولة بطريقة أو بأخرى عن الطبعات السابقة. كما ينبغي أن نشير إلى أن بعض هذه الإعادات سقيم، كطبعة دار التوجيه اللبناني التي أصدرت «طبعة مصورة كاملة عن طبعة بولاق الأصلية» (سنة ١٩٨٠م) موهمة القارئ بأن ذلك شرف كبير تقوم به هذه الدار «الطموحة»!. أما «مؤسسة جمال» فقد أصدرت – على حد زعمها – «طبعة كاملة الأجزاء ومعها فهرس جامع وتصويبات واستدراكات . . . مصورة عن طبعة دار الكتب وهذا الأمر ليس صحيحاً . . . فلقد بلغ عدد الأجزاء المصورة ١٦ جزءاً فقط. وهي كما يبدو من عنوانها «المنسوخ» أنها مصورة – عن مصورة! – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. وكانت دار الحياة قد أصدرت طبعة مؤلفة من ١٢ جزءاً دون تحقيق. ومن الطبعات الحديثة طبعة أصدرتها دار الكتب العلمية في بيروت في ٢٧ مجلداً [المجلد ٢٥ هو ملحق بأخبار أبي نواس(٤٩) والمجلدان ٢٦ و٢٧ فهارس]. ولسنا نشك في أنها منقولة عما سبقها من طبعات مع تغيير في شكل الحروف ومواقع الصفحات دفعاً لتهمة التزوير!.

ومن بين الطبعات التي تستحق الذكر، تلك التي أصدرتها دار الشعب بالقاهرة، بإشراف وتحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري ، – والذي تقول الدار أنه قضى اثنتي عشرة سنة في تحقيقها – وذلك في ٣١ مجلداً خلال السنوات ١٩٦٩ – ١٩٧٩. وهي طبعة مهمّة وتتميّز عن الطبعات الأخرى بما يلي:

١ – الترقيم متواصل (د، ١٠١٧١ص).

٢ – فهرس شامل يتشكل من ٦ فهارس مختلفة. علماً بأن هذا الفهرس لا يشير إلى الأجزاء بل إلى الصفحات، وهذه نقيصة، إذ كان يجب الإشارة إلى كلا الأمرين تسهيلاً للوصول إلى المعلومات بسرعة إذ كيف يستطيع القارئ أن يحدس وقوع صفحة معينة في مجلد ما؟.

مختصرات الأغاني

بعد أن استعرضنا المراحل التي مرّ بها كتاب الأغاني مخطوطاً ومطبوعاً، بقي أن نستعرض أهم الاختصارات والتجاريد والتهذيبات والاختيارات التي ولدت من رحم الأغاني. فكل كتب التراث العربي القديم، التي تتميز بالضخامة والشمولية، قام عدد من الكتاب – قديماً وحديثاً – بإعداد مختصرات للأغاني وذلك لأسباب كثيرة منها نظام الترتيب غير المألوف، أو كثرة الأسانيد، أو تشابك الروايات، أو تداخل الشعراء، أو غموض الإشارات الموسيقية، أو النقص في بعض الأشعار، أو احتواؤه على الفاحش من الشعر . . . فها هو الخوري يوسف عون مثلاً – أحد مختصري كتاب الأغاني – يقول بأن الأغاني أصبح اليوم كتاب خزانة، لا كتاب

مطالعة، لضيق وقت الأكثرين عن الانصراف إليه، ناهيك بما حوى من قصص وحوادث تخطاها الزمن. ومن أحاديث تكررت أحياناً فنقلت، وعبارات فحشت فسمجت. كل هذا دفعني إلى مغامرة أدبية سلخت من عمري خمساً ماندمت عليها، قضيتها في اختصار المجلدات الثلاثة والعشرين بمجلد واحد . . . ذاك الأديب.. ضننت به أن يصير خدين النسيان ورميم الغبائر فعصرنته وجلوته فتى شهيّ الطلعة، حلو الحديث، مهذب العبارات»(٥٠).

وأول من اختصر «الأغاني» هو أبو الفرج نفسه، الذي تحدث عن كتاب له بهذا المعنى سمّاه «مجرد الأغاني» ولكنه لم يصلنا. ثم قام ابن واصل الحموي المتوفى سنة ٦٩٧هـ بتلخيص الأغاني في كتاب سماه «تجريد الأغاني من ذكر المثالث والمثاني»، كما جرده من الأسانيد والمكررات. ثم قام ابن منظور محمد ابن مكرم المتوفى سنة ٧١١هـ – وهو صاحب معجم لسان العرب المشهور – بتأليف كتاب سماه «مختار الأغاني في الأخبار والتهاني».

وتحرّزا من الإطالة، سوف نستعرض باختصار، وبتسلسل زمني، الكتب المطبوعة من هذه المختصرات والتي أتيح لنا الاطلاع عليها في مكتبة يافت التذكارية بالجامعة الأمريكية في بيروت:

١ – **رنّات المثالث والمثاني في روايات الأغاني** / جمعه وطبعه أحد الآباء اليسوعيين. ـ بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٨٨٨م . ـ ٢ج.

الجامع هو الأب أنطون صالحاني، وقد أعيد إصدار الكتاب سنة ١٩٢٣، ثم سنة ١٩٣٩ إنما بإضافة جزء ثالث: الروايات الأدبية.

٢ – **مهذب الأغاني** / صنفه محمد الخضري . ـ القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٢٥ . ـ ١ج. ج ١ – ٢. في الشعراء الجاهليين – ج٣ – ٦. في الشعراء الإسلاميين – ج٧ – ٨. في الشعراء الإسلاميين والمحدثين – ج٩. في الشعراء العباسيين – ج١٠. المغنون.

٣ – **قطوف الأغاني** . ـ ١٩٥٠م . ـ بيروت: دار مكتبة صادر، ١٩٥٠م. وهذه سلسلة منفردات أشرف عليها كرم البستاني. «وهي نهج جديد في ترتيب كتاب الأغاني . . . لم يحذف منه إلا الإسنادات والتعريف بالألحان والقصص والأشعار المنافية للأدب». وقد اطلعنا على سبعة كتب من هذه السلسلة.

٤ – **تجريد الأغاني** / تأليف ابن واصل الحموي، تحقيق طه حسين وإبراهيم الأبياري . ـ القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٥٥ – ١٩٦٥ . ـ ٦ج.

٥ – **مختار الأغاني في الأخبار والتهاني** / اختيار ابن منظور محمد ابن مكرم، حققه وقدم له إبراهيم الأبياري . ـ القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٦٥.

٦ – **المنتخب من الأغاني** / لأبي الفرج الأصفهاني، اختارها ورتّبها خليل الهنداوي. ـ ط١ . ـ بيروت: خياط، ١٩٦٧ . ـ ٥ق . ـ (الروائع المبسطة من التراث العربي والإسلامي، ٢).

٧ – **أغاني الأغاني: مختصر أغاني الأصفهاني** / تخيّرها وتنخّلها وجمعها الخوري يوسف عون، صحّح شرح الحواشي عبد الله العلايلي . ـ بيروت: مؤسسة أ. بدران، ١٩٧٥ . ـ (١٢)، ٦٨٧ص.

٨ - **اختيارات من كتاب الأغاني / لأبي الفرج الأصفهاني**، صنّفه إحسان النص . - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢ - ١٩٨٥ . - ٦ ق.

ق١. العصر الجاهلي - ق٢. العصر الجاهلي الإسلامي. - ق٣ - ٤. العصر الأموي - ق٥ -٦. العصر العباسي.

ولا يسعنا في نهاية هذا العرض إلا أن نقول - مستعيرين ذلك من طبعة دار الكتب العلمية ببيروت - بأننا لن نكون آخر من يتصدّى لكتاب الأغاني بالشرح والتعليق، ولن يكون غيرنا، ممن سيتصدى له بعدنا، آخر المشتغلين فيه. لأن «الأغاني» أشبه بالبحر الزاخر، فمهما غاص الغائصون فيه يلتقطون الدرر العصماء فهيهات أن ينفد معينه»(٥١)!

الحواشي

١ - تثير المفاضلة بين النسبتين مشكلة بالنسبة لعملية تحقيق الاسم من الناحية الببليوغرافية، إذ ينبغي تحديد الصيغة الأكثر شهرة وشيوعاً لتبنيها كمدخل للاسم. ومن أصل واحد وعشرين مرجعاً تاريخياً ذكرها الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي في كتابه: (أبو الفرج الأصبهاني وكتاب الأغاني . - القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٥١ . ص٧٣ - ٨٠) تبين لنا أن تسعة عشر منها تذكره بأبي الفرج الأصبهاني. ولم يذكره بلقب الأصفهاني إلا ابن شاكر الكتبي وأبو الفدا إسماعيل. ومع الإشارة إلى أن ياقوت الحموي - مثلاً - في ترجمته لأبي الفرج ذكره خمس مرات بالأصبهاني ومرتين بالأصفهاني. أما كتاب الأغاني نفسه فنجده يستعمل أيضاً الصفتين فهو في الصفحة الأولى من مقدمته يقول: «هذا كتاب ألفه علي بن الحسين الكاتب المعروف بالأصبهاني. وفي الصفحة ٣٢٥ من الجزء الأول: «قال مؤلف هذا الكتاب أبو الفرج الأصفهاني». إلا أن الصيغة الغالبة هي الأصبهاني بين القدماء والمحدثين على السواء.

٢ - يقول الدكتور أحمد لواساني رئيس قسم اللغة الفارسية وآدابها في الجامعة اللبنانية في دائرة المعارف/ بإدارة فؤاد أفرام البستاني، (٤: ٣٠١)، تحت مادة أصفهاني ما يلي: «وبشأن تحريكها من يقول ياقوت: أصبهان منهم يفتح الهمزة وهم الأكثر، وكسرها آخرون منهم السمعاني وأبو عبيد البكري الأندلسي. ولئن كان الأمر كذلك في عهد ياقوت أو غيره، فما يجب توضيحه هنا أن الاسم يلفظ اليوم بكسر الهمزة وتسكين الصاد ومع الفاء المفتوحة «إصفهان» عند جميع القارئين بدون استثناء سواء في إيران أو خارجها.

٣ - خلف الله، محمد أحمد . - صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني الراوية . - ط٣. - القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٩٦٨ . - ص٢٣.

٤ - بروكلمان، كارل . تاريخ الأدب العربي/ ألفه بالألمانية كارل بروكلمان، الإشراف على الترجمة العربية محمود فهمي حجازي . - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م - ق٢، (٣ - ٤)، ص٧١.

٥ - الأصمعي . . . المصدر السابق، ص١١٨.

٦ - قمت باستخلاص عدد الرواة من رسالة الطالبة الباحثة عفاف مزعل سليمان أبو الشعر، فبلغ عدد الأشخاص الذين روى عنهم أبو الفرج مباشرة مائة وثمانية أشخاص، وهؤلاء بدورهم رووا عن حوالي أربعمائة واثنين وستين شخصاً. وهؤلاء الرواة الجدد - أو رواة الرواة - بدورهم عن رواة إضافيين! أما عدد الروايات التي نقلها أبو الفرج فقد بلغ حوالي أربعة آلاف وتسعمائة وثمان وثمانين رواية!. مع الإشارة إلى أن بعض الروايات قد تتكرر إذا كان هنالك مفارقات أو تضارب فيما بينها. راجع: أبو الشعر، عفاف مزعل سليمان . - كتاب

الأغاني: (أصوله ومنهج صاحبه وخصائصه وأثره) . ـ رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة القديس يوسف، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، (؟ – ١٩٧)، الأوراق ٣٨ – ١١٦.

٧ – المصدر نفسه، ورقة ٣٨.

٨ – المصدر نفسه، ورقة ٣٨. وقد قامت الباحثة بترتيب الرواة بحسب عدد رواياتهم.

٩ – لمزيد من الاطلاع على سير هؤلاء الرواة يمكن مراجعة كتاب محمد عبد الجواد الأصمعي المذكور أعلاه، ص٧٣ – ٨٠.

١٠ – ياقوت الحموي . معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب/ تحقيق إحسان عباس . ـ ط١ . ـ بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م . ـ ج٤، ص١٧٠٧.

١١ – الأصمعي المصدر السابق، ص١٧٢ – ١٧٥.

١٢ – يشكك الدكتور خلف الله في تاريخ وفاته بالاستناد إلى قرائن قوية ومراجع تاريخية، ومن بينها «فهرست» ابن النديم، ويرجح تاريخ وفاته بـ«سنة نيف وستين وثلاثمائة» وبذلك يكون أبو الفرج قد عاش ثمانين عاماً. والله أعلم! (خلف الله، المرجع السابق، ص٢١).

١٣ – انظر أبو الفضل محمد إبراهيم في: أبو الفرج الأصبهاني، علي بن الحسين . ـ كتاب الأغاني/ لأبي الفرج الأصفهاني، إعداد لجنة نشر كتاب الأغاني، بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م . – ص٣ من المقدمة. والمقدمة مؤرخة أصلاً في يوليه ١٩٧٠م. ومعظم إشاراتنا إلى كتاب الأغاني ستكون لهذه الطبعة إلا إذا ذكر خلاف ذلك (وهي إعادة إصدار للأجزاء ٢ – ١٦ من طبعة دار الكتب، أما الجزء الأول فهو يعتبر طبعة جديدة. وبقية الأجزاء كانت قد أصدرتها الهيئة تكملة لطبعة دار الكتب كما سنرى).

١٤ – تقع مخطوطة الأغاني في حدود خمسة آلاف ورقة على ما ذكر ابن النديم في الفهرست. أما طبعة دار الكتب المصرية المكملة من قبل الهيئة المصرية العامة للكتاب فتقع في ٢٤ مجلداً من القطع الكبير (٢٩سم). وقد قمت بجمع صفحاتها فبلغت (١١٢٤٧) صفحة منها حوالي ثمانية آلاف صفحة من النص الخالص والباقي للفهارس والحواشي. أما طبعة دار الثقافة ببيروت فيبلغ عدد صفحات مجلداتها الثلاث والعشرين (٨٦٠٤) صفحات بالإضافة إلى (٨١٧) صفحة لمجلدي الفهارس. أما طبعة دار الشعب ذات الترقيم المتسلسل فبلغت (١٠١٧١) صفحة بالإضافة إلى (٤٨٥) صفحة للفهارس.

١٥ – ابن خلدون . كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . . . – بيروت : دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦ – ١٩٥٩م . ـ ١:١:١٠٣٩ – ١٠٤٠.

١٦ – ياقوت الحموي. المصدر السابق، ص١٧٠٨.

١٧ – ابن خلكان . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان/ لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، حققه إحسان عباس . ـ بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٠ – ١٩٧٤م. ٣:٣٠٧.

١٨ – ومنهم أبو محمد الحسن بن الحسين النوبختي أحد معاصريه إذ يقول: كان أبو الفرج الأصبهاني أكذب الناس، كان يدخل سوق الوراقين وهي عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته، ثم تكون رواياته كلها منها . ـ في: الأصمعي . ـ المصدر السابق نقلاً عن تاريخ بغداد للخطيب (١١:٣٩٩ طبع مصر)، ص١٠٠ – ١٠٢. ومع الإشارة المنصفة إلى أن أبا الفرج لم ينكر أنه نقل عن رواته بل أنه أسرف في ذلك وأطال.

١٩ – العلايلي، عبد الله. «كلمة تقدير في: أغاني الأغاني» مختصر أغاني الأصفهاني، تخيّرها وتنخلها وجمعها الخوري يوسف عون، صحّح شرح الحواشي الشيخ عبد الله العلايلي . ـ بيروت: مؤسسة أ. بدران، ١٩٧٥م . ـ ص(١).

٢٠ – دياب، عبد المجيد . ـ «كتاب الأغاني: (رؤية تحليلية)» في: عالم الكتاب، عدد ٣٨ (أبريل ١٩٩٣م)، ص٧٢.

٢١ – ياقوت الحموي . ـ المصدر السابق، ص١٧٠٨.

٢٢ – هو وزير آل بويه، وكاتبهم من كبار المصنفين في اللغة وغيرها (٣٢٦ – ٣٨٥هـ) وله معجم المحيط في اللغة في ٧ مجلدات.

٢٣ – ياقوت الحموي . ـ المصدر السابق، ص١٧٠٨.

٢٤ – ولد اسحاق بن إبراهيم الموصلي سنة ١٥٠هـ = ٧٦٧م «ونال من التأديب والثقافة حظاً عظيماً، فكان موسيقياً ابن موسيقي، وكان إمام هذه الصنعة بلا منازع، توفى سنة ٢٣٥هـ = ٨٤٩م ولم يبق لنا شيء من مصنفاته

الكثيرة في الموسيقى والرقص وأخبار المغنين والمغنيات» (بروكلمان، المصدر السابق ص٦٧ - ٦٨).

٢٥ - النص، إحسان. - اختيارات من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢. - ق١، ص١٤.

٢٦ - شكك محققو طبعة دار الثقافة ببيروت - وهم بداية عبد الله العلايلي، موسى سليمان وأحمد أبو سعد - في أن تكون المقدمة من تأليف أبي الفرج... وسموها في طبعتهم «توطئة»، مفترضين أن شخصاً آخر قام بكتابتها بالرغم من ورودها مخطوطة وملازمة للنص الأساسي. (؟) وربما بنوا استنتاجاتهم أنها تتحدث عن أبي الفرج بصيغة الغائب.

٢٧ - نشير إلى أن «الصوت» بلغة أبي الفرج وأهل زمانه هو اللحن في زماننا وما يقابله بالإنكليزية هو Vocal Piece، والإيقاع تقابلها كلمة Rhythmic mode والاصبع Melodic mode والنغم هو Mode. وكل هذه التعابير تعود لآلة العود. لمزيد من الاطلاع يمكن مراجعة: فتح الله، جرجيس. معاني أسماء الأصوات في كتاب الأغاني للأصبهاني. - بغداد: مطبعة المجمع العلمي، ١٩٥٨، ص١٥ وما يليها.

٢٨ - الألحان التي ذكرها أبو الفرج في كتابه تنحصر بشكل عام في ثمانية ألحان هي:

- ثقيل أول.
- ثقيل ثان.
- خفيف ثقيل أول.
- خفيف ثقيل ثان
- رمل.
- خفيف رحل.
- هزج.
- خفيف هزج. (فتح الله، المصدر نفسه ص٢٠ - ٢١).

٢٩ - ياقوت الحموي. - المصدر السابق، ص١٧٠٨ و ١٧١٩.

٣٠ - ياقوت الحموي. - المصدر السابق، ص١٧١٩.

٣١ - سزكين، فؤاد. تاريخ التراث العربي/ تأليف فؤاد سزكين، نقله إلى العربية محمود فهمي حجازي. - ٢:١. التدوين التاريخي، ص٢٨٣ - ٢٨٤.

٣٢ - بروكلمان. المصدر السابق.

٣٣ - يقدر الدكتور جليل العطية أن المخطوطات المتوفرة من هذا الكتاب بنحو مائتي نسخة كاملة وناقصة موزعة في أنحاء العالم. وهذا الرقم المستند إلى بروكلمان وسزكين مبالغ فيه كثيراً، علماً بأن البيانات التي ذكرها بروكلمان مشمولة ضمن بيانات سزكين. (راجع، القيان/ أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق جليل العطية. - لندن: رياض الريس، ١٩٨٩م. - ص٢٢). وعن الدكتور العطية نقل الدكتور حسين عاصي هذه البيانات في كتابه: أبو الفرج الأصفهاني: عصره، سيرة حياته، مؤلفاته. - ط١. - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م. - ص٨٦. ودون أن يشير إلى ذلك! ولا أدري ما إذا كانت نسخة بلدية الاسكندرية هي من ضمن هذه المخطوطات أم لا ويشير الدكتور جليل العطية إلى أن هذه المخطوطة محفوظة بمكتبة البلدية تحت رقم (١٢٢٩ب) (القيان، ص٢٢).

٣٤ - وهي مدينة (Greifswald) الألمانية حالياً حيث يبلغ عدد سكانها الآن حوالي ٦١ ألف نسمة. وقد كانت جزءاً من بلاد السويد سابقاً.

٣٥ - ونورد هنا بطاقة مكتبة الكونجرس الأمريكي المصورة عن فهرسها الشهير ويبدو في أسفلها رموز المكتبات الستة التي تقتني هذا الجزء.

Abu al-Faraj al-Isbahani, 897 or 8967. Liber Cantilenarum magnus excodicibus manuscriptis Arabice editus adiectaque translatione adnotationibusque illustratus abloanne Godofredo Ludovico Kosegarten. Tomus primus. Gripesvoldiae, In Liberia Kochiana, 1840 . 336p. ;28cm.

هذا كتاب الأغاني : Added t. p. الكبير، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني. المجلد الأول.

A thesaurus of all pieces of poetry which had been set to music down to the compiler's time, with biographies of both poets and musicians. No more published. The Latin text ends abruptly at p. 336.

1- Songs, Arabic. 2- Music, Arabic. I. Kosegarten, Johann Gottfried Ludwig, 1702-1860, ed. PJ 7653. A2K5 1840 11-3174 rev2.
DL NN ICU OCI NJP NNU NUC, pre56, v.2, p.24

ومن الغريب العجيب أن نقرأ للدكتور حسين عاصي الأستاذ في الجامعة اللبنانية ما يلي: «أقدم طبعات الأغاني هي الطبعة الألمانية(؟) إذ قامت جامعة كوزجارتن (هكذا !!) بطبع الجزء الأول منه مع ترجمة ألمانية (هكذا) له سنة ١٨١٠م». (عاصي - المصدر السابق، ص٩٠).

وهو قد نقل أيضاً عن المحقق الدكتور جليل العطية(!) دون أن يشير إلى مصدر معلوماته «الدقيقة»! (انظر القيان/ أبو الفرج الأصبهاني، تحقيق جليل العطية. ـ لندن: رياض الريس، ١٩٨٩. ـ ص٢٢.

٣٦ – هكذا اشتهرت. وتقتني مكتبة يافت التذكارية نسختين من هذه الطبعة وحالتهما المادية متوسطة. ويبلغ مجموع صفحاتها (٣٧١٧) صفحة.

٣٧ – وقد شكك محققو طبعة دار الكتب المصرية بداية الأمر في صحة نسبة هذا الجزء إلى أبي الفرج. إلا أنهم عادوا عن ذلك لاحقاً وألحقوا معظم التراجم في موقعها الأساسي في طبعتهم. (تصدير الأغاني، ١:٦٤ – ٦٥، من طبعة ١٩٩٢).

٣٨ – Guidi, Ignazio. - Tables alphabetiques du Kitab al-Agani.../par I. Guidi, avec la collaboration de R.E. Brunnow...{et. al.}. - Leiden: E.J. Brill, 1900.-xi,769p.

٣٩ – هكذا اشتهرت. وقمت بجمع صفحاتها فبلغت ٣٠٧٢ صفحة بالإضافة إلى ٩٠٦ صفحات من الفهارس. وفي مكتبة يافت التذكارية نسخة كاملة من هذه الطبعة وحالتها المادية متوسطة. وينبغي أن نشير إلى أن هذه الطبعة هي فعلاً إعادة إصدار لطبعة بولاق، ولا تختلف عنها إلا بترقيم الصفحات، ولو كان التصوير بالأوفست معروفاً في ذلك الوقت، لكان عمد القيمون على هذه الطبعة إلى تصوير طبعة بولاق بدلاً من إعادة صف حروفها. إلا أن هذه الطبعة بها بعض التصحيحات التي قام بتحقيقها محمد بن الأمين الشنقيطي.

٤٠ – انظر مقدمة إبراهيم الأبياري في: مختار الأغاني في الأخبار والتهاني/ اختيار ابن منظور محمد بن مكرم، حققه وقدم له إبراهيم الأبياري. ـ القاهرة: المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٥. ـ ج١، ص(ب).

٤١ – محمد محمود بن التلاميد (بالدال) التركزي الشنقيطي المتوفى سنة ١٣٢٢هـ (راجع: سركيس، يوسف اليان. معجم المطبوعات العربية والمصرية. ـ ٢:١١٤٩ – ١١٥٠).

٤٢ – نسبة إلى واقفها على طلبة العلم أحمد زكي باشا. وهو الذي كان قد أشار على الأصمعي بنشر التصحيحات في كراسة مستقلة.

٤٣ – الشنقيطي، محمد محمود. ـ تصحيح كتاب الأغاني / بقلم محمد محمود الشنقيطي، عني بجمعه وطبعه محمد عبد الجواد الأصمعي. ـ القاهرة: المطبعة الجمالية، ١٩١٦م ـ ٧٠ص. انظر المقدمة، ص(١).

٤٤ – ذكرنا في الهامش ١٣ أعلاه أن عدد صفحات هذه الطبعة بلغ (١١٢٤٧) صفحة.

٤٥ – انظر تصدير طبعة الهيئة المصرية العامة، المنقولة عن طبعة دار الكتب ، ١:١٦.

٤٦ – المصدر نفسه، ص١٩.

٤٧ – كما وعدت الهيئة عندما أصدرت طبعة جديدة حقاً من الجزء الأول في سنة ١٩٧٠ – وتقاعست عن إكمال مشروعها وتنفيذ وعدها بإصدار الطبعة الجديدة. (انظر مقدمة محمد أبو الفضل إبراهيم المشار إليها سابقاً). إلا أنها أعادت إصدار الكتاب بكامله – وربما أكثر من مرة – وقد اطلعنا على الإصدارة الأخيرة منه الصادرة ما بين ١٩٩٣ – ١٩٩٤.

٤٨ – وللتدليل على ذلك نورد بعض الأمثلة السريعة مستندين إلى فهرس طبعة دار الثقافة بيروت. فقد وردت أشعار للفرزدق في ٢١ مجلداً، ولعمر ابن أبي ربيعة في ٢٠ مجلداً .. وهذا يعني أن على الباحث لكي يستوفي بحثه في موضوع معين مراجعة الفهارس الفردية واحداً واحداً.

٤٩ – لا تزال ترجمة أبي نواس مفقودة، ويستبعد معظم المحققين أن يكون أبو الفرج قد أغفلها، وقد ذكر محققو طبعة دار الثقافة ببيروت (٢٠:١) أن هنالك مخطوطة في مكتبة غوطا بألمانيا الشرقية رقم (٥٣٢) فيها ترجمة لأبي نواس. إلا أن ذلك لم يثبت على ما يبدو. وترجمة أبي نواس الواردة في طبعة دار الكتب العلمية بيروت مأخوذة عن طبعة دار الشعب والعائدة لابن منظور.

٥٠ – أغاني الأغاني. المصدر السابق، ص٣.

٥١ – الأغاني / لأبي الفرج الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦هـ، شرحه وكتب هوامشه عبد أ. علي مهنا، سمير جابر. ـ ط٢، جديدة ومصححة ومنقحة. ـ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م ـ ١، ص. أ – ب.

عُمَارَةُ اليَمَنيُّ وديوانُه المخطوط

عبد الحميد البقالي
طنجة – المغرب

لا تذكر المرحلة الأخيرة من حكم الفاطميين في مصر، إلا ويلمع اسم شاعر يمني عريق، دوّن تلك الفترة وسجل أحداثها. إنه أبو حمزة نجم الدين عمارة بن أبي الحسن علي ابن زيدان بن أحمد اليمني، والذي ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة للهجرة(١)، على أكبر تقدير. وأما وطنه «فمن تهامة باليمن، مدينة يقال لها مرطان من وادي وساع، وبعدها من مكة في مهب الجنوب أحد عشر يوماً، وبها المولد والمربى، وأهلها بقية العرب في تهامة، لأنهم لا يساكنهم حضري، ولا يناكحونه، ولا يجيزون شهادته ولا يرضون بقتله قوداً بأحد منهم، ولذلك سلمت لغتهم من الفساد»(٢).

في هذا الموطن المحافظ نشأ عمارة على عربيته الخالصة، فصيح اللسان على سنن قومه وعشيرته، حتى أنه لما توجه إلى زَبيد في سن العشرين يطلب الفقه، كان فقهاء المدارس يتعجبون من كونه لا يلحن في شيء من الكلام. بل لقد «أقسم الفقيه نصر الله بن سالم الحضرمي بالله القدير لقد قرأ هذا الصبي في النحو قراءة كثيرة. فلما طالت المدة والخلطة بيني وبينه، صرت إذا لقيتُه يقول: مرحباً بمن حنثت في يميني لأجله. ولما زارني والدي وستة من إخواني إلى زبيد، أحضرت الفقهاء فتحدثوا معهم، فلا والله ما لحن أحدهم لحنة واحدة أثبتوها عليه»(٣).

لقد كانت هذه البيئة العربية الأعرابية في لغتها وعاداتها وتقاليدها مسرح طفولته التي قضاها ينعم برغد العيش ويتلقن أصول المكارم إلى أن هم بالرحيل نحو زبيد لطلب



أنموذج من نسخة «ج»

العلم وذلك سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة للهجرة، وكانت زبيد آنذاك قبلة العلماء والأدباء بحكم تاريخها وموقعها. ولبث فيها مدة من الزمن معتكفاً لا يخرج من المدرسة إلا لصلاة الجمعة، إلى أن أتيحت له فرصة التقرب من الملكة الحرة، أم فاتك آل نجاح صاحب زَبيد(٤)، فتوطدت العلاقة بينهما الشيء الذي أهله لتحمل مسؤولية من طرفها، إذ كلفته بمهمة تجارية في عدن عاصمة دولة بني زريع الشيعيين، كانت فاتحة حياة جديدة سيعيشها عمارة بين أحضان الشيعة العدنيين(٥).

لكن دوام الحال من المحال، إذ سيفتن عمارة في عزه ورغد عيشه، ولا سيما وهو التاجر الذي خرج عن سياق المهمة التي كلف بها. فكثر حوله الحساد ودسوا له لدى أهل زبيد يحرضونهم عليه، ويكثرون الإشاعات والشكوك، وخصوصاً وقد أصبح جليس الدعاة من أهل عدن، وقريبهم وصديق خلواتهم، فأوجسوا منه خيفة وقد لاحظوه ينحاز إلى أهل الدعوة الشيعية. وكانت رسالة الداعي ابن سبأ إليه يستدعيه وهو في زبيد مما زاد في تركيز هذا الخوف وتعظيمه(٦).

وعلى إثر تكالب الأحداث وتثاقلها قرر عمارة الهرب فراراً بنفسه قاصداً مكة متذرعاً بفريضة الحج، فغادر اليمن إلى الحجاز سنة تسع وأربعين وخمسمائة للهجرة، وحل ضيفاً عند قاسم بن هاشم بن فليتة أمير الحرمين الذي سيكلفه سفارتين إلى مصر، سيستقر بعدهما نهائيا في ظل الدولة الفاطمية هناك، حيث طاب مقامه حتى فارق الحياة على يد صلاح الدين الأيوبي، إذ شنقه ومجموعة من أصدقائه عندما حاولوا إرجاع ملك الفاطميين(٧)، وذلك سنة ٥٦٩ للهجرة.

ولقد كانت المرحلة التي قضاها في ظل



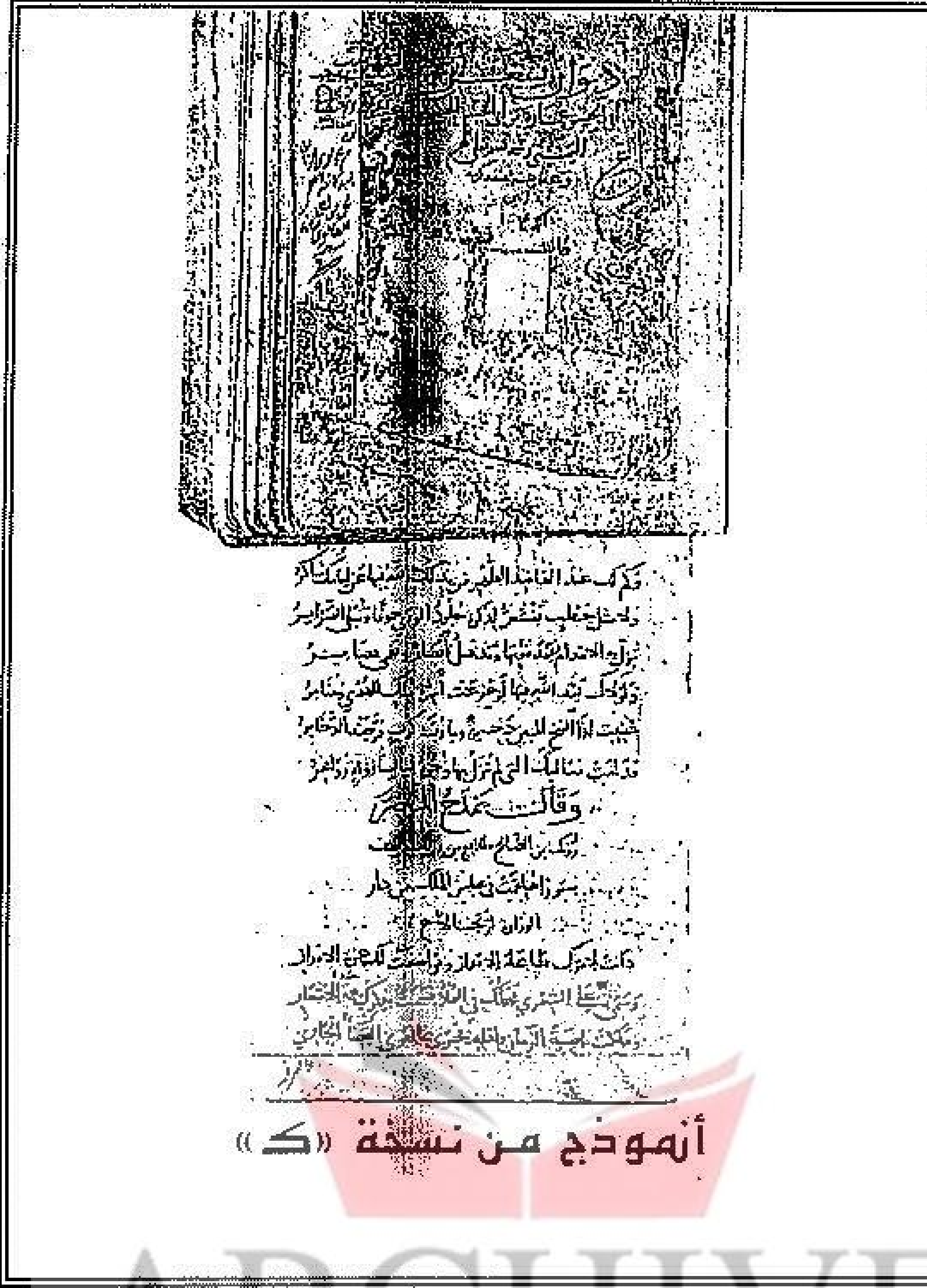
أنموذج من نسخة «د»

الفاطميين من أخصب مراحل حياته شعراً، وأجزلها عطاء فهي مرحلة الاستقرار التي قضى منها سبعة عشر عاماً في ظل الفاطميين، أقبلت عليه الدنيا بكل رخائها وبهائها، وتقدم على الأعيان والأكابر وامتلك الدور والجواري، وأصبح له شأن يعتبر، ومنزلة لاتضاهى. فذاع صيته، وغزر شعره، وعظم قدره، واتخذ الشعر فنه الخاص. فعاش عيشة شعراء البلاط المقربين، وكسب صحبة الملوك والوزراء، فأثنى ومدح ونافح وملأ البلاد شعراً، وأتى بكل رقيق من المعاني في قوالب جزلة فخمة. وحتى عندما تغيرت عليه الأحوال في زمن الأيوبيين – الذين عاش في ظل دولتهم سنتين أخريين. فإنه بقي ينافح بلسانه، ويتحسر على ما مضى وضاع حتى انتهت حياته بالشنق.

ولقد وقفت على هذا الزخم الشعري الجليل من خلال خمس نسخ مخطوطة جعلتها عماد بحثي وأساس رسالتي التي قضيت فيها ما يقارب ست سنوات. **وهذا ثبت لما توصلت إليه من نسخ مخطوطة لهذا الديوان، أعرضها بنوع من التفصيل والوصف.**

أ – نسخة الأستاذ المنوني / « م » :

توجد هذه النسخة في مائة ورقة مسطرة تسعة عشر سطراً، تبتدئ من أثناء قصيدة في حرف الهمزة، وقد انتقل كاتبها بدون اعتذار من حرف «الباء» إلى حرف «الدال»، كما انتقل من حرف «الراء» إلى حرف «العين»، وقد كتب في الورقة التي تبتدئ بها هذه النسخة، وفي الورقة التي تليها ما يلي: «هذا الكلام سوى بعض ما أضيف إليه للإمام العلامة الأديب، الشيخ عمارة اليمني المصري بلداً رحمه الله تعالى، وبه أعلم عبد ربه عبد الرحمن السيوطي الشافعي خار الله له بمنه آمين».



أنموذج من نسخة «ك»

ونسخة هذا الديوان توجد ضمن مجموع خطي كتب على أول صفحة تعتبر غلافاً له ما يلي: «تملك هذا المجلد عبد الله سبحانه محمد ابن أحمد بن زاكور، خار الله له، وسامحه ولطف به بمنه. وإثر هذا التوقيع، تملكه والملك لله العربي بن علي سامحه الله بالشراء الصحيح، والثمن المقبوض، وبذلك صار في نوبته».

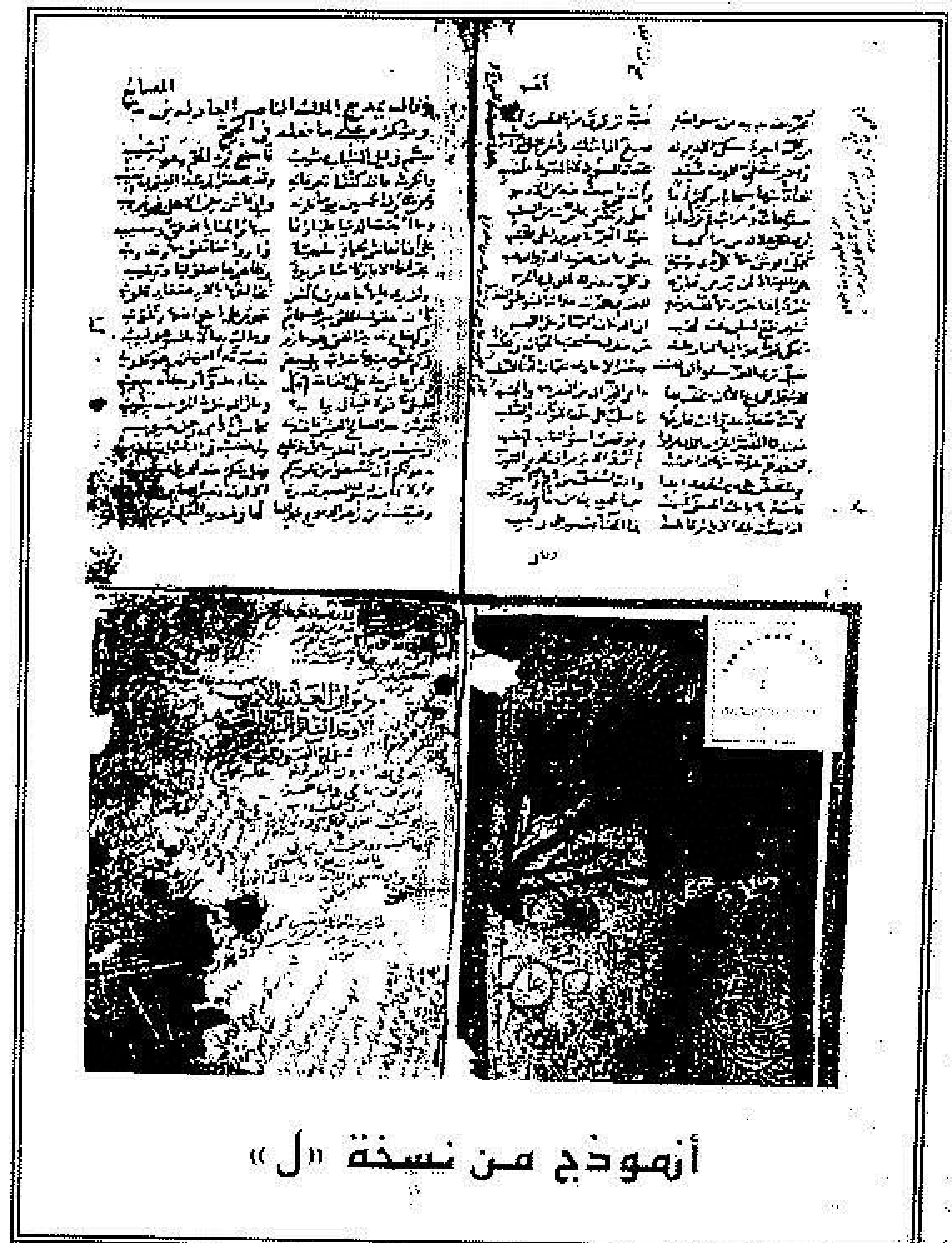
وكُتب في أعلى يمين الصفحة الموالية ما يلي : «الحمد لله، صاحب هذا الديوان الفقيه عمارة اليمني ...»، وفي أسفل الجهة اليسرى من نفس الورقة كُتب: «ملك لله سبحانه بيد عبده محمد بن عبد الهادي المنوني».

ولقد قلت بأن هذه النسخة تتوفر على مائة ورقة مسطرة، كما تتوفر على حوالي

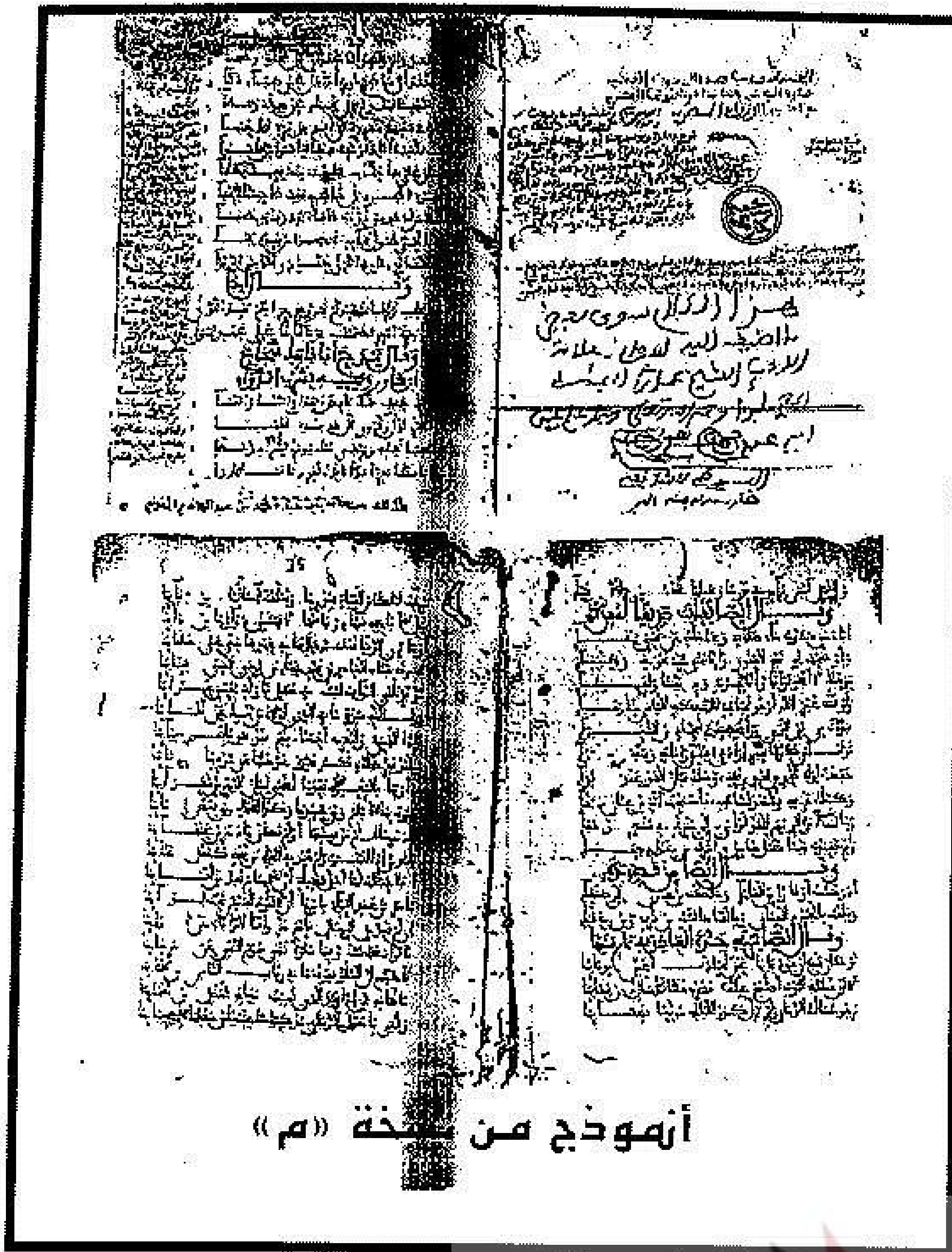
أربع وثمانين قصيدة، وما يقارب خمساً وعشرين مقطوعة، والنسخة مكتوبة بخط مغربي لا بأس به، ومضبوطة بالشكل إلا قليلاً، مما يدل على أن ناسخها المجهول كان عالماً مطلعاً.

والملاحظ أن ورق المخطوط يميل في لونه إلى اللون البني الباهت، وهو من الحجم المتوسط، إذ يصل طول الصفحة إلى عشرين سنتمتراً، وعرضها إلى خمسة عشر سنتمتراً. أما الكتابة فتبدو واضحة إلى حد لابأس به، ماعدا بعض التآكلات بفعل الأرضة، وعامل الزمن وخاصة في المثلث الأيمن من الناحية السفلى لبعض الصفحات.

تبدأ نسخه الديوان من الصفحة السادسة والعشرين ضمن هذا المجموع الذي يحتوي على محاور ستة، وتنتهي بالصفحة الثامنة والعشرين بعد المائة الثانية. وقد وزعت الكلمات على مساحة الصفحات ما بين سبع



أنموذج من نسخة «ل»



أنموذج من نسخة «م»

كلمات وإحدى عشر كلمة على الأغلب، كما أن نهايات الأبيات الشعرية تبدو منسقة تنسيقاً دقيقاً يخضع في الغالب لميزات فنية وشكلية تتلخص فيما يلي:

١ - إبقاء فراغ بين الكلمة الأخيرة في البيت، وباقي الكلمات.

٢ - ابعاد الروي وهاء الوصل وألف الخروج عن ألف الردف في الكلمة الأخيرة.

٣ - توسيع حجم الكلمة الأخيرة من البيت.

٤ - إبقاء شكل الكلمة الأخيرة موازياً لباقي الكلمات، وذلك في الأبيات الطويلة نسبياً، لكي لاتخرج عن إطار المساحة المحدودة.

والناسخ بعد هذا كله لا يعنى بالفصل بين الصدر والعجز في الأبيات بل أبقاهما في سياق خط مشترك.



ب :نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة/« د »

لقد أخبرني بمكانها أستاذنا المنوني، كما أخبرني أنها مسجلة بخزانة الدار تحت رقم (٥٣٠٣ أدب)، وثابرت جاداً للحصول عليها، إلى أن منّ الله علي بعد عناء ومشقة.

لقد جمع أحد الأدباء هذه النسخة ورتبها، ورتب قصائدها باعتبار القافية على حسب الحروف الهجائية، وبها خرم من أثناء حرف «الراء» إلى أثناء حرف «النون»، ونجد في آخر النسخة ابتداء من حرف النون تسع ورقات بخط غير خط القسم الأول. وهذه النسخة مكتوبة بخط نسخ جميل إذا استثنينا الورقات التسع في آخرها، فإن خطها أقل جودة من السابق. أما الجامع المجهول لهذه القصائد فقد ذكر في مقدمة كثير من القصائد معلومات قصيرة عن موضوعها، وعن الشخص الموجهة إليه، وأحياناً عن تاريخها.

ومقاس هذه النسخة ٢٦سم في الطول، و١٧سم في العرض، وتحتوي على ١١٧ ورقة، وفي كل صفحة ١٥ سطراً، مع استثناء الورقات التسع الأخيرة، فإن كل صفحة بها ٢١ سطراً.

وعنوان هذه النسخة: «ديوان الفقيه الأديب أبي محمد عمارة بن أبي الحسين(٩) علي بن زيد الحَكَمي، ثم اليمني عفا الله عنه ورحمه آمين. والحمد لله وحده». وقد ورد في الورقة ١١٨ من هذه النسخة بيان هذا نصه: «هذا آخر ما وجد من شعر الشيخ الفقيه الأديب أبي محمد عمارة ابن أبي الحسن الحكمي ثم التميمي(١٠) عفا الله عنه آمين». وبعد هذا البيان نجده يقول: «وقال يمدح فارس المسلمين» ثم يذكر قصيدتين، يليهما بيان آخر ونصه: «تم الديوان المبارك بحمد الله وعونه وحسن توفيقه».

ج – نسخة المتحف الأسيوي «بلييننجراد» / « ل ».

مقاسها ٢١سم في الطول، ١٥سم في العرض، وتحتوي على ١٩٦ ورقة، وفي كل ورقة ١٩ سطراً. وعنوانها: «ديوان العلامة الأديب الأوحد، الناظم، الناثر، الفقيه عمارة اليمني رحمه الله تعالى». وهذه النسخة مرتبة بحسب الحروف الهجائية، وخطها واضح بحبر أسود، وجامعها يذكر معلومات قصيرة عن كثير من القصائد، وعن الشخص الموجهة إليه كل قصيدة وأحياناً عن تاريخها. وورد في الورقة ١٩٤ منها، بيان جاء فيه: «هذا آخر ما وجد من شعر الشيخ الفقيه الأديب أبي محمد عمارة ابن أبي الحسن الحكمي، ثم اليمني عفا الله عنه». وورد بعد ذلك البيان قصيدتان، يليهما بيان آخر هو : «تم جمع الديوان بحمد الله وعونه وصلواته على خير خلقه محمد وآله وصحبه، وسلامه، على يد العبد الفقير إلى الله تعالى، الفائز من به يكتفي أحمد بن أبي بكر بن أحمد المالكي السنفي عفا الله عنه، وغفر له ولوالديه ولما(١١) نحبه، ولجميع المسلمين آمين. وكان الفراغ يوم الأحد ٩ شوال سنة ٩٨٤هـ».

وهذه النسخة ليست خالية من الأغلاط، ولكنها في مجموعها تعتبر كاملة. ولو قارنا هذه النسخة بنسخة دار الكتب المصرية، لوجدنا الاتفاق يكاد يكون تاماً بينهما إلا في ثلاثة أشياء وهي:

١ - الخرم الذي يوجد بنسخة «د»، بينما نسخة «ل» بريئة منه.

٢ - الاختلاف في عدد أسطر كل صفحة، ومقاس الأوراق وعددها.

٣ - البيان الأخير في كلتا النسختين مختلف لفظاً ومعنى، وعنوانهما متفقان معنى لا لفظاً.

د - نسخة المكتالملكية «بكوبنهاجن» / « ك » :

وهي عبارة عن ٣١٥ ورقة تحتوي على ٣١٩ قصيدة، وبكل صفحة ١٣ سطراً، والورق أبيض رغم طبقة الزيت التي عليه. وطول الورقة ١٨سم وعرضها ١٤سم، وفي أكثر من ورقة يرى السطر الأول مقطوعاً بغير انتظام، نتيجة قص المجلد لها. ويظهر أنهم حاولوا إعادة العبارات التي قطعت من نسخة أخرى لا يعلم مصدرها، ولا مقدار مطابقتها للحقيقة. ومع ذلك ففي صفحتي (٢١٠ - ٢١١) نقص لم يستطع أحد أن يكمله. وهي تختلف عن سابقاتها في الأصل والترتيب. ولكن الذي لا شك فيه أنها معاصرة لوقت تأليفها، كما يشهد بذلك قارئ لها، يقول في صفحة (٣١٥) : «طالعه الفقير إلى رحمته، الخاضع لهيبته، علي بن نقش، بثغر الاسكندرية حرسها الله، سلخ ربيع الأول سنة أربع وستمائة».

هـ - نسخة «جوته» بألمانيا / « ج »:

لا تعتبر هذه النسخة خاصة بديوان عمارة كالنسختين السابقتين، ولكنها تحتوي على:

- كتاب «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية» للشاعر نفسه.
- قصائد من شعره.
- مقاطيع من ترسلاته.

مقاسها ٢٠سم في الطول، ١٤سم في العرض، وتحتوي على (١٤٩) ورقة، وفي كل صفحة ١٥ سطراً. ويوجد في هذه النسخة خرم يقدر بنحو عشر ورقات فيما بين صفحتي ١٠ و٢١. أما خطها فمن عمل كاتب ماهر أكثر منه أمين، وجاء في مقدمة هذه النسخة: «بسم الله الرحمن الرحيم - رب يسر برحمتك - أخبرنا الشيخ الأجل الفاضل البارع الأمين نبيه الدين أبو الطاهر اسماعيل ابن عبد الرحمان بن أحمد الأنصاري الكاتب غفر الله له، ورضي عنه في شوال سنة إحدى عشر وستمائة بمصر. قال: قال القاضي الفقيه الأرشد أبو محمد عمارة بن أبي الحسن الحكمي ثم اليمني، وسمعت ذلك منه في شهر». وباقي السطر أبيض، ومعنى هذا أن أبا الطاهر المذكور روى مواد هذه النسخة عن عمارة، ثم جاء بالنسخة الخطية بعد تلك المقدمة اسم الكاتب. وهو: «كتاب فيه النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، تأليف القاضي الفقيه الأرشد أبي محمد عمارة بن أبي الحسن الحكمي ثم اليمني رحمه الله، وفيه قصائد من شعره، ومقاطيع من ترسلاته أيضاً، رضي الله عنه وعن جميع المسلمين».

وبالفعل فإن «النكت» يتبعها قصائد

ومقطوعات شعرية، ثم رسائل مسجوعة، وفي النهاية قصيدة في مدح العاضد وشاور في ٥١ بيتاً، مع العلم بأن كل ما هو وارد في هذه النسخة من الشعر موجود أيضاً في نسخة «لينجراد»، يستثنى من ذلك خمس قطع.

ويلاحظ في هذه النسخة أنه لم يذكر شيئاً يدل على نهاية «النكت» وبداية الديوان، اللهم إلا الانتقال من صيغة المتكلم إلى صيغة الغائب، مما يدل على أن الاستمرار قد قطع، أما تتابع القصائد فيها فلا يرتكز على قاعدة، فلا هو بحسب النظام الهجائي، ولا الترتيب التاريخي، ولذلك فإنها واردة في النسخة بدون ترتيب ولاتبويب، كأنها أوراق متناثرة جمعت الواحدة إلى الأخرى، دون نظر إلى ما سطر عليها.

وهناك قصائد قليلة وردت في هذه المقطوعة متجاورة، حتى لنكاد نحس أن تقاربها بعضها إلى بعض كان مقصوداً. وقد جاء في نهاية هذه النسخة: «وكان الفراغ من نسخه ليلة خميس العدس الثامن عشر من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وستمائة».

الحواشي

* – هذا البحث كان موضوعاً لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها من جامعة محمد الخامس بالرباط كلية الآداب والعلوم الإنسانية تحت عنوان:
(ديوان عمارة اليمني/ دراسة وتحقيق)، تقدمت بها بتاريخ ١٠/ ١١/ ١٩٩٥ وكان تحت إشراف د. أحمد شوقي بنبين. وانتهت المناقشة بمنحي درجة الدبلوم بتقدير حسن جداً.

١ – انظر تاريخ الإسلام/ الذهبي، حوادث سنة ٥٦٩هـ.

٢ – النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية/ عمارة اليمني، ص٧.

٣ – تاريخ اليمن/ عمارة اليمني، ص١٠٤.

٤ – المصدر ذاته، ص١١٣.

٥ – انظر النكت العصرية، مرجع سابق، ص٢٧ – ٢٨.

٦ – انظر المصدر ذاته، ص٢٨.

٧ – انظر تاريخ ثغر عدن بامخرمة، ٢:١٧٠.

٨ – ثبتت هكذا في نسخة «د». ولعلها الحسن.

٩ – ثبتت هكذا في نسخة «د». ولعلها اليمني.

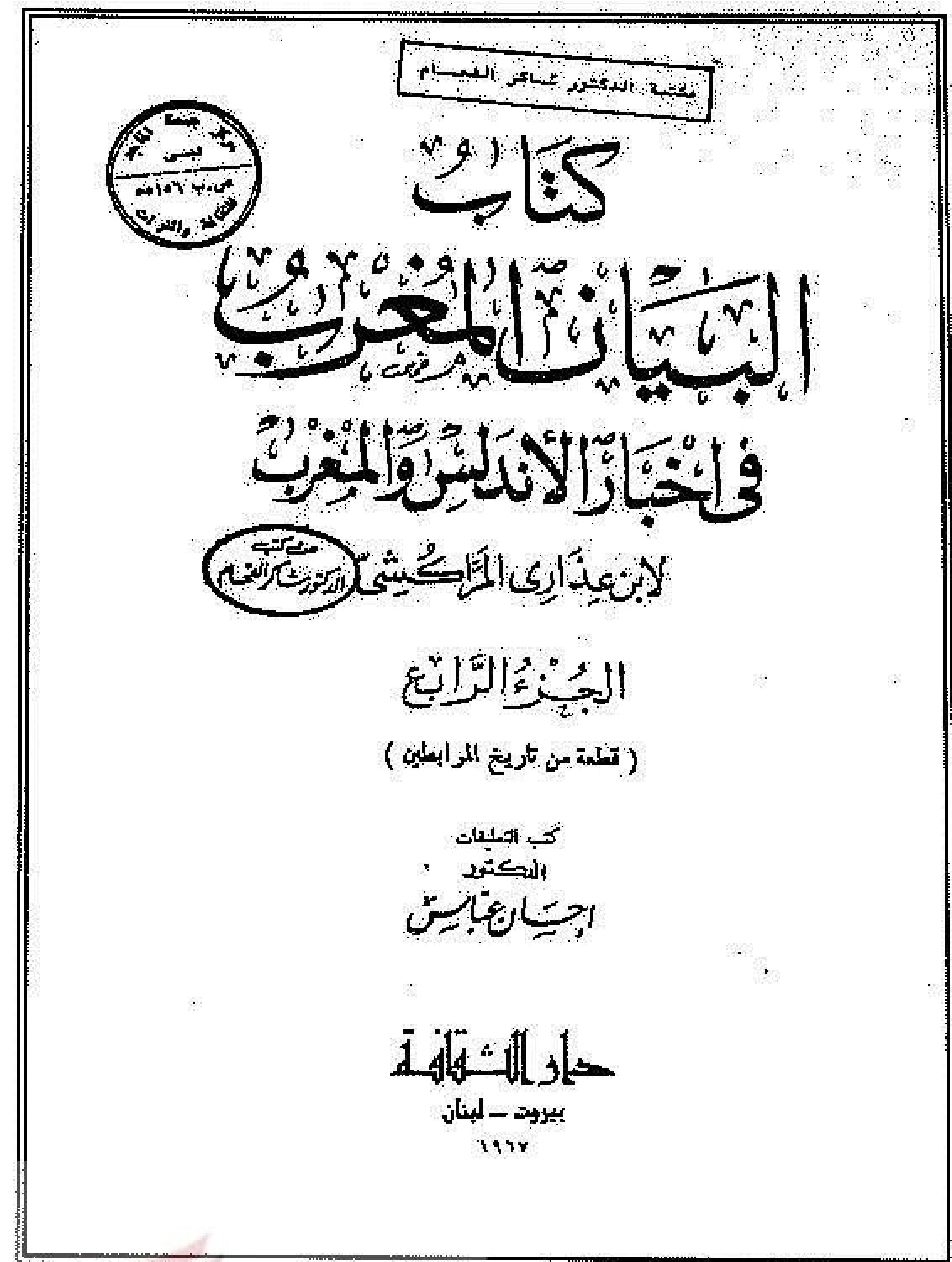
١٠ – ثبتت هكذا في نسخة «ل». ولعلها ولمن.

مؤرخ المغرب والأندلس ابن عذاري المراكشي

عبد القادر زمامة
فاس - المغرب

يمكننا أن نلقِّب ابنَ عذاري المراكشي بلقب مؤرِّخ المغرب بمعناه العام في العصور الغابرة... الذي يشمل جل أقطار المغرب العربي مع الأندلس كما يدل على ذلك هذه المدونة التاريخية الحافلة. التي دونها والتي تحمل اسم :
«البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب»

وابن عذاري المراكشي مؤرخ مغربيّ كان يعيش ويكتب أواخر القرن السابع الهجري وأوائل القرن الثامن فقد عاصر بحكم سنه انهيار دولة الموحدين وقيام دولة بني مرين. غير أننا لا نملك - حسب ما نعرف من مصادر - معلومات وافية عن هذا المؤرخ فترجمته لذلك محجوبة عنا. ولا ندري السبب الذي جعل المؤرخين يهملون كل شيء يتعلق به ما عدا النَّقلَ عن تاريخه المفيد في عدة مناسبات، وابن عذاري نفسه أهمل في الأجزاء المعروفة من تاريخه الإشارة إلى شخصه وأسرته وملابسات حياته، باستثناء بعض الإشارات إلى بعض من استفاد منهم من أهل العلم والصلاح. وآخر سنة أشار إليها في كتابه هي سنة ٧١٢هـ = ١٣١٢م. التي كان يكتب فيها بعض أجزاء كتابه واسمه



محمد أو أحمد بن محمد. ولا نستطيع أن نقرأ كلمة «عذاري» قراءة مضبوطة لاتحمل ضبطاً آخر.

– فهل يتعلق الأمر بكلمة «عِذاري» بكسر العين؟

– وهل يتعلق الأمر بكلمة «عَذاري» بفتح العين؟

– وهل يتعلق الأمر بضبط آخر؟

كل هذا ونحن نفرض أن الكلمة عربية أصيلة فإذا ثبت أن الكلمة ليست عربية فهذا شيء آخر يحتاج إلى إثبات.

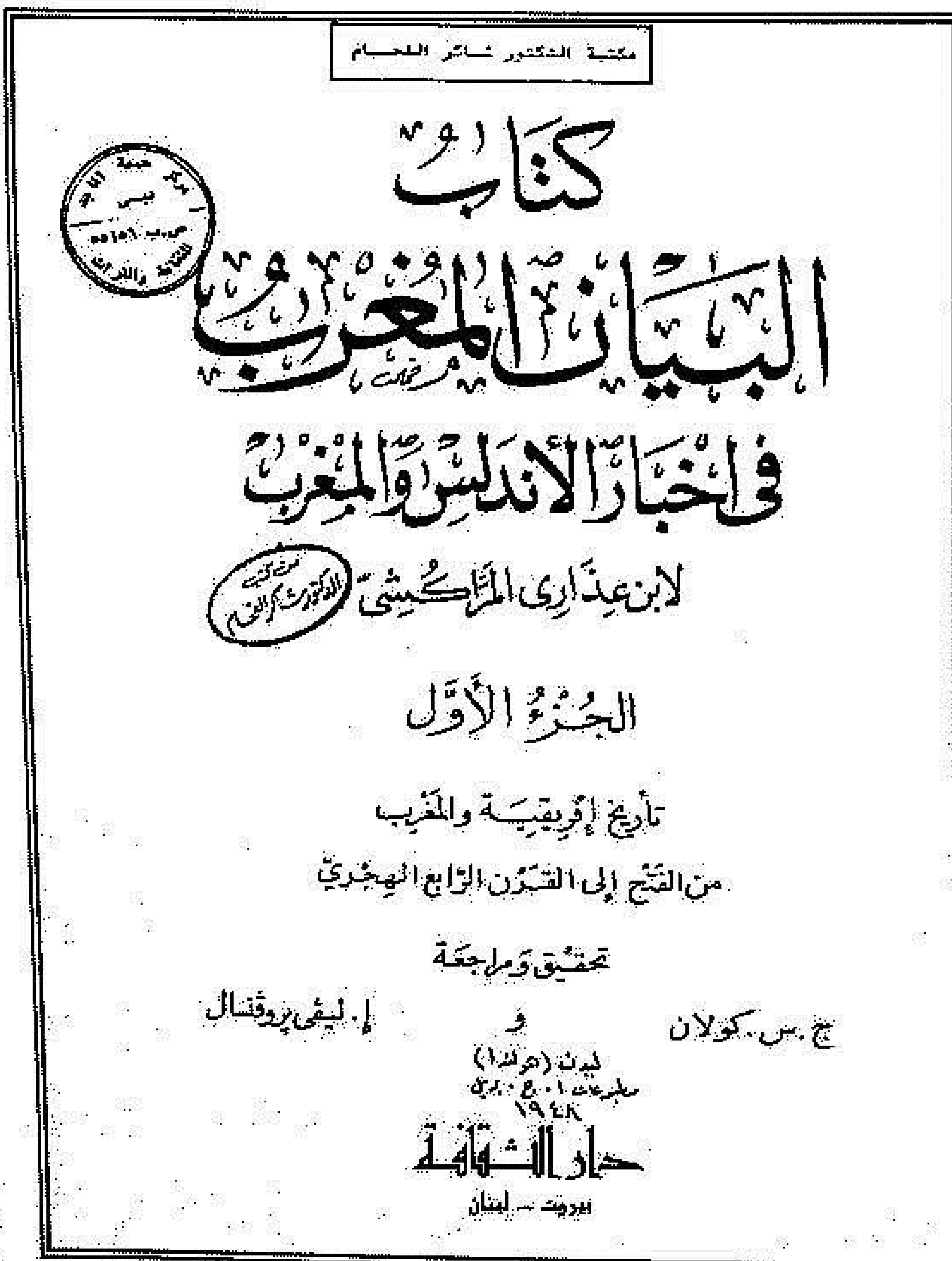
والحافظ السيوطي في كتابه : «لُبُّ اللّباب» أشار إلى هذه النسبة هكذا «العذاري» في كلام مجمل لا يفيدنا في هذا الموضوع بالخصوص.

وعلى كل فليس هذا المؤرخ هو الوحيد الذي تعرض اسمه وترجمته للإهمال. فهناك الكثيرون ممن أرخوا الناسَ فنسيهم الناس.

وأقرب مثال لدينا في هذا الكتاب هو مؤرخ المغرب، ومؤرخ مدينة فاس المعروف بابن أبي زرع صاحب كتاب: «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» فقد أهملت ترجمته، بل وقع الشكّ والتشكيك في نسبة هذا التاريخ إليه، مما جعل الأقوال تتضارب حول اسمه، وترجمته، وتاريخ وفاته.

وابن عذاري – كما يظهر من قلمه – هو بالنسبة إلى مراكش ونواحيها من حيث الانتماء، والاستيطان، والدراية الشخصية بالمعالم والأعلام. «ابن البلد» والبيئة. لا يشكو غربة، ولا يعاني عُقدة النزوح عن الأوطان.

وهو صلة وثيقة بناحية سوس وجبال الأطلس الكبير المسماة في عصره جبال «دَرَن». وعلى الأخص كانت له صلة بالرجل الصالح : أبي علي صالح بن أبي صالح عبد الحليم الذي ينقل عنه كثيراً من الأخبار



IBN 'IDĀRĪ AL-MARRĀKUŠĪ

AL-BAYĀN AL-MUĠRIB

TOME TROISIÈME

HISTOIRE DE L'ESPAGNE
MUSULMANE AU XIème SIÈCLE

TEXTE ARABE
PUBLIÉ POUR LA PREMIÈRE FOIS
D'APRÈS UN MANUSCRIT DE FÈS

PAR

E. LÉVI-PROVENÇAL

I

TEXTE ET INDICES

PARIS 1930
LIBRAIRIE ORIENTALISTE
PAUL GEUTHNER, 13, RUE JACOB

DAR ASSAKAFA
BEYROUTH - LIBAN

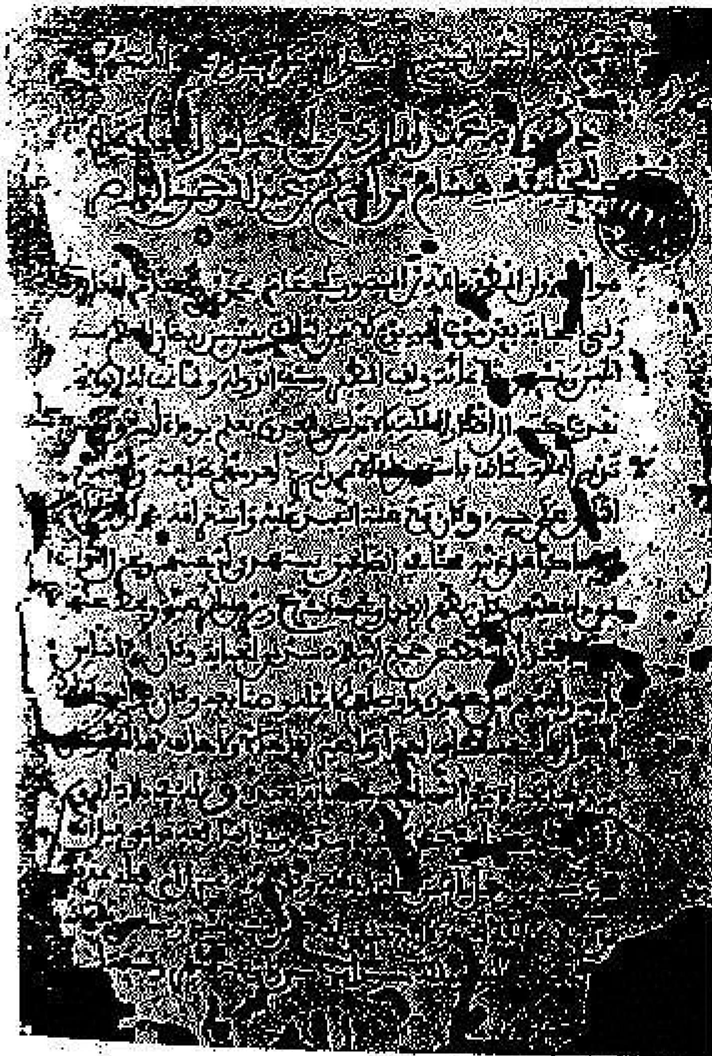
والأحداث التي مرت بالمنطقة منذ فجر الإسلام إلى عهد المرابطين ثم الموحدين. وصالح بن عبد الحليم شخصية لم يبخل عليها التاريخ كما بخل على ابن عذاري. حيث إننا نجد في «مفاخر البربر» بعض أخبارها ومعالم سيرتها وهناك فرض اقترحه المستشرق الراحل ليفي بروفنسال وهو أن المخطوطة المعروفة «مفاخر البربر» هي من تأليف ابن عذاري نفسه.

وإلى جانب صالح بن عبد الحليم نجد ابن عذاري متصلاً بالحافظ المؤرخ محمد بن عبدالملك المراكشي مؤلف كتاب الذيل والتكملة المتوفى سنة ٧٠٣هـ = ١٣٠٣م. فقد ذكر له عدة مرات، ونقل عنه ونعته بالأستاذية والمشيخة. والمادة التاريخية التي يقدمها ابن عذاري في كتابه : «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» مادة غزيرة تشمل أحوال المغرب بمعناه العام.

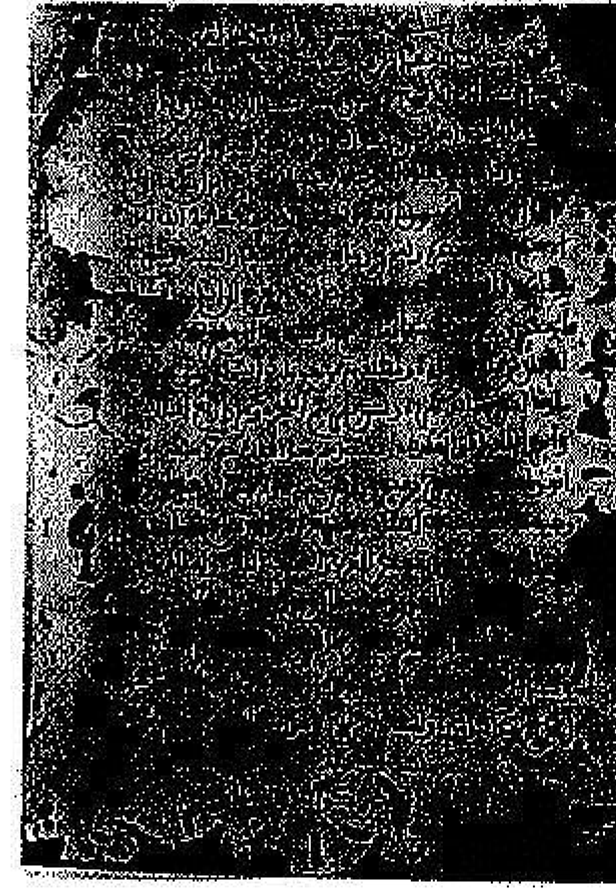
والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. ومصادره التي ذكرها في مقدمة كتابه بعضها معروف وبعضها مفقود أو محجوب عنا الآن.

ومادة ابن عذاري في تفصيلاتها وعمقها لا تغيب عنها المادة التاريخية التي عند ابن أبي زرع في كتاب : الأنيس المطرب. وكذلك المادة التاريخية التي عند ابن خلدون في كتاب «العبر» مع فروق ومميزات يمتاز بها كل مؤرخ على حدة من أجل ظروفه، وثقافته، واهتماماته الخاصة واتجاهاته الفكرية في عصره.

فهناك عند ابن عذاري تتبّع طويل النفس لما نشأ في المغرب من نحل وتجمعات مذهبية وقبلية ومراكز حضرية. وتطلعات لتأسيس الإمارات والدويلات في جنوب البلاد وشمالها، مع اهتمام بالناحية الأدبية أحياناً.



الصفحة الأولى من مخطوط البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب



الصفحة الثانية من مخطوط البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب

وفي الناحية الشكلية نجد ابن عذاري في أجزاء كتابه يزاوج بين المنهاجين: منهاج الحوليات، ومنهاج الدول والوحدات. فهو ذو ذوق متمكن من المادة يقدمها بالأسلوب المناسب، والصيغة المناسبة، ويستعمل السجع أحياناً.

وابن عذاري معاصر لابن أبي زرع صاحب الأنيس المعرب إلا أننا لانظن أن أحدهما استفاد من عمل الآخر. أما فيما يرجع للمؤرخ ابن خلدون فإنه كتب تاريخه بعد حقبة زمانية من ابن عذاري ويظنّ أن استفاد من أجزاء كتابه، لاسيما فيما يرجع لتاريخ المرابطين الموحدين. ولا نستطيع أن نجزم بذلك لأن ابن خلدون يذكر مصادره مرة ويهمل ذلك مرات. ولسان الدين ابن الخطيب عرف تاريخ ابن عذاري واستفاد منه في كتاباته الأندلسية والمغربية وكرر النقل عنه في كتاب «الإحاطة» وفي غيره من كتبه التاريخية التي تناول فيها عدة موضوعات.

ومنذ سنة ١٨٤٨م بدأت محاولة طبع كتاب ابن عذاري على يد مستشرقين مهتمين بالدراسات الإسلامية. ففي ليدن طبع المستشرق الهولندي دوزي (R. Dozy) الجزأين : الأول والثاني مع مقدمة بالفرنسية ما بين سنتي ١٨٤٨ - ١٨٥١م. ثم أعيد نشر هذين الجزأين في طبعة مصححة بعناية المستشرقين الفرنسيين : كولان وليڤي بروفنسال، مع ترجمة فرنسية بقلم المستشرق فانيان وذلك بالجزائر ما بين سنتي ١٩٠١ - ١٩٠٤م. وطبع الجزء الثالث بباريس سنة ١٩٣٠ بعناية وتصحيح ليڤي بروفنسال. وكان المستشرق الإسباني : هويسي مراندا (A. Huici Miranda) قد عثر على أقسام أخرى من الكتاب تتعلق بتاريخ المرابطين والموحدين، فترجم الجزء المتعلق بالموحدين إلى اللغة الإسبانية، ونشر بتطوان ما بين سنتي ١٩٥٣ - ١٩٥٤م. أما النص العربي فقد نشرته كلية الآداب بالرباط بمساعدة المركز الجامعي للبحث العلمي تحت إشراف معهد مولاي الحسن للبحوث بتطوان بتحقيق المستشرق الإسباني المذكور ومشاركة الأستاذين : محمد بن تاويت التطواني ومحمد إبراهيم الكتاني وذلك بتطوان سنة ١٩٦٠م.

وفي سنة ١٩٧٨م عثر محرر هذه الترجمة على نص متعلق بتاريخ الموحدين في نسخة خطية خاصة لم يكن في النسخة المطبوعة بتطوان سنة ١٩٦٠م. وهذا النصّ يشتمل على ٣٢ صفحة ونشره في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد (العدد رقم ٢٠) سنة ١٩٧٩ - ١٩٨٠م. كما أن الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني عثر على الأوراق الأخيرة من هذا الجزء المطبوع بتطوان سنة ١٩٦٠م فنشرها بمجلة تطوان (العدد رقم ١٠) سنة

١٩٦٥م. ولأهمية هذا الجزء من تاريخ ابن عذاري كلفت الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر جماعة من أعضائها لمراجعته وتصحيحه على نسخه الخطية وطبعه وقد تم ذلك على يد الأساتذة:

محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت التطواني، عبد القادر زمامة، محمد زنيبر.

وطبعته دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة ١٤٠٦هـ = ١٩٨٥م بعنوان:

البيان المُغْرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري (قسم الموحدين).

وهذا القسم له أهمية خاصة في تاريخ الدولة الموحدية منذ نشأتها على يد المهدي ابن تومرت، إلى أن انهارت وتمزقت وحدتها وطوت صفحاتها دولة بني مرين.

أما القسم المتعلق بتاريخ دولة المرابطين فقد اهتم به المستشرق الإسباني هويسي مراندا A. Huici Miranda ونشره بمجلة Hesperes سنة ١٩٦٠م بالرباط.

وبذلك أصبح الكتاب يتوفر على مادة تاريخية فريدة من تاريخ الغرب الإسلامي، لفتت إليها الأنظار في المشرق والمغرب. وهكذا أقدمت دار الثقافة ببيروت على تصوير الأجزاء الثلاثة الأولى من الكتاب وطبع جزء رابع يتضمن النص الذي نشره هويسي مراندا بمجلة Hesperes عن تاريخ المرابطين، وذلك بتحقيق ومراجعة د. احسان عباس – ١٩٦٧م.

المصادر والمراجع

١ – كتاب البيان المغرب بجميع أجزائه.

٢ – نُبَذٌ تاريخية، الرباط ١٩٣٤م.

٣ – مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ج٣، سنة ١٩٥٤.

٤ – الإحاطة، القاهرة ١٩٧٣م، ١:٣١٤ و١:٤٣.

٥ – معجم المطبوعات العربية ١:١٧٣، و٢:١٥٠٤.

٦ – مفاخر البربر الرباط، ١٩٣٤م.

جريدة «بيروت الرسمية» بالصحافة اللبنانية «المنسية»

د. هلال ناتوت
الجامعة اللبنانية - بيروت

تمثل جرائد لبنان الرسمية معلماً هاماً من مظاهر النهضة الفكرية - الصحفية على مختلف الصعد سواء الرسمية أو الخاصة، ولقد تناول مؤرخو الصحافة الدوريات اللبنانية إما بالنقل أو بالتواتر دون الغوص بكشف المستغلق أو المنسي. وقد وقعت على جريدة «بيروت الرسمية» الناطقة باسم الحكومة العربية في بيروت سنة ١٩١٨م الموالية للملك فيصل في دمشق، قبل حلول الانتداب الفرنسي على لبنان آنذاك، لعلنا نوفي بيروت حقها في هذا البحث مثل نظيراتها.

تمهيد

غدت الصحف في عصرنا الحاضر من أهم المؤسسات الثقافية والسياسية في الدولة الحديثة نظراً للدور البارز الذي تلعبه في تنوير الرأي العام، ولئن كانت في بدء ظهورها خدمت طوائف معينة من الناس تتمثل في طبقات النبلاء والتجار والسياسيين إلا أن الصحيح أيضاً هو كون الصحافة الرسمية نشأت نشأة فريدة من نوعها على يد الحاكم حصراً لتكون وسيلة إعلامية لوجه السلطة لتنشر على الجمهور النصوص التشريعية لضبط هيئة الحكم على الشعب من خلال القوانين والقرارات والبلاغات الرسمية المناسبة، وهكذا فالصحافة الرسمية تخضع لتوجهات السلطة الحاكمة وتهدف إلى خدمتها.

يعتبر انتشار الصحافة الرسمية في عواصم الولايات العثمانية في القرن الماضي(١) بمثابة ظاهرة حضارية متقدمة في الحركات الإصلاحية للإدارة، وقد وعى أهل السلطة في لبنان لاحقاً - من عرب وفرنسيين ووطنيين - الضرورة الإعلامية

لهذه الصحافة فبدت بمظاهر مختلفة حجماً ولغة وإخراجاً.

ضرورة الصحافة الرسمية

تبدو الصحافة الرسمية «لسان الحال» المعبر عن مواقف الحكم تجاه مواضيع الساعة المدافعة عن سياسة الدولة العامة.

فمن الناحية العملية إن إصدار جريدة رسمية في عهد سياسي يعود للضرورات التي يقتضيها الواقع الرسمي آنذاك لتنطق بلسان الحكومة الموجودة ولتخدم أغراضها. ويمكننا إجمالها بما يلي:

– كون الحكم القائم المولج شؤون البلاد بحاجة إلى جريدة رسمية لتنشر نصوص أنظمته التشريعية ذات الصفة الرسمية على أفراد الشعب.

– لخدمة أجهزة الدولة كافة وكرسي الحكم عن طريق هذه الجريدة إذ يسهر على أمورها موظفون مخلصون للخط السياسي للدولة والدعاية للسلطة الرسمية وإنجازاتها.

– لاطلاع الشعب وجمهور العامة على أعمال الحكام ونشاط الولاة بغية تقيدهم بالأوامر والتشريعات ضبطاً للوضع العام.

– الإقلال من أهمية الصحافة الخاصة ودورها على الصعيد الشعبي كونها وافدة من شتى الأرجاء وباتجاهات مختلفة.

– وأخيراً مجاراة التطور والواقع الصحفي العام في بقية أنحاء الأقطار واعتبار «الحدث» انجازاً جديداً.

وعليه وبعد قيام نظام المتصرفية في لبنان سنة ١٨٦١م فقد كان داود باشا أول متصرف غير لبناني على الوطن تولى أمر متصرفيته – إمارته – بحنكة وسياسة،



بيروت

بيان عمومي

وأسس أول جريدة هي «لبنان الرسمية» سنة ١٨٦٧م ثم توالت الدوريات الرسمية أو «شبهها» مع خلفائه في لبنان، نوردها على التوالي:

أولاً : في عهد المتصرفية (١٨٦٠ – ١٩١٨م)

تذكر جريدة لبنان الرسمية سنة ١٨٦٧م مع داود باشا، حديقة الأخبار سنة ١٨٦٨م (الخاصة) مع فرنقو باشا(٢)، بيروت الولاية وبيروت غزتـه سي (بالتركية) مع علي باشا(٣)، لبنان سنة ١٨٩١م (الخاصة) مع واصف باشا(٤)، ولبنان المتصرفية ١٩٠٩م مع يوسف فرنقو باشا.

ثانياً : في عهد الحكومة العربية (١٩١٨م).

تورد جريدة بيروت الرسمية سنة ١٩١٨م مع عمر الداعوق(٥).

ثالثاً : في عهد الانتداب الفرنسي (١٩١٨ – ١٩٤٧م)(٦).

تذكر جريدة لبنان الكبير الرسمية سنة ١٩٢٠، لبنان الكبير الرسمية سنة ١٩٢١

(بالفرنسية)، النشرة الرسمية للأعمال الإدارية للمفوضية العليا الفرنسية سنة ١٩٢١م، النشرة الرسمية للأعمال الإدارية للمفوضية العليا الفرنسية سنة ١٩٢١م، الجريدة الرسمية للجمهورية اللبنانية سنة ١٩٢٦م (الانتدابية)، الجريدة الرسمية للجمهورية اللبنانية سنة ١٩٢٦م (بالفرنسية).

رابعاً : في عهد الاستقلال (١٩٤٣ –) الجريدة الرسمية سنة ١٩٤٣ ... ولم تزل.

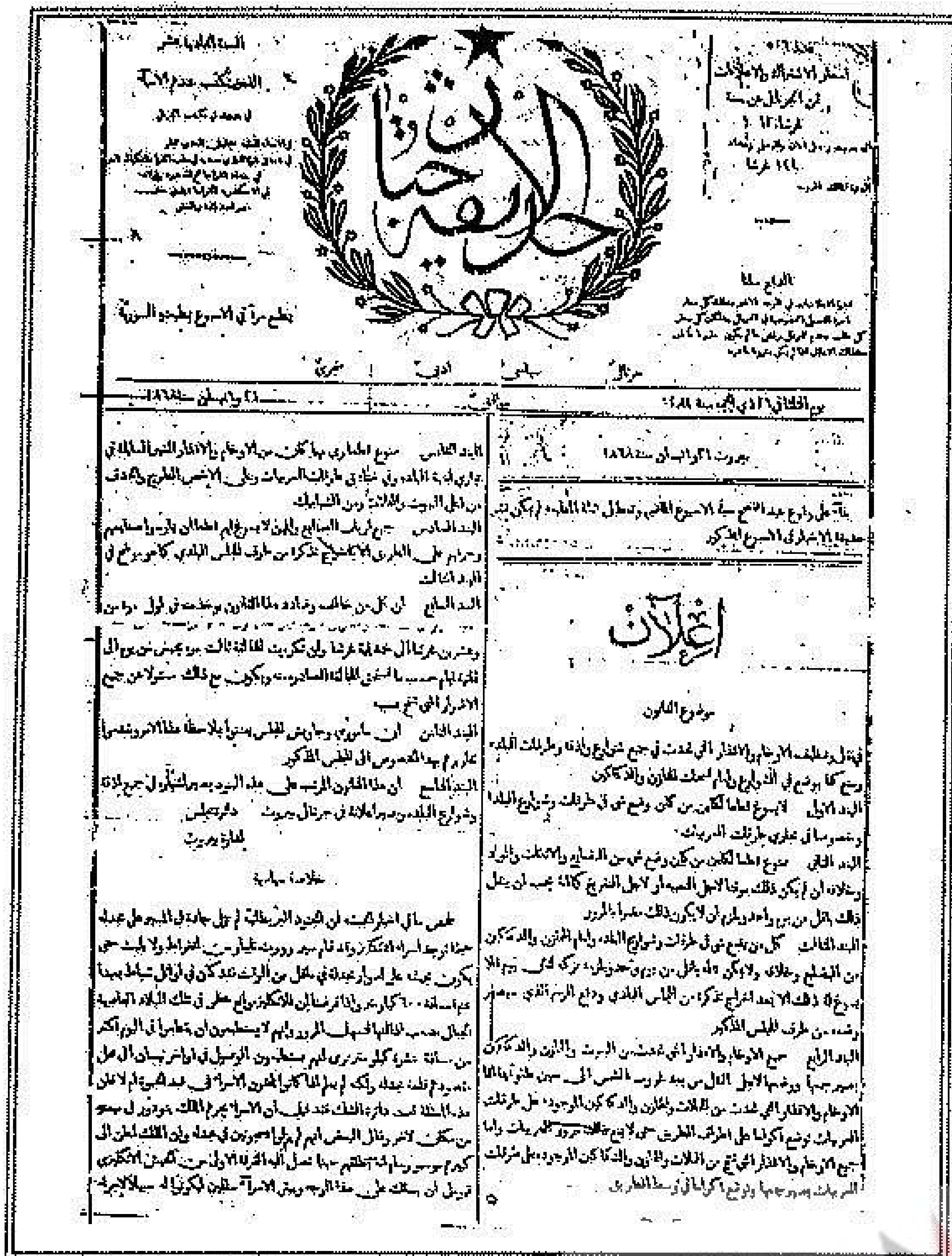
جريدة بيروت الرسمية سنة ١٩١٨

بعد سقوط سورية في يد الملك فيصل ألف في دمشق أول حكومة عربية عسكرية معلناً السيادة باسم الشريف حسين عليها في أول تشرين الأول سنة ١٩١٨م مما استتبعه انهيار السلطنة العثمانية في بيروت التي والت الحكم الجديد، فسلم واليها إسماعيل حقي بك مقاليدها إلى عمر الداعوق الذي أعلن الحكومة العربية فيها ورفع الأعلام الشريفية على المباني العامة ورافق ذلك في الحال صدور «الجريدة الرسمية بيروت سنة ١٩١٨م» متضمنة بيانات وأوامر وتعيينات... إلخ.

وصف الجريدة

والملاحظ أن صدور «جريدة بيروت» جاء متزامناً مع إعلان الحكومة العربية في العاصمة وكأن كل شيء معد سلفاً واستكمالاً لوجه الشرعية الجديدة.

وقعنا على العدد الأول من عقد أعداد الجريدة الرسمية بيروت ١٩١٨م وبذلك يعتبر



من أندر الأعداد في تاريخ الصحافة الرسمية اللبنانية، وبيروت هذه صدرت يومياً ما عدا يومي الجمعة والأحد وباللغة العربية فقط، وجاءت في صفحتين اثنتين فقط وبالحجم الوسط لجرائدنا اليوم أي بقياس ٢٤ × ٣٦سم، ونشرت موادها على طول ثلاثة أعمدة شاقولياً باستثناء الصفحة الأولى من العدد الأول إذ جاءت مسطورة على عرض الصفحة أفقياً، وخلت من الرسوم والصور وطبعت على مطابع الجريدة الرسمية لولاية بيروت سابقاً كما سلمت من الأخطاء المطبعية ويتضمن العدد الأول المذكور(٧).

– **الترقيم : العدد ١ – السنة الأولى**

– **هويتها** : وردت تسميتها بيروت الجريدة الرسمية بالخط الديواني في وسط الصدر الأعلى للصفحة الأولى.

– **وعن اليمين** : الأمور التحريرية يراجع بها ناظر المطبعة، والأمور الإدارية يراجع بها مدير المطبعة.



الجمهورية اللبنانية

الجريدة الرسمية

تصدر يوم الخميس من كل أسبوع

السنة الثلاثون بعد المئة — ملحق خاص للعدد ٣٩ — الخميس في ٢٧ ايلول ١٩٩٠

ملحق خاص
القانون الدستوري رقم ١٨
تاريخ ٢١ ايلول ١٩٩٠

الاشتراك السنوي
داخل لبنان ...١٠ ليرة لبنانية — خارج لبنان ...٢٥ ليرة لبنانية
ثمن العدد ...٥ ليرة لبنانية

– **وعن اليسار** : بدل الاشتراك عن سنة ١٢٠ غرشاً لسائر الجهات، و٨٠ غرشاً عن ستة أشهر، وثمن النسخة قرش واحد.

– أجرة كل سطر بالإعلانات ثمانية قروش والإعلانات المتكررة لها أجرة مستقلة.

التاريخ : الثلاثاء في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٦هـ، ١ تشرين الأول سنة ١٣٣٤هـ = ١٩١٨م تصدر يوميا ما عدا الجمعة والأحد.

وشغل كل ذلك الربع العلوي من الصفحة الأولى:

وهكذا بدا حسن تنسيق العمل الإداري في المطبعة ويتميز موظفوها باختصاص محدد.

– **فهارس العدد**: خلت الجريدة من أي فهرس يذكر على مدى ثلاثة عشر عدداً وقفنا عليها.

يتضمن العدد الأول:

الصفحة الأولى : بيان عمومي (وفيه) تلغراف بتأسيس الحكومة العربية في دمشق، إعلان تسليم بيروت لحكومتها العربية، وأوامر وتعيينات إدارية عامة، وإرشادات للسلامة العامة.

الصفحة الثانية : البرقيات الأخيرة إلى رئيس البلدية.

– **إعلانات رسمية** : مياه بلدية بيروت، الملح العمومي، بذورات ناتي وشركاه.

– **إعلانات خصوصية** : عن المكتب الماروني للذكور والإناث، حلويات البحصلي. وأخيراً طبعت على مطابع الجريدة الرسمية.

ومن خلال دراسة مواد بيروت نجدها خالية من أي عنوان أو ترويسة دالة على نوع الخبر (تلغراف أو بيان أو نبأ)، أو المقال (سياسي أو أدبي) لا بل إن الإعلانات نفسها لا تعرفها ما لم تقرأها كلها.

وبالإجمال يبدو الجهد واضحاً في محاولة حسن إخراج جريدة بيروت.

وتضمنت الأعداد التالية من الجريدة الرسمية تشريعات وقرارات وتنظيمات مختلفة بالإضافة إلى ذكر الأخبار الرسمية السياسية والحربية، هذا فضلاً عن الحوادث الداخلية والمحلية، وأخيراً مقالات متنوعة في الثقافة عامة والأدب خاصة(٩).

لغة الجريدة

حاولت الجريدة الرسمية بيروت إغناء نفسها بتنويع موادها الصحفية بين قانونية وسياسية واجتماعية وأدبية وإعلانات مختلفة رغم ضيق مساحة حجمها البالغة صفحتين فقط لا غير، وإنك لتشعر بمحاولة جادة في سبيل اعتماد اللغة العربية الفصحى في تحرير الأخبار والمقالات والتقارير المنشورة فيها سيما وأن الحكومة العربية

الفتية انعقدت الآمال عليها سياسياً واجتماعياً واقتصادياً فكان لابد أن تتزامن مع عملية إحياء اللغة العربية في وقت لعبت معاهد بيروت ورجالاتها دوراً هاماً على الصعيد الثقافي والإعلامي.

فعلى الصعيد القانوني جاءت البيانات والبلاغات والتعيينات ...إلخ واضحة في صياغتها، محددة في إسنادها، دقيقة في حيثياتها، مما يقطع دابر التأويل. فهذا «البيان العمومي» الأول الذي نشر في العدد الأول من بيروت فور إعلان الحكومة العربية في أول تشرين الأول سنة ١٩١٨م مع عمر الداعوق وفيه:

«بناء على التلغراف الوارد إليّ من دمشق الشام من إمضاء حضرة صاحب السعادة الأمير سعيد بك الجزائري رئيس الحكومة المؤقتة في دمشق الشام ننشر صورته بالحرف:

«بناء على تسليمات الترك فقد تأسست الحكومة الهاشمية على دعائم الشرف طمنوا العموم وأعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية / ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٦هـ».

ثم بناء على انسحاب حضرة إسماعيل حقي بك والي ولاية بيروت السابق وتسليمه إياي يداً بيد تحريراً رسمياً موقعاً منه وهذه ترجمته بالحرف:

«إلى عموم المأمورين بناء على إعلان الحكومة العربية أصبحت المدينة تجاه أمر واقع، فلقد عهد بأمور إدارة الحكومة لرئيس البلدية فتجاه هذه الوضعية أصبحت


داود باشا
١٨٦١ - ١٨٦٨
أول متصرف على جبل لبنان
ومؤسس الجريدة الرسمية

وظيفتكم منتهية لذلك أطلعكم على هذه التبديلات وأودعكم إياها / ١ تشرين الأول سنة ١٣٣٤هـ».

وعليه استنسب تعيين أحمد مختار بيهم مديراً للأمن العام عوضاً عن قومندانية الجندرمة والبوليس وتعين له معاونان سليم أفندي طيارة وجان بك فريج...إلخ».

وهكذا يدور موضوع البيان العمومي حول قيام الحكومة العربية من دمشق وما يستتبعها من إجراءات موالية وتأييدية في بيروت وما يترتب على الداعوق بعد تسلمه السلطة في المدينة من إجراءات إدارية لازمة، وجاء البيان مؤلفاً من ثلاث نقاط:

١ – تلغراف الموالاة.

٢ – بيان الانسحاب.

٣ – أمر التعيينات.

وجاءت متناسقة في موضوعها صحفياً، ومتدرجة في فقراتها منطقياً، واستطراداً أتى النص متكاملاً في صياغته، واضحاً في أسلوبه، محدداً في إسناده، دقيقاً في حيثياته.

ومن العبارات التي تضمنها البيان لفظة «تلغراف» التي كانت مألوفة في كل صحف الفترة هذه لا بل كانت تحتل زوايا هامة ومخصصة لها في مختلف الدوريات أكانت جريدة أم نشرة...إلخ.

أما ألفاظ تسليمات الترك، وترجمته، والمأمورين، والوضعية ففيها مغالطات لغوية وجب ورودها على الوجه الصحيح كما يلي: استسلام الأتراك، وتعريبه، والموظفين، وواقع الحال، وربما يكون ذلك الخطأ بسبب

السرعة التي تطلبتها الإجراءات الشكلية المعينة.

كما أننا نجد في أمر التعيينات التي لحظها البيان العمومي تسميات وظيفية أخرى منقولة بلفظها عن الأجنبية وكانت شائعة ومتداولة في ذلك الوقت، وربما استمرت في عهد الانتداب أيضاً ومنها قومندانية الجاندرمة والبوليس ورجال الجاندرمة ومخفر البوليس، وأشير إلى استبدالها بالأمن العام.

أما من ناحية الشكل العام فإن أسلوب البيان المذكور ورد بصيغة الأمر الجازم والمحدد قطعاً نظراً لمتطلبات المرحلة الانتقالية حيث يفرض المقام الضارب المقال المناسب كما ورد: ممنوع حمل السلاح قطعاً، كل من تجاسر على سلب الأمن العام يحاكم على الفور ويعدم شنقاً أو بالرصاص، المظاهرات والخطابات ممنوعة منعاً باتاً.

وفي عدد آخر ورد نبأ مراسل هافاس عن فظائع الألمان وتدميرهم مدينة لنس LENS الفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى فتورد «بيروت» للحدث مدخلاً أدبياً في ١٤ سطراً يبرز أهم عناصر الخبر ويبدأ بـ:

«آخر الأخبار وفظائع الألمان

لا تفتأ الحكومة الألمانية تعلن على رؤوس الأشهاد أنها إذا تركت البلاد المحتلة فإنما تتركها أنقاضاً بالية وهي الآن تنفذ هذا الوعيد لو حتى عند كل تقهقر بهمجية منظمة.

باريس - قال مكاتب «هافاس» المرافق للجيش البريطاني أن الجنود لما دخلوا لنس (المدينة) لم يجدوا فيها إلا الأنقاض فقد دمر العدو كل شيء وتعذر وجود محل الكنيسة...إلخ».

وأخيراً ... تذكر تعقيباً أدبياً أيضاً على الخبر في عشرة أسطر: هذه الأعمال المخالفة للحقوق الدولية ومبادئ الحضارة لن تبقى (هكذا) بلا عقاب وسيكون القائمون بها مسؤولين أدبياً وقضائياً وعبثاً يحاولون فقد جاء يوم الحساب على يد فرنسا»(٩).

وبكلمة نجد جريدة بيروت الرسمية وقد سيطرت عليها النفحة الأدبية أسلوباً ومضموناً ولا ضير في ذلك لما ساور الإعلام من تعلق بلغتهم العربية وقد برعوا فيها كما تشهد مصنفاتهم على ذلك، وكان من الطبيعي أن تمتد روح هذه المدرسة الكلاسيكية إلى مختلف النصوص الإنشائية سيما وأن التحرير الصحفي هو إنشاء مهني مصنع.

تطورها

لم يتسن لنا الوقوف على مجموعات متكاملة من «بيروت» الجريدة الرسمية لمعرفة مدى تطورها وتبيان «خطها البياني» لكن المرجح أن الانتداب الفرنسي على لبنان وسوريا حال دون كل التيارات العروبية وما يستتبعها من مظاهر إعلامية صحفية كانت أم شفهية مما قضى على ظاهرة «بيروت» وهي لم تزل بكراً.

قيمتها

تكمن قيمة الجريدة الرسمية بيروت في عدة نقاط أهمها:

الأولى: كونها المحاولة الرائدة الجادة على الصعيد الرسمي لاستكمال هيئة الحكومة العربية شرعياً.

الثانية : أنها تقدم مواد إخبارية وسياسية دقيقة موثوقة مع بدايات الحكم العربي في بيروت.

الثالثة : وربما هي الأهم في إماطتنا اللثام عن هذه الجريدة الرسمية البكر التي تجاوزها الباحثون دون التمعن بها سيما وأنهم أطالوا الوقوف عند أقل منها قدراً وبعداً وتناسوا الوقوف قليلاً عندها.

خاتمة

وهكذا فإن للسلطة السياسية الحاكمة على التوالي – من تركية أو من فرنسية أو وطنية – أهدافاً محددة تطلبت، «لسان حال» يعبر عنها ويحمل لواءها لاجتذاب الشعب إليها عبر الترغيب تارة أو الترهيب طوراً، ولم يكن ذلك ليتحقق إلا من خلال الصحافة الرسمية التي سلف عرضها لاسيما إذا عرفنا في كل مرة تطويرية رغبة «في ثورة تغيير» بالنظم الإدارية والمالية بإقرار التشريعات المناسبة، وكل هذا يحتاج إلى عملية «نشر» تتزامن مع الحدث بمواكبة هذه التنظيمات المحدثة.

إن الدراسة الوصفية للظاهرة حيناً، أو التحليلية النقدية لمضمونها حيناً آخر كشفت عن عدة حقائق لا تقتصر على ميدان الإعلام الرسمي وحده بل تجاوزته إلى المجال التاريخي وفلسفته، إذ: (١٠).

– أبرزت كل ما يتصل بسياسة إصدار الصحف الرسمية مضموناً ولغة وتحريراً وإخراجاً ودور اللبنانيين وغيرهم.

– عكست صورة صادقة لكل حقبة فأوضحت الفلسفة السياسية لكل عهد واتجاهاته وألقت الضوء على نشاط الإدارة، وجلت من الحقائق ما لم تتضمنه المراجع التاريخية.

– دعت إلى ضرورة الانكباب والتمحيص في «القرارات الفصل المصيرية» عند المفترقات السياسية للوطن، وأثر نتائجها على الشعب.

هوامش

١ – انظر: مجلة آفاق الثقافة والتراث، صفحة الغلاف، العدد ١١، السنة الثالثة، ١٩٩٥م.

– وداغر، يوسف أسعد. قاموس الصحافة اللبنانية. – بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٧٨م، ص٢٣١.

الصحف الصادرة في عواصم الولايات العثمانية نظير جرائد: بريد أزمير سنة ١٨٥٢م وتقويمي وقائع سنة ١٨٣٢ ومرآة الأحوال سنة ١٨٥٥م والسلطنة سنة ١٨٥٧م وكلها في الأستانة، أو المبشر سنة ١٨٤٧م في الجزائر، والرائد التونسي سنة ١٨٦١م في تونس، وسوريا سنة ١٨٦٥م في سوريا، والجريدة الرسمية سنة ١٨٦٧م في بعبدا مما حمل الولاة على الاهتمام بموضوع الصحافة عامة والصحافة الرسمية خاصة.

٢ – استأجر المتصرف فرنقو باشا الحلبي (١٨٦٨ – ١٨٧٣م) جريدة حديقة الأخبار لصاحبها خليل خوري وذلك لخدمة الأعمال الرسمية للحكومة، واتخذها بمثابة جريدة شبه رسمية مقابل بدل شهري قدره ثلاثين ليرة ذهباً (هكذا) عثمانية إعانة على نشرها، وصدرت باللغتين العربية والفرنسية.

انظر: خاطر، لحد. عهد المتصرفية. – بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٧م، ص٤٥.

٣ - أنشئت ولاية بيروت سنة ١٨٨٨م وضمت عكار وطرابلس واللاذقية ونابلس وبلغت مساحتها ٣٠،٥٠٠ كلم٢، وبلغ عدد سكانها ٦٥٢،٠٠٠ نسمة، وكانت مقر القناصل ومركز الإرساليات التبشيرية والتعليمية المختلفة الجنسيات بالشرق، ومركزاً تجارياً وصناعياً هاماً يقصده السوريون ويؤمه الأوروبيون مما جعلها أهم ثغر على ساحل المتوسط، ولم تزل.

انظر: غالب، عبد الرحيم . تاريخ لسان الحال . ـ طرابلس : جروس برس، ١٩٨٨م، ص٣٧.

٤ - عمد المتصرف واصة باشا الألباني (١٨٨٣ - ١٨٩٢م) إلى استئجار جريدة لبنان لصاحبها إبراهيم الأسود لتغطية نشاط الحكومة وأعمالها بحجة ضبط الهدر في إدارته، وقد اشتهر عنه حبه للمال حتى أنشد فيه الشاعر تامر ملاط بعد وفاته:

رنوا الفلوس على ضريحه

وأنا الكفيل لكم برد حياته

انظر: خاطر، لحد . مصدر سابق، ص١٥٠.

٥ - والت مدينة بيروت حكومة الملك فيصل بدمشق في تشرين الأول سنة ١٩١٨م وذلك بإعلانها الحكومة العربية بالعاصمة برئاسة عمر الداعوق، ولكنها لم تدم طويلاً إذ ما لبثت الفرق الفرنسية أن احتلت الثغور ونزعت الأعلام الشريفية الحسينية العربية.

انظر: حلاق، حسان . مؤتمرات الساحل اللبناني . ـ بيروت : دار بيروت المحروسة، ١٩٨٨م، ص٢٠.

٦ - حل الانتداب الفرنسي على لبنان بموجب معاهدة سايكس - بيكو التي تتقاسم فرنسا وبريطانيا بموجبها أقطار الوطن العربي بعد زوال الحكم العثماني عنها، وقد أعلن الجنرال غورو في مطلع أيلول سنة ١٩٢٠ دولة لبنان الكبير بعد ضم بيروت وطرابلس والبقاع وصيدا وصور وملحقاتها إلى متصرفية جبل لبنان، وأخذت أولى الجرائد الرسمية الانتدابية اسمها من هذا الكيان السياسي الجديد الذي بلغت مساحته ١٠٤٥٢ كلم٢ وعدد سكانه ٦٠٢٠٦٩ نسمة.

انظر: ضاهر، مسعود . لبنان الاستقلال . ـ بيروت : معهد الإنماء العربي، ١٩٧٧م، ص١١٩.

- وثيقة تقرير القنصل البريطاني «شاتو» في بيروت تاريخ ١٥ آذار سنة ١٩٢٢ إلى وزير خارجية المملكة المتحدة «كيرزون».

٧ - جريدة بيروت الرسمية . عدد ١، تاريخ الأول من تشرين الأول، سنة ١٩١٨م.

٨ - المصدر نفسه، عدد ١٢ و١٣ تاريخ ١٥ و١٦ تشرين الأول، سنة ١٩١٨م.

٩ - المصدر السابق.

١٠ - عبده، إبراهيم . تاريخ الوقائع المصرية . ـ القاهرة : المطبعة الأميرية ببولاق، ١٩٤٣م، ص١٢٩.

رأي

الكتاب كان رفيقاً فأصبح رقيقا

د. مازن المبارك
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
دبي

البؤس والشقاء صفتان تلازمان الكتاب في الوطن العربي اليوم، بل كثيراً ما تسبقانه وتلازمان صاحبه؛ فالكتاب لا يصل إلى المطبعة حتى يعاني صاحبه آلام حمله فكراً ملحاً مقلقاً، وآلام مخاضه وولادته، حتى يستوي خلقاً سوياً، وكلمة حرّة، وأسلوباً مبيناً.

فإذا تمت مدّة حمله، وآن أوان نضجه، تناوله الرقيب بمقصّه، ولا يكاد يخرج من بين شفرتيه بعد أن أسقط منه ما أسقط، حتى ترى ضعفه وهزاله، أو تشوّهه ومسخه، وقد يشوّه الكلام بحذف جملة، وقد يذهب رونقه وتضيع روعته وبيت قصيده بإسقاط كلمة! ثم إذا سمح رقيب الإعلام بطبعه دخل المطبعة ليمكث فيها مدّة حضانة لا يعلمها إلا الله، فإذا خرج سليماً معافى، وهيهات هيهات لوحق وطورد، وقد يشرّد وينفى، وقد يحبس ويؤسر، ويحكم عليه بالإقامة الجبرية وعدم التداول! وإذا سلم من ذلك كلّه، ووضع تحت أنظار الناس، أعرضت عنه طائفة، وزهد فيه آخرون... وأما الراغبون فيه فقلّ بينهم من يقوى على دفع مهره، وسداد ثمنه، فلا تنفد منه مئة نسخة حتى يكون الكساد والوأد نصيب النسخ الباقية، وطالما أبلت الرطوبة كتباً في المستودعات.

وجدير بنا، نحن الذين نرى بؤس الكتاب وشقاءه، أن نتذكّر عهود طفولته وصباه، ونتذكر ما كان يلقاه في تلك العهود من حنان الحاكم ورعايته، وحبّ القارئ وإقباله وعاطفته.

لقد مرّت على الكتاب في أمّتنا عصور كان فيها خشن الخدّ، متجعّد الصفحات، معكر اللون، مختلط الحروف، ثخين الخطّ لكثرة ما فشا فيه من مداد لزج أو خشن كالكحل، زريّ الهيئة رثّ الإهاب، ولكنه كان مع ذلك عالي القدر رفيع المنزلة، يتنافس الخلفاء والملوك عليه، ويعتزّون بامتلاكه ويمنّون بإهدائه.

كان إذا رحل من دمشق أو بغداد أو القاهرة إلى الأندلس أو العكس، وقف التاريخ ليسجّل أخبار موكبه: من ألّفه؟ ومن نسخه؟ ومن حمله؟ وإلى من قدّمه؟ أو أهداه؟ ومن أول من قرأه أو أقرأه؟

ومن أراد أن يعرف مدى ما حظي به الكتاب عند أسلافنا من مكانة، فليقرأ كيف كان الخليفة المأمون وأمثاله يحتفون بكتاب يهدى إليهم، وكم كانوا يدفعون، وكيف كانوا يفرّغون العلماء ويكفونهم مؤونة العيش

ليحصلوا منهم على كتاب. وفي أخبار الجاحظ أنه لماذهب إلى الوزير ابن الزيّات يعوده في مرضه، لم يجد هدية يحملها إليه أشرف من كتاب! وقد حدّثنا الجاحظ بخبر ذلك فقال: «أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك، ففكّرت في شيء أهديه له فلم أجد شيئاً أشرف من كتاب سيبويه» ولما دخل عليه قال: أدام الله صحتك ووصل غبطتك ولا سلبك نعمتك. فقال له: ما أهديت لي يا أبا عثمان؟ قال : أطرف شيء؛ كتاب سيبويه بخطّ الكسائي وعرض الفرّاء. فقال : والله ما أهديت إليّ شيئاً أحبّ إليّ منه.

لقد عرفوا للكتاب منزلته لأنهم عرفوا حقيقته؛ إنهم رأوا في سواد حروفه وارتجاف خطه وتتابع سطوره وتلاحق صفحاته عيوناً ساهرة وأنامل مرتعشة تسكب جاهدة عصارة الفكر وذوب القريحة لتجعل من تلك الأوراق الصفراء الباهتة نوراً يضيء ويهدي وآفاقاً تتفتح وتتسع.

لقد رأوا في الكتاب أعمار رجال هجروا مضاجعهم وسهروا لياليهم وأعرضوا عن ملذّات الدنيا وراحوا يشحذون قرائحهم ويحنون أصلابهم على صفحات يملؤونها بما في أعصابهم من حسّ وما في قلوبهم من غيرة تخفق وما في نفوسهم من شعور وأمل وتطلّع.

ما أكثر الذين اقترنت حياتهم بحياة السراج الذي كانوا يكتبون في ضوئه؛ عشيت عيونهم وخبا نظرهم كما كان يخبو نور السراج، وانتهت حياتهم وخرجت نفوسهم وهي جاهدة تلهث وراء الأفكار كما انتهت قطرات الزيت لاهثة في فتيل السراج، حتى انتهى السراجان: العالم والسراج في وقت واحد. وكم ذابت شموع كما ذاب أصحابها.

لقد عرف أسلافنا ذلك، وعرفوا أكثر من ذلك، فعرفوا للكتاب منزلته ورعوا للعالم حقّه.

وتمضي الأيام والسنون، ويتقدّم الزمن بنا وبالكتاب، ويتغيّر الناس، ويتغيّر الكتاب! وتغلب على الجميع عناية بالمظهر فإذا الكتاب جميل الصورة أخّاذ المظهر، يبهرك رونقه وتنميقه، ويخطف بصرك لونه وبريقه؛ إهاب لمّاع، وخطّ منمّق، وزخرفة مذهّبة، وورق ناعم صقيل.. بل لقد غالت بعض الكتب في التقليد ونافست الحسان في التجمل والتجميل فكانت على أغلفتها أصبغة وألوان وتصاوير.. وأفرط بعض (المزيّنين) حتى بدا غلاف كتابه كوجه الدمية.

واقتنى بعض الناس كتباً لمظهرها، ووضعوها على الرفوف زينة وزخرفا، لم يطالعوا فيها خبراً، ولم يقرؤوا منها حرفاً.

ولئن سعد الكتاب اليوم بمظهر الصّبا أو خدعته فتوّة الشباب، لقد شقي بما قوبل به من زهد وإعراض من القراء حيناً، ومن مضايقة وأسر وملاحقة من السلطان حيناً آخر. وأيّ سلطان؟ وهل هو سلطان واحد؟

إنه سلطان الرقابة والإعلام؛ ماذا قلت؟ وكيف قلت؟

وسلطان التموين والتجارة؛ من أين اشتريت؟ وكيف شحنت؟

وسلطان الصناعة؟ أين الوثائق؟ وأين التصريح؟

وسلطان المخابرات؛ ماذا أردت؟ ومن قصدت؟

ولو تكلم الكتاب اليوم لقال: كنت رفيقاً للملوك والخلفاء فأصبحت رقيقاً لدى السلطان. وإذا كان العبد رقيقاً لسيّد واحد فأنا اليوم رقيق لعشرات السادة!

أيها السادة، أطلقوا سراحي وفكّوا أسري، واذكروا أنكم أمّة صنعها (كتاب) وأعزّها (كتاب).

اذكروا أنكم أمة ﴿اقرأ﴾.

شعر

هوّن عليك

أرسل إلي صديق يعاتبني بسبب وشاية كاذبة فقال :
ولست أول سارٍ غرّه قَمَرُ
وحز في نفسي أن ترمي به الظنون تلك المرامي فقلت :

عبد الحميد عبد الله الهرامة
طرابلس – ليبيا

ما أنتَ أول سارٍ غرّه قمر ... ولا أنا بالذي من شأنه الغرر
هوّن عليك فما مثلي بناسجها ... تلك الألوكة أو جار بها خبر
ما كنت أحسب أن ترمي الظنون بكم ... هاذي المرامي ويؤتى منكم الحذِرُ
عاهدت نفسي عهداً لا أزحزحه ... أن يسلم الناس مني إن همو مكروا
فكيف أوذي صديقاً لم أرَ صفةً ... أذُمُّها فيه، فاهزل أيها القدرُ

تخاصم الناس في الدنيا وما شعروا ... أن الذي هالهم من شأنها نَزِرُ
وَلَمْ أَرَ فِيهِمُو شيئاً يفرّقهم ... كسوء ظنٍّ، وحُكمٍ بالذي نظروا
«تبينوا» قالها المولى ليرشدهم ... لكنهم وثقوا بالظنِّ واقتصروا
فأكثر الظلم من ذا الباب مدخله ... وغاية العذر منهم أنهم بشر

وما أبرئ نفسي قد يداخلها ... ما داخل الناس في هذا وأعتذر
لكنني إن رأيت الظنّ أكتمه ... فلست أملك سري حين ينتشر
أقلب الأمر من شتى جوانبه ... لعل جنباً تبدى ماله خطر
يريح نفسي من شكوى غضاضتها ... ويرفع الإصر عن خِلّي فيغتفر
حاشاك يا سيدي من وعظ ذي هذر ... فأنتمو مصدر للوعظ منهمر
وأنتمو فوق سوء الظن أرفعكم ... وشعركم لفتة للود يُعتبر
لكن قلباً تغشى في مضايقه ... قد كابد الحزن حتى كاد ينفطر
يبث شكواه علّ الله يحفظنا ... من الوشاة فثم النار والشرر

★★★